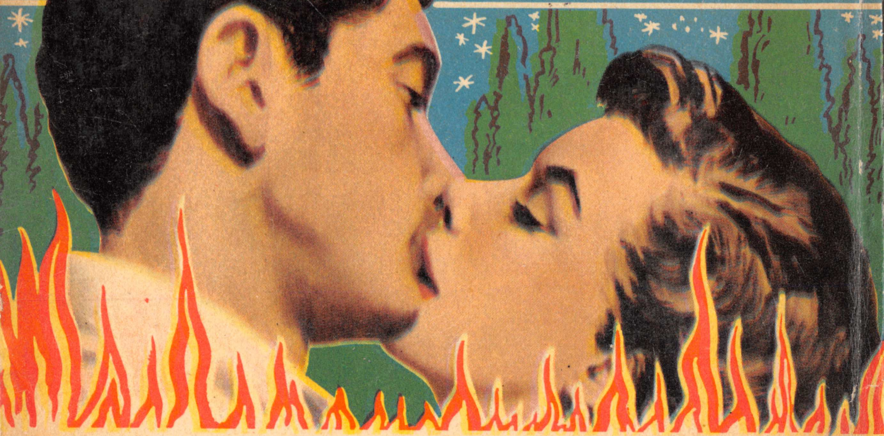
مطبوعات كتابي

يصدرها حلمي مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

# تحت ظلال "الليلا"!


للكاتبة التركية المعاصرة : مبرورة سامي




مبرورة سامي

# تحت ظلال "الليلا" !



# LAILAKLERIN ALTINDA

MABRURA SAMI

٢٠٠ صفحة - ١٠ قروش

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

مدير التحرير : محمد بدر الدين خليل

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الإغريق

الكتاب الثالث والاربعون

# تحت ظلال (( الليلا )) !

ترجمة : نفيسة بهجت

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

# مجموعة كتابى

## ( الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية )

صدر منها حتى الان واحد وثمانون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر .. وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو ( فؤاد سابقا ) بالقاهرة ( عمارة الجندول ) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص اجرة البريدالمسجل ، ماعدا العدد : العاشر وثمنه عشرون قرشاوالاعداد ١٣ ، ١٦ وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا . اما الاعداد الستة الاولى والعددالعشرون فقد نفدت ، والادارة مستعدةلشرائها

• الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : ما يوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وامريكا وفرنسا واستراليا وتركيا : قيمة الاشتراك : ١٦٠ قرشا « عن سنة » خالصة اجر البريد المسجل ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف اجر البريد الجوى

• ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على احد بنوك القاهرة أو تحويلات عليه . واذا تعذر فترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما على ان يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بان الكوبونات الدولية فئة الاربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما .

# مطبوعات كتابى

## ( الترجمة الكاملة الامينة لشوامخ الكتب العالمية )

صدر منها اثنان واربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى منتصف كل شهر . وتطلب قائمة بأسمائها من الادارة .

وثمن النسخة ١٠قروش ، عدا الاعداد : ١و٤و٧و١٩و٢٢و٣٤ فثمن النسخة ٢٠ قرشا ، و ١٢ ومن ٢٨ الى ٣٢ ومن ٣٥ الى ٣٧ ، و ٤٠ فثمن النسخة ١٢ قرشا ــ والاعداد ٣ و ٥ و ٦ ، ٨ قروش . ويضاف قرشان مقابل اجر البريد المسجل عن كل عدد .

# هذا النموذج من الادب التركى الحديث ..

**عزيزى القارىء**

• **اعتادت** «مطبوعات كتابى» ــ وشقيقها الاكبر «كتابى» ــ أن يجنحا بك، بين الحين والحين، الى موارد الثقافة الشرقية، التى حرص الاستعمار على أن يبهر أعيننا عنها، بما سلطه على أذهاننا من أضواء ثقافته .. وقدمت لك السلسلتان ــ فى هذا المضمار ــ نماذج من روائع الآداب الهندية والروسية والصينية والفارسية ..

**واليوم، ترتاد «مطبوعات كتابى» بك ميدانا «جديدا» من الادب الشرقى .. الميدان التركى !** .. واذا قلت انه «جديد»، فانما أقصد بالكلمة نطاقا زمنيا محدودا، وليس شاملا .. فالعلاقة بين الادبين العربى والتركى وطيدة، وثيقة، منذ القدم. **ولكن الاستعمار العثمانى، بما كان عتاة «السلاطين» المستبدين يبثونه فيه من رغبة فى قتل القومية العربية، جعلنا ننصرف عن هذا الميدان من ميادين الادب، بل وعن كل ماهو تركى !** .. وجاء الاستعمار الغربى فساعد على تباعدنا عنه ــ وعن كل ماهو شرقى ــ لنقصر منهلنا على الثقافة الغربية ..

ولكنا اليوم قد تخلصنا من الاستعماريين، ورفعنا صرح شخصيتنا العربية قويا، عزيزا، شامخا، لا تزعزعه أعاصير مؤامرات النفوذ والاستغلال . **فحق لنا أن ننشد الثقافة لوجه الثقافة، والادب لوجه الادب، دون أن نخشى أية مؤثرات** .. ولهذا قدمت لك هذا النموذج الرائع من الادب التركى الحديث :

## تحت ظلال « الليلا » !

• **والقصة** – كما ستقرأها – مأساة فتاة يتيمة ، لا حول لها ولا قوة ، ولا ناصر لها ولا معين .. ومأساة مؤلف ضرير ، فقد بصره اثر خيانة جمعت بين زوجته وأخيه ، فكره البشر أجمعين ، ومقت – بوجه خاص – كل ذكر للمرأة .. **وتلتقى المأساتان ، بين تماس رقيق لين ، واصطدام عنيف مروع . فاذا بالقلب يقفز لحظة طربا ، ليقفز فى الاخرى جزعا وذعرا وانفعالا ..** مما قد يذكرك بالمأساة الكلاسيكية الرائعة « جين اير » – التى قدمتها لك « المطبوعات » فى أعدادها ١٥ و ١٦ و ١٧ – وبالمأساة الحديثة التى فتنتك منذ عهد قريب : « المسبحة » ، والتى قدمتها لك « المطبوعات » فى عدديها ٣٩ و ٤٠ .. **ولكن « تحت ظلال الليلا ! » تمتاز عنهما بالجو .. الجو الشرقى الصميم ، الذى تعيش فيه أنت ، وأعيش فيه أنا ، بكل ملابساته ودقائقه ، وظروفه ، حتى لتكاد تشعر بأنك تعيش فى وسط أحداث القصة !**

ليس هذا فحسب ، بل ان « تحت ظلال الليلا ! » تقدم لك ناحية أخرى تبهرك .. فهى من تأليف كاتبة تركية ، وقد نقلتها اليك بالعربية كاتبة مصرية .. **كاتبتان تعاونتا على امتاعك بها ، وأشهد أن المجهود الذى بذلته الاولى كفيل بأن يخلد اسمها فى الادب العالمى الحديث ، كما أن المجهود الذى بذلته الثانية يشهد لها بالامانة والاجادة .. وهذا العمل الادبى الجليل ، الذى جمع بينهما ، كفيل بدوره بان يشهد بالمكانة الرفيعة التى بلغتها المرأة الشرقية عامة !**

وبعد .. ها هى ذى القصة بين يديك ، فاقرأها .. واعتقد أنك لن تلبث أن تقر كل كلمة ذكرتها !

**المحرر**



(( الليلا )) : زهور تنمو فى آسيا وأوربا الشرقية - بوجه خاص - وتتراوح ألوانها بين الابيض والبنفسجى والارجوانى ويكثر استنباتها على أسوار المزارع وفى الحدائق المنزلية

**( بيك ) فى : ٥ فبراير**

• **مات** أبى !.. وبموته شعرت بأننى فقدت أمى واخوتى وأصدقائى ومباهج الحياة جميعا . فلقد كان أبى كل شىء لى ، وبفقده فقدت كل شىء .. حتى دارنا بيعت بعد مضى عشرين يوما من وفاته . وها قد حضر الدائن اليهودى ليستوفى بقية حقه بطرح مفروشاتنا فى المزاد العلنى !

ان ضوضاء المزايدين ، ونظراتهم الجشعة – المحدقة بكل قطعة قديمة من أثاث منزلنا لها بذكرياتها العذبة الحافلة فى نفسى أجل مكانة – لتذيب نفسى حزنا وأسى .. **ألا ما أعجب تصاريف القدر ! لقد لبث هذا الاثاث مجتمعا هنا تحت سقف دار واحدة . وها هو ذا الآن يتفرق ، كل قطعة فى واد ، كما تفرق أصحابه من قبله !** .. ان كل قطعة منه تحمل ذكريات طفولتى وهنائى القديم : ها هى ذى الاريكة مازالت تحتفظ بأثر المداد الازرق الذى أسقطته عليها وأنا طفلة .. وها هى ذى المائدة التى طالما جلست اليها أمام أبى .. وها هى ذى السجاجيد والتحف والصور الزيتية .. ما أقسى الايدى الغريبة التى أخذت تتداولها وتفحصها فحصا دقيقا ،وتقدرها بأبخس ثمن ! .. كم من عابر سبيل استوقفه جمال منزلنا الابيض الصغير ، وهو قائم فوق قمة الربوة ، تحيط به زهور « الليلا » التى ينبعث شذاها الساحر فيعطر النسيم ويغرى العابر على اطالة الوقوف ، ريثما تروى له زهور الحديقة – على تباين ألوانها – عناية أصحابها وتعلقهم بها !

**كان ذلك منذ شهر واحد ، أما الآن .. فقد تهدم كل شىء!** .. تهدم العش الجميل ، ولم يبق من آثاره الا فتاة يتيمة حطمت الاحزان قلبها المرهف الحى .. فتاة بائسة لا تملك من حطام الدنيا غير حقيبة ملابسها ، وتضطرها الظروف الى

أن تنشد مأوى – يقيها شر التشرد فى الطرقات – عند خالتيها ! .. هذه الفتاة هى أنا !

* * *

انني الآن فوق ربوة عالية تشرف على المدافن ، وتبعد عن المنزل قليلا.. هذه الربوة الخضراء اليانعة ، كانت مكاننا المحبب للرسم ، وها هى ذى الالوان المختلفة – التى كنت أنثرها على الاحجار – ثابتة ، زاهية ، رغم تناوب الشمس والمطر على محوها !

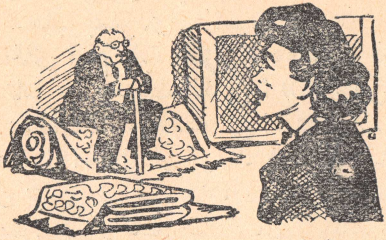
وأبى .. يرقد هناك تحت أطباق الثرى .. ثرى الارض الخصبة السوداء ، التى طالما أحببتها ، والتى ترغمنى الاقدار على فراقها . انني لم أعترض على وصيته الاخيرة بكلمة ما ، بل أظهرت له قبولى ، وطيبت خاطره حتى لاأزيده عذابا واضطرابا وهو يغالب سكرات الموت فى ساعاته الاخيرة، تاركا طفلته الوحيدة فى تيار الحياة القاسى من غير نصير .. عزلاء من كل سلاح ! **وعدته أن أذهب الى خالتى بعد وفاته، بالرغم من أننى لا أحمل لها عطفا .. وكيف أشعر نحوها بالحنان ، وأنا لم أرها قبل اليوم الا مرات معدودات ؟**

ان توالى المصائب قد أفقدنى الشعور ، وجعلنى كالآلة الصماء .. لا بكاء ، ولا ابتسام .. لا ألم ، ولا فرح ! ولكن هذا الجمود القاهر لم يستطع أن يحول عينى لحظة عن تلك البقعة من الارض السوداء ، التى ضمت فى جوفها كل من كان لى فى الحياة .. فلم أشعر الا وأنا ألقى بنفسى عليها ، وأمرغ وجهى فى تربتها السوداء ، وأناجى ساكنها بصوت خنقته العبرات قائلة : « أبى ! أبى الحبيب ! .. ان طفلتك تواجه حياة مظلمة ، لا تعرف مدى قسوتها . وفى هذا المساء سيظلها سقف دار غريبة عنها ، لا تشعر نحوها بحنان ، وستأكل عيش أهل لها زاهدين فيها .. تبتسم ارضاء

لهم بينما يتمزق قلبها حزنا وألما .. ستكون بلا نصير يذود عنها ! ستكون بلا صديق مخلص تبثه أشجانها ! انهم بلا شك سينظرون الى هذه الفتاة اليتيمة الفقيرة — التى فقدت أباها ومنزلها وكل ما تملك — نظرتهم الى دخيلة عليهم اضطروا لايوائها مكرهين ! .. **أقسم لك يا أبى — بحق وحدتى وآلامى — أن أكون قوية العزم ، صبورة ، ولن أطلع انسانا ما — الاك يا أبت — على أحزانى وأشجانى ! .. سأتصل بك على صفحات دفترى هذا ، أبثك بأسائى ، وأشكو لك قسوة حياة سأتحملها فى صبر ، دون أن يرى اضطرابى أو يسمع أنينى انسان ما !**
.. أقسم لك يا أبى بحبك وحنانك ، أن أبثك مافى نفسى يوما فيوما ، وساعة فساعة . وأنت يا أبى .. دع روحك تواسينى كما كنت تفعل فى حياتك ودعنى أشعر بيدك تربت على رأسى مشجعة كعادتها ، من وراء الافق المجهول ! وسيكون عزائى الوحيد أن أشعر بأنك دائما معى ! »

واجتزت الطريق الخلفى لمنزلنا ، ونظراتى عالقة بزهور « الليلا » البنفسجية الفاتنة ، وهى مزهوة بجمالها ، كعروس فى ليلة زفافها ! .. وتعثرت قدماى كثيرا فى الطريق . وانحنى كاهلى كأنه يحمل وقر السنين الطوال .. حمدا لله فان أصوات « المزايدة » المقيتة قد تلاشت .. فقد انتهت العملية !

ووجدت حكمت بك — مدرسى الكهل ، وصديق أبى — جالسا فى الردهة على كومة من سجاجيد متراكمة ، وقد أسلم رأسه الى يديه ، وغرق فى بحار التفكير . وحين سمع وقع خطواتى ، رفع رأسه ، وحاول الابتسام ، ثم قال : « انتهى كل شىء يا « نوران » ، وسينام الحارس هنا الليلة ! »
.. ولم أجبه ، بل تابعت سيرى الى الداخل .. آه ، ياالهى .. ماهذا ؟ **لقد اختل نظام كل شىء ، وتراكم الاثاث كيفما وضع ! .. وشعرت بالحقد يملأ نفسى وأنا أنظر الى قطع الاثاث ، وانتابتنى غصة لم تدفع الدمع الى عينى ، فشعرت**



**كأنما كانت قطراته الحبيسة تتساقط قطرة فقطرة فتكوى أعماق نفسى !** .. واقترب منى صديقى الوحيد ، وهمس فى أذنى قائلا : « لقد أنقذت أدوات الرسم الخاصة بأبيك يا « نوران » ، وسأحفظها لك ، لتكون رهن اشارتك متى شئت !.. ولو كنت أملك مالا،لانقذت الشىء الكثير،ولكن..!»

وربتت يده بعطف شاكرة ، ولم أجبه أيضا . فتركنى وخرج .. ولعله شعر باحتياجى الشديد للوحدة فى لحظات وداعى الاخير .. ورحت أطيل النظر الى كل هذه الاشياء — التى هى بعض نفسى — وكأننى مريض يئس من الشفاء وشعر ببرودة الفناء تدب فى أطرافه، فهو يتبع النظرة النظرة الى الشمس ، والى جمال الحياة ، والى كل شىء يحبه ، واللوعة تدمى فؤاده لفراقها مكرها !

وأفقت — أخيرا — على سعال مدرسى الحاد ، فروعتنى جيوش الظلام التى ابتدأت تطارد شمس الاصيل فى قسوة. ولم يعد ثمة مناص لى من الرحيل ، والرحيل بسرعة ، قبل أن افقد البقية الباقية من عزيمتى .. وبينما كنت أتأهب لحمل حقيبتى كى ألوذ بالفرار — الفرار من هذا الوداع القاتل ! — سمعت مدرسى يقول : « لماذا ترفضين موافقتى ؟

.. اننى أود أن أطمئن عليك يا نوران ! » . فقلت مراوغة : « لاننى أريد الذهاب بمفردى يا أستاذى ! »

**وتعثرت ساقاى أمام باب المنزل ، ووهنت قواى ، وركد تفكيرى ركودا تاما .. وساءلت نفسى : « الى أين أنا ذاهبة ؟ .. ولمن ؟ .. ولماذا ؟ »** .. وعدت الى أستاذى — بعد أن سرت قليلا — وقلت له وأنا أحاول أن أوقظ ذهنى الشارد المضطرب: « اذا شئت أن تؤدى لى صنيعا ، فتعال لرؤيتى مرة فى الاسبوع ، لتحمل الى رائحة هذا المكان ، ولتسمعنى صوتك الذى يخيل لى — حين تمس نبراته سمعى — انه صوت أبى الحنون ، فكم هو يشبهه ! .. **ان انتظار هذا اليوم طوال الاسبوع سيكون قاسيا على ، ولكنه سيطهر عواطفى ، ويجدد حنينى ، ويلهب قلبى بالذكرى الخالدة ! .. والآن فلتبق هنا لتوصد الباب ورائى ، واسمعنى صوتك حتى أسترد شجاعتى ! »** .. وحدثنى طويلا بكلام لم أفقه معنى من معانيه ولكننى رحت أصغى لنبرات صوته بكل جوارحى !.. وما لبثت أن مضيت فى طريقى ، تاركة ورائى كل ما أحببت، وأصداء صوت مدرسى الكهل يتجاوب فى الفضاء اللانهائى ، وهو يردد : « ليساعدك الله يانوران ! »

## ( أياس باشا ) فى : ١٥ فبراير

• **عشرة** أيام مضت ، وقد كاد الحزن والاضطراب أن يهلكانى . ورغم قسمى المقدس ، فاننى كنت فى خوف من أن أمسك القلم ، اذ كنت فى شدة اليأس من الحياة !

لقد رأيت أول مارأيت ، فى هذا القصر — الذى يشعرنى فى كل لحظة بأننى دخيلة عليه — خالتى الكبرى .. رأيتها تفتح الباب بشدة ، بعد أن انتظرت مدة ليست بالقصيرة فى غرفة الاستقبال الرحبة، ودقائق الانتظار تمر طويلة رهيبة..

**وانفرجت شفتاها عن ابتسامة آلية لاتتفق مع عبوس وجهها، حين وقع نظرها على. وتقدمت نحوى منتفخة الصدر مرتفعة الرأس ، كأنها تمثال صخرى يمثل العجرفة والكبرياء .** ولم ألبث أن أسرعت بالتقدم اليها وهى تخطو خطواتها ببطء ، مهتزة ذات اليمين وذات اليسار ، ولثمت يدها بكل احترام .. وشعرت بقامتها وهى تنحنى قليلا فتمس بشفتيها وجنتى لتطبع قبلة فى برودة الثلج ! .. وكانت تتجاوزنى ببصرها الى ما ورائى ، وهى تحدثنى ، وكأنها لاترانى .. أو كأنها تحدث خادمتها ، قائلة :

ـ البقية فى حياتك ، هكذا حال الدنيا ! .. مهما فعل الاحياء فانهم لايملكون أن يموتوا مع الراحلين ، وأنت شابة صغيرة وسوف تنسين .. فان مجال السلوى هنا أمامك واسع ! و .. و .. و .. !

**ولم تتورع عن جرحى فى أعز ذكرياتى . وانتقدت تصرفات حبيبى الراحلين ـ أمى وأبى ـ بأقوال ظاهرة وأخرى مستترة .. وما زلت ـ الى الآن ـ أعجب من نفسى ، كيف تحملت انتقاداتها المرة الظالمة فى صبر وحلم ، فلم أثر ولم أتمرد ! .. وهكذا عرفت منذ اللحظة الاولى فى أى جحيم قدر لى أن أقيم .. ولم يكن ثمة مفر من الاقامة ، وسماع انتقادات أهل هذا القصر .. الانتقادات السخيفة التى يبدونها ـ فى كل فرصة ينتهزونها ـ للحط من قدر أمى اذ لبت نداء قلبها وتزوجت بمن اختارته !**

وأخيرا قالت خالتى ، ويدها تعبث بأطراف خمارها الاسود الحريرى : « ان غرفتك معدة منذ يومين ، وقد فرغ صبر « فريحة » من انتظارك .. وهى لم تحضر لاستقبالك لانها تستعد لسهرة هذا المساء ! » .. وفى هذه اللحظة ، سمعت أصواتا ضاحكة صاخبة خارج الغرفة ، ثم فتح الباب بشدة ، ودخلت منه فتاة شقراء ، نصف شعرها مجعد ، والنصف

الاخر مازال مسدلا على كتفها ، وقد ارتدت ثوبا من التل الوردى . وصاحت بلهجة غريبة متكلفة : « هالو . . هالو ! »

واذ اقتربت منى ، ارتبكت وزايلها مرحها .. ولعل ثوبى الاسود القاتم ووجهى الحزين الكئيب كانا السبب فى ازعاجها ، فاذا بها تبادر الى ارخاء ذراعيها المتأهبتين لمعانقتى ، واكتفت بالضغط على يدى قائلة : « لقد كدت أطير فرحا حين بلغنى نبأ وصولك الآن ، وها أنت ذى ترينني قد فررت من بين يدى الحلاق لارحب بمجيئك ، ولارجوك الاستعداد لقضاء سهرة هذا المساء معنا فى الخارج .. ولكن ، يا للاسف ! انك حزينة ولا تستطيعين الحضور ! »

وما لبثت أن عادت من حيث أتت ، ضاحكة صاخبة ، قبل أن أنبس بكلمة صغيرة ، جوابا لحديثها . **فعدت الى مكانى ، كما كنت ، وتطفلى يزداد تجسما فى عينى ، اذ انكمشت فى ركن الغرفة ، كالضيف الغريب غير المرغوب فى زيارته .. الى أن حضرت الخادمة وقادتنى الى غرفتى . وما ان خلوت الى نفسى فيها ، حتى وقفت مدة طويلة جدا أطيل النظر الى كل شىء حولى ، كما يفعل نزيل الفندق فى الغرفة التى أفردت له !**

وسمعت فريحة تمازح حلاقها باللغة الانجليزية للحظة ترك فيها الباب منفرجا ، ثم أغلق .

وكنت لا أزال مسمرة فى مكانى لم أتحرك ، حين دخلت خالتى الصغرى ترحب بى .. كانت أقل مكانة من خالتى الكبرى . وقد قبلتنى مرحبة ، ولكنها نظرت الى فاحصة متفرجة ، وكأننى مخلوق شاذ فى أحد المعارض ، ثم قالت بصوت يشوبه الاسف : (( **ما أشبهك بأمك !** )) .. وأحمد الله اذ انتهى حديثها عند هذه الجملة ، وأسرعت بالخروج من الغرفة ، وهى تعتذر بضيق وقتها . فأطفأت النور ــ بعد خروجها ــ وألصقت وجهى بزجاج النافذة ، ونظرت الى

الافق البعيد ، والساحل القريب وقد تلألات أضواء المنازل على مائه الصافى .. ولم أشعر الا وأنا أتمتم قائلة : «ليساعدك الله يانوران !! »

* * *

انني أبغض كل شيء فى هذا القصر .. لكم تثير أعصابى كل تصرفات أهله ، مثل غرام رب البيت ــ وعضو مجلس النواب ــ بلعب القمار على اختلاف أنواعه ، فى كل مساء ، فى الدار ، مع فريق من أصدقائه .. ومثل عجرفة خالتى الكبرى التى لاحد لها ، و حديث خالتى الصغرى عن مستقبل ابنها عدنان ، ومدى ما سيفخر الوطن به حين عودته من فرنسا حاملا درجاته العلمية المشرفة !

**ألا ما أمر الحياة فى هذا الجو البغيض الى نفسى !**

وبالرغم من شذوذ « فريحة » ونزواتها الجنونية ، فانها الوحيدة التى أستطيع تحمل حديثها راضية . أما معلومات ابنة خالتى العزيزة هذه ، فلا تتعدى مجلات السينما وآخر أحداثها : آخر أفلام الموسم ، دقائق حياة الممثلين المشهورين ، وتواريخ ميلادهم ! .. ولكم تفتعل لهجة حديثها ، باذلة جهدها كى تظهر كالامريكيات ، وهى تحشر فى أحاديثها كلمات انجليزية بدون مناسبة .. ولا يخلو حائط من حوائط غرفتها من صور مشاهير ممثلى السينما الاجانب المقربين عندها ، المحببين الى قلبها ! .. **انها تقف ــ فى كل صباح ــ أمام المرآة وقتا طويلا ، فى محاولات ناجحة أحيانا ، وفاشلة أخرى ، لتبدى زينتها وترجل شعرها على نسق ما تفعل ممثلات السينما اللائى تراهن فى أفلام الاسبوع !**

وقبل أن يمضى على تعارفنا أيام ، كنت قد أصبحت صديقتها المنتظرة بالرغم من البون الشاسع بين عقليتينا .. وحين لمست هذا الفرق البين بين تفكيرى القديم العقيم ــ

على حد تعبيرها ! ـ وتفكيرها الحديث العصرى ، أطلقت على اسم « سيدنا الشيخ » فسألتها متعجبة :

ـ **عجبا .. ولماذا لا أكون « الست الشيخة » ؟**

ـ ألا تعرفين ؟ ذلك لان بصوتك خشونة مستحبة كأصوات الرجال .. وما من مرة سمعتك تتكلمين ، الا شعرت بنشوة غريبة تسرى فى بدنى من عذوبة نبرات صوتك الخشنة نوعا ما .. أتضحكين ؟ أراك غير مصدقة ، أليس كذلك ؟ !

ما أغرب تعبيرها عما يخالجها من عواطف متباينة .. وكثيرا مايستعصى عليها الامر ، فى مواقف كثيرة ، فلاتستطيع أن تعبر التعبير اللائق عن شعورها .. وهذا أثر من آثار السنوات الطويلة التى قضتها فى المدارس الاجنبية على ما أعتقد !

**وفى هذا المساء بالذات، فتحت باب غرفتى بحركة مسرحية، وهى ترتدى « بيجامة » سوداء مطرزة بورود حمراء .. ورأتنى وأنا جالسة الى المنضدة مستغرقة فى التفكير ـ وأمامى دفترى ، والقلم مازال بين أناملى ـ وقد عصانى الخيال وشرد منى الخاطر . فنظرت الى متعجبة وسألتنى قائلة : « أخطاب .. ؟ »**

ـ خطاب ؟ ! .. ولمن أكتبه ؟ !

ولم تجب، بل راحت تنثر الوسادات الصغيرة ـ التى جلبتها معها ـ على الارض ، فى الوضع الذى كانت تريده . ثم ألقت بنفسها عليها ، وانثنت على نفسها فى وضع غريب ، لعلها تعلمته من دور السينما ، وقالت : « لصديقة .. مثلا ! » . فقاطعتها ـ قبل أن تسترسل ـ قائلة : « لم هذا الفضول ، وأنت أدرى الناس بأننى لم أحظ بأصدقاء فى حياتى غير أبى ومدرسى الكهل ؟ » .. وصمتت قليلا ، ثم قالت : « لست أدرى لم لا أشعر الليلة برغبة فى النوم ! » .. وتمطت ، وتثنت آخذة لنفسها وضعا آخر ، وفاجأتنى بقولها : « لماذا

تبغضين طريقة حياتنا وتنفرين منها ؟.. انك لاتحبيننا يانوران، وبالرغم من أنك تحاولين اخفاء شعورك فانني أراه واضحا جليا على صفحة وجهك .. يالك من مسكين يا « سيدنا الشيخ » ! .. انني أرثى لك من كل قلبى ! » .. ولقد مطت شفتيها ، وأطالت فى لفظها « سيدنا الشيخ » ، وهى تحرك رأسها ويديها حركات ساذجة كحركات الاطفال . مماحملنى على الضحك فقلت لها :

**ـ ان الاعجاب بطريقة حياتكم او الملل منها مسألة ثانوية ليست بذات بال يا « فريحة » . انما الحقيقة تنحصر فى أننى لن أتعود المعيشة فى محيطكم هذا يوما ما ولهذا السبب بدأت فى البحث عن عمل يقيم اودى ، حتى أعيش الحياة التى الفتها وأرتاح اليها !**

ـ عمل ؟ ! .. مثل ماذا ؟

ـ أى عمل شريف أسترد به احساسى القديم وحريتى المفقودة .. على اننى ـ للاسف ـ لم أوفق الى الآن ،بالرغم من سعى حكمت بك المتواصل ، وأرى اننى لن أنال ما أريد دون وساطة شخص ذى مكانة !

وتطلعت الى وجهى مندهشة ، دون أن تفهم مرمى كلماتى، وكأننى كنت أكلمها بالاحاجى أو بلغة لاتفهمها أصلا ! .. وأسرعت تغير مجرى الحديث ، فلم أعارضها ، بل تركت لها زمامه ، فأجرته نحو المجرى الذى يستهويها .. وتركتها تشقشق كالعصافير بدون انقطاع ، وأنا أستمع اليها كالبكماء لارضيها فحسب .. اذ أن حديثها المتكرر المتشابه الممل لم يكن يهمنى فى قليل أو كثير ، كما انها كانت ـ من ناحيتها ـ لاتحب حديثى ولا تفهمه . فهى لم تكن لتعبأ بالكتب الادبية القديمة ، ولم تكن تعرف شيئا عن المؤلفات الحديثة . وكانت تبغض الحديث عن الرسم ، ولا يخطر على بالها ان تمتع روحها وتغذى وجدانها وتطفىء ظمأ قلبها الفتى من مناهل

جمال الطبيعة الذى لا ينضب .. **لم تكن تعجب بشىء فى الوجود قدر اعجابها بجمالها ، ولا كانت تشغل تفكيرها وتجهد عقلها الا فى أنجح الطرق التى تظهر هذا الجمال فاتنا أخاذا ، لافتا الانظار ! .. انها لم تحب – وان تحب – فى الوجود غير ذاتها ! ..** فهى توشك أن تطير جذلا ، وتشرق السعادة على قسماتها ، حين ترى نظرات الاعجاب تتبعها أينما سارت .. انها تود دائما أن تغزو القلوب وترى الاعجاب مرتسما فى النظرات المحدقة بها ، لتشبع غرورها وأنانيتها ، حتى أن والديها وخالتها الكبرى – التى يخيل لى أنها تخشاها نوعا ما – لم يسلموا من سلاطة لسانها الطويل .. فأين أنا منهم ؟ !

**( أيادى باشا ) فى : ٢ مارس**

• **تعمدت** ألا أقابل ضيوفهم بكل الطرق الممكنة . وقد حنقوا على من أجل ذلك ! .. والحق اننى تغيرت ، حتى لم أعد أعرف نفسى .. عبوس وصمت طويل ينتابانى فى أغلب الاحيان ، وقد تصدعت افكارى وانهار خيالى واستحوذ اليأس على ، واختلطت آمالى ، فلم اعد ادرى أى الامال أنشد ، وأى رجاء ينتشلنى من ذهنى الراكد وصمتى المريع ! **.. لم يعد هناك ما أفكر فيه سوى يوم واحد ، هو يوم زيارة صديقى الكهل الذى أنتظره طوال الاسبوع بفارغ الصبر ، وأشعر بدبيب النشاط يسرى فى حواسى فينعشها – كعهدها السابق – ولاهنأ بالتحرر من العبودية المفروضة علي ومن ترديد كلمات كاذبة محفوظة .. ولو لساعات معدودة ! ..** وفى أغلب المرات أشعر بقلق ، فلا أستطيع انتظار حضور أستاذى الى القصر ، بل اسعى اليه كما تفعل الخطيبة العاشقة لخطيبها .. وكثيرا ما نتقابل فى الطريق ، فلا نسير الى القصر ، بل ندلف الي محل للحلوي هناك ، وأقص على أستاذى كل

ما مر بى فى أسبوعى حتى أرتوى .. وبعد ذلك يأتى دوره فى الحديث ، فأستمع اليه وأنا مغمضة العينين ! .. ومع أن كلماته تحطم آمالى ــ الواحد تلو الاخر ــ دائما ، وبالرغم من أنها تبعث اليأس الى قلبى ، فان نبراتها الحنون تثير حنينى للماضى ، وتلهب أعماق نفسى بلوعة جارفة ! .. كأن يقول : « أن أملك فى أن تصبحى مدرسة للرسم أمل واه ، فاقطعى حبله ، لاننى عرفت انهم لا يقبلون طلبات من لم يحرزوا درجات علمية ! » .. أو يقول : « ومن قصر النظر أن تفكرى فى عرض صور زيتية للبيع ، والسوق قد غاضت بما فيها » أو « لم أترك بابا الا ولجته من أجلك يانوران ، ولكنى لم أقابل بعد الشخص الذى يرد طلبى برفق ، بل ان كلا منهم يجد ألف سبب وسبب لكى يرفض فى غير هوادة . .ماذا لو سمعت رأيى فلا تتهربى من لقاء ضيوفهم ؟ .. انهم ذوو حيثيات ممتازة ، وربما أمكنهم مساعدتك ! »

**( اياس باشا ) فى : ١٨ مارس**

• **بالرغم** من أننى لم أستمع لنصيحة مدرسى ، فاننى فوجئت ــ ذات يوم ــ بدخول بعض الزائرين قبل أن أفلت فى الوقت المناسب .. وقدمتنى « فريحة » لهم . وقد استرعى اهتمامى سيد لبق يدعى « وداد بك بهيج » ، فى الخمسين من عمره تقريبا ، أبيض الشعر ، حسن الهندام ، يتقن فن الحديث بدرجة تلفت النظر . **وقد سمعت فيما بعد أنه « دبلوماسى » قضى حياته فى السفارات الى أن نال أسمى مراكزها ، وهو الآن فى ( استامبول ) ليصرف بعض شئونه الخاصة ويستعد للسفر الى ( بلجيكا ) . وقد لاحظت أن له مكانة ملحوظة بين أهل الدار .. وعلمت أنه منى بفقد زوجته منذ ثلاث سنوات ، تاركة طفلة تبلغ الآن السابعة من عمرها تقريبا .**

كل هذه المعلومات الوافية ، نقلتها الى «فريحة» ـ بالطبع ـ فى احدى زياراتها الليلية ، دون أن أسألها أى ايضاح !

ولقد أردفت « فريحة » قائلة ان « وداد بك » شبهنى بتمثال رآه فى أوربا ، رمزا للحزن .. وراحت تضحك ، دون أن أدرى لضحكها مبررا ، فقلت محنقة : **« أننى لست تمثالا أجوف كأولئك اللواتى يعنين باستكمال زينتهن وهن فى حجرات الجلوس ! » .. وأرخت أهدابها المصطبغة بـ « الرميل » ، ولكنها راحت تصوب نحوى ـ من تحتها ـ نظرات مختلسة ، خيل الى أنها حافلة بالحقد والاستهجان ..** نظرات أشبه بطعنات تدمى قلبى ، فقلت بصوت منخفض ، حزين : « ولماذا لم تخبريه بأننى فتاة يتيمة ، حكم عليها القدر بأن تكون عالة عليكم بالرغم منكم ؟ ! »

ولم تجب ، بل بارحت غرفتى متعللة بالرغبة فى النوم !

* * *

ولم أكن قد حظيت بشرف التحدث الى رب الدار ـ منذ وصولى ـ سوى أربع مرات .. وفى هذه الليلة ، أنعم على بالشرف ـ ونحن جلوس الى مائدة العشاء ـ اذ قال : **« لى عندك رجاء ، أود ـ قبل أن أسألك اياه ـ أن أشرح لك بعض الامور .. فان الاسرة بأكملها مدينة لوداد بك بهيج ، اذ لولاه لعاد الينا « عدنان » من باريس فاشلا ، وموصوما بعار لا يمحى .. وأداء لبعض هذا الدين ، أحب أن ترسمى ابنته بالزيت .. فما رأيك ؟ »**

وفطنت الى أن خالتى الكبرى كانت تنظر الى فى قوة متسلطة ، مملية ارادتها ، وكأننى خادم .. ووجدتنى أحنى رأسى امتثالا .. وهل لمثلى أن ترفض طلب صاحب الدار الذى أواها وأطعمها ؟ !

**( اياس باشا ) فى : ٣ أبريل**

• **لم** أقض أكثر من عشر دقائق مع « زهرة » الصغيرة ، فى اليوم الاول ، حتى لا تمل .. وفى أثناء العمل - فى الايام التالية - توثقت صلات الالفة والمحبة بينى وبين الصغيرة ، كما توطدت بين « فريحة » وبين والد الطفلة « وداد بك » - ذى الشعر الاشيب - صلات من نوع آخر لا أدرى مداه ولا مغزاه .. ومع ذلك فقد أدركت خلال أحاديث الرجل المليئة بالآراء الناضجة ، انه يشعر بأننى أكثر من الآخرين تقديرا وفهما لهذه الاحاديث !

**( أياس باشا ) فى : ٧ أبريل**

• **خرجت** الليلة الى الحديقة وحدى ، وقد هفا بمشاعرى جو يشبه جو ليالى الربيع . وفيما كنت أنعم بوحدة شاعرية هادئة ، أقبلت « فريحة » .. وسألتنى بلا مقدمات : « ما رأيك يا نوران فى اعجاب وداد بك بى .. أترينه تمهيدا لطلب الزواج ؟ » . ولم يدهشنى سؤالها - على غرابته - فقد رأيت من شذوذ طباعها ما يجعلنى أتوقع أكثرمن هذا ! .. ووجدتنى أسألها : « ترى من من ممثلى السينما المشهورين يشبه وداد بك ؟ » . فهتفت : « أتسخربن منى ؟ .. اننى أعجب به لشخصيته القوية . وهو يختلف كل الاختلاف عمن أعرف !» ودقت الارض بكعب حذائها : **« ما الذى تقصينه على زهرة أثناء انهماكك فى الرسم ؟ .. هل هذه القصص الصغيرة مثيرة للعواطف الى الحد الذى يجعل وداد بك ينصرف عن أقوالى ؟ »**

وأدركت اذ ذاك سر الاضطرابات التى استولت على « فريحة » أخيرا .. لقد صور لها خيالها أن السفير مشغول بى أكثر مما ينبغى ، فعز عليها - وهى المغرورة بجمالها - أن استحوذ على اعجابه دونها ! .. يا للمسكينة !

**( أياس باشا ) فى : ١٨ أبريل**

• **سمعت** من الجميع كلمات اعجاب آلية ، بعد الفراغ من الصورة . ولاول مرة رأيت والد « زهرة » يطيل النظر الى ، بشكل أوحى الى بأن لهذه النظرات معنى .. وكان هو الوحيد الذى لم يسمعنى كلمة شكر ، بل رفع يدى الى فمه، وقبلها !

**( أياس باشا ) فى : ١٠ مايو**

• **صادفت** بالامس « فريحة» على السلم ، وأنا أهرع لتلبية نداء خالتى الكبرى ، فاذا بها تعرض عنى ، مصـــوبة نحوى نظرات حاقدة ، مما جعلنى أناديها : « فريحـــة .. ماذا حدث ؟ » . ولكنها كانت قد بلغت نهاية السلم ، فرفعت وجها يختلج بابتسامة عصبية ، وقالت : « أسرعى بالصعود لتسمعى ما تشتاقين الى سماعه .. يا لغبائى ! لقد لعبت دورك بمهارة ، وكنت أوسع حيلة منى ! »

وأمرتنى خالتى الكبرى بالجلوس أمامهــا ــ حين دخلت عليها ــ وقالت بصوت خلا من رقة الانوثة : « لعلك أدركت سلفا البشرى السارة التى دعوتك من أجلها ؟ » . ولاحظت أن نظراتها كانت تنطوى على ســـخرية ، فسألتها : « أية بشرى ؟ »

**ـ لا تتغابى يا نوران ! .. لقد طلب وداد بك اليوم يدك منى . وهذا حظ بأهر لم يخطر لنا ببال .. وأغرب ما فى الامر أنه يعد قبولك سعادة له ولطفلته التى تحبك !.. وقد تجدينه كبير السن بالنسبة اليك ، ولكن ميزاته العديدة تمحو هذا العيب التافه .. ولا تنسى أن حالتك الراهنة لا تساعدك على الاهتمام بمثل هذه السفاسف !**

ـ ولماذا لم يسألنى رأيى فى أمر يخصنى ، قبل أن يطلب يدى منكم ؟

ـ يسألك رأيك ؟ .. ولماذا ؟ من الطبيعى أنك لن تفكرى فى رفض هذا الشرف العظيم ؟ .. أغاب عن ذهنك أنك ستصبحين قرينة سفير عظيم ؟ .. ثم أن ثراءه واسع ، حتى أن بريقه خلب لب الصغيرة « فريحة » ! .. وأين أنت منها ؟

ـ أين أنا منها ؟ .. حقا ، أين منها الفتاة اليتيمة التى تعيش فى قصركم ، عالة عليكم ؟ .. أليس كذلك يا خالتى ؟..

**لو أننى لم أجرح فى أعز ما أملك من كرامة وعزة نفس، لكان الزواج من «وداد بك» وسيلة للخلاص من أسرتى «الكريمة !» ، ولو تخليت عن أحلام شبابى وآمال قلبى . ولكن هذا الديبلوماسى أخطأ ـ للاسف ـ فى حقى الطبيعى الذى وهبتنيه الحياة ، فساوم خالتى فى شرائى ! ..** خدعه مظهرى الساكن المستكين ، فلم يخطر بباله أن كرامتى لا تقدر بمال ، رغم فقرى المدقع !

ولم أفكر ـ فى هذه اللحظة ـ الا فى دفع الاهانة التى جرحت عزة نفسى ، فاذا الغرور يملأ صدرى ، والاباء والشمم يشدان أزرى . وقلت : **« لست أقبل هذا الزواج ، فأرجو أن تبلغى « وداد بك » رفضى ! »** . ولاول مرة ، رأيت احساس خالتى يتغلب على عجرفتها المصطنعة ، فارتسمت الحيرة على محياها ، وهتفت : « أترفضين ؟ .. هل جننت ؟ »

ـ وأى عجب فى هذا يا خالتى ؟ .. انما أرفض لعدم تناسب عمرينا ، ولاننى لست مادية حتى أطمع فى أمواله ، ولست حديثة نعمة حتى أفخر باسمه .. **ولا تخشى من أن أظل عالة عليكم ، فقد وفقت الى عمل سأتولاه فى الاسبوع القادم ، وبهذا أبرح قصركم العامر !**

وغادرت الغرفة وأنا أعض شفتى حتى لا أنفجر باكية ! .. ولم أبرح غرفتى فى ذلك المساء ، ورحت أبكى ما شاءت لى نفسى الحزينة أن أبكى ، فقد وجدت نفسى أتخبط فى ظلام .. لمن ألجأ بعد أن وعدت بمغادرة الدار فى موعد قريب ؟

**وكان** اليوم هو موعد زيارة أستاذى حكمت بك ، ففادرت القصر فى الصباح الباكر، ورحت أهيم على وجهى فى الطرقات ، حتى رأيته مقبلا فى خطواته المتئدة .. ولم أسأله عن صمته ووجومه ، ولا حييته تحيتى المعهودة ، بل رحت أسرد عليه كل ما حدث .. وظل ينصت صامتا ، وأنا أشفق من صمته ، ثم سألنى : « ألم تعجبى بهذا الشخص اطلاقا يا نوران ؟ » . وتطلعت اليه فى ارتياب وحنق ، وقلت : « أبدا .. البتة ! » . فقال : « اذن ، فقد أصبت الصواب كله يا بنيتى . انما سألتك هذا السؤال لاتأكد من أنك لن تندمى يوما على فرصة لا تعوض ! »

**( أياس باشا ) فى : ١٤ مايو**

• **لاحظت** أن جميع أهل القصر يتعمدون عدم المبالاة بى ، جزاء رفضى عرضهم الممتاز .. وها قد انتصف الاسبوع ولم أفعل شيئا يمكننى من مبارحة هذا القصر .. **لم أفعل سوى التفكير المضنى ، حتى اشتد الاعياء بذهنى .. ولقد اعتدت أن أخرج فى الصباح الباكر ، فاهيم على وجهى مسلوبة الارادة ، كنائم يسير بدفع قوة لا يملك عصيانها !** .. اننى أسير كآلة صماء .. حتى جمال الطبيعة شغلتنى عنه الحسرة .. وان شذى « الليلا » الحبيبة ليحرك شجونى ، ولكنى — مع ذلك — لا أجرؤ على الاقتراب منها ، بل أكتفى بالنظر اليها من وراء دموعى !

**( أياس باشا ) فى : ١٧ مايو**

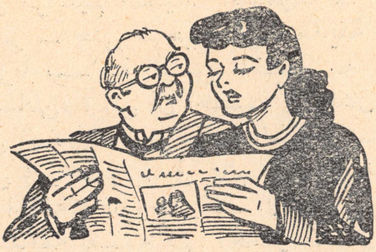
• **ما أصدق** المثل القائل « لا بد من الفرج بعد الضيق » . فقد حضر « حكمت بك » هذا الصباح على غير موعد . ومن النظرة الاولى ، قرأت الانباء السارة المسطورة على وجهه .

فما ان فرغنا من مراسيم التحيات السخيفة ـ التى درجوا عليها فى هذا القصر ـ حتى صحبته الى الحديقة بعيدا عن رقابتهم . واجتزنا ساحة التنس المخصصة لفريحة ، وانحدرنا نحو الشاطىء ، الى أن أجلسته فى المكان المحبب الى .. فى هذا الركن الهادىء أشعر بفتنة الطبيعة تستحوذ على جميع احساساتى ، وتسمو بها فى عالم علوى بعيد كل البعد عن حياتنا المادية الجافة ، فأروح أراقب الامواج فى لذة نفسية سامية ، وهى مندفعة بقسوة على أحجار الشاطىء ، لترتد هادئة مستسلمة ، ثم تعاود كراتها الابدية بدون جدوى !

وهناك ـ فوق المقعد ـ جلست بجواره ، ونظرت اليه متسائلة ، فقال: «نوران .. ان بريق عينيك الفاتنتين أنبأني بأنك أدركت ما أحمله لك من بشرى سارة .. أليس كذلك ؟ .. **لقد وجدت لك عملا ، بل عملين يانوران أسأل الله تعالى أن يوفقك الى اختيار أحسنهما ، حتى تنالى ما تستحقين من راحة وهناءة..** أتعرفين المستشفى الذى تبرعت ببنائه احدى الاميرات المصريات فى العام الماضى ؟ .. ان موقعه بعد ( بشيكطاش ) بقليل ، وقد بلغنى أن مدير هذا المستشفى فى احتياج لسيدة متعلمة لتشرف على حسابات المستشفى فقط ، ولن يكون لها أى علاقة بالمرضى .. ولم ألبث أن اتصلت بالمدير ، فاذا به ـ لحسن الحظ ـ يعرف والدك ، ولهذا تنازل عن بعض شروطه عن طيب خاطر اكراما لذكراه ، وتغاضى عن صغر سنك ، اذ أنه كان يطلب سيدة يتراوح سنها بين ٣٥ و ٤٠ عاما .. والمرتب بسيط ، ٥٠ ليرة فى الشهر ، ولكن لا تنسى أن وجبات الطعام جميعها على المستشفى وهذا امتياز يجب أن تقدره .. أما العمل الثانى ، فها هو ذا .. »

ومد لى يده باحدى جرائد المساء ـ وأشار باصبعه الى فقرة بين الاعلانات المبوبة ، فقرأتها ، واذا بها :

**« محتاجون لكاتبة تجيد الكتابة بسرعة لتساعد محررا**



**ضريرا على انتاجه الفكرى . المرتب كاف جدا ، والمخابرة مع الدكتور صلاح الدين بك حسن ، رقم ٤٧ ميدان الاستقلال »**

وقلت له بعد أن قرأته : « اعلان غامض ، لا أطمئن اليه ، لاسيما وليست لدينا معلومات عن .. » . فقطع حديثى قائلا : « مهلا يانوران .. أأحمل لك خبرا دون أن ألم بتفاصيله ؟ .. من الطبيعى أن افضل عمل المستشفى ، لانه قريب منى ، فى حين أن هذا بعيد كل البعد عنى ! » . وفى غمضة عين شعرت بفضولى يستيقظ ، وقلت له بلهفة : « ماذا ياأستاذ ؟ .. أتقول أنه بعيد عن هنا ؟ .. اشرح لى كل شىء بسرعة ! » . فقال : « لقد قرأت هذا العنوان ، وخطر لى أن أخبرك به ، ولكنى عدلت فى اللحظة الاخيرة ، مرجئا اخبارك الى أن أستوفى كل البيانات عنه ، لاننى ــ والحق يقال ــ خفت من تعلقك بأمل واه .. خفت أن تشعرى بصدمة نفسية ان لم يتحقق الامر كما تتمنين . **ولذلك بحثت عن هذا الدكتور ، وقابلته ، ومن المصادفات الحسنة انه كان زميلا لوالدك أيام الدراسة ! وهنا انقلبت الآية ، وأصبح هو الذى يرجونى بالحاح أن أعزز لديك قبول هذا المنصب فى أسرع وقت ممكن .**

بيد أننى أيقنت ــ حين سمعت اسم المكان الذى يجب أن

تقيمى فيه – من أننى لن أستطيع تعزيز طلبه ، بالرغم من ان المرتب المعروض مغر ، والعمل فى ذاته بسيط غير مضن ! »

تم أفاض فى شرح ارائه ونظرياته ، وأهمل لب الموضوع ، فلم أطق صبرا ، وقاطعت حديث الشيخ الطيب القلب ، قائلة له : « المكان يا أستاذى .. ما اسمه ؟ »

**– انه مكان فى يسمى « جبزه »**

– أهكذا ؟ ! أنه بعيد عن هنا ، ولهذا أقبل العمل .. لاتندهش قبل أن تفهم كلامى ، فأنا أقبل العمل هناك وأفضله عن الاخر لانه يمتاز ببعده عن الناس !

وحيرته كلماتى ، فنظر الى مشدوها من فوق عدستى منظاره ، وأنا أكلمه بصوت حالم ، وبريق عينى اللامع يشف عن روحى المحب للخيال .. ولعله نسى « نوران » القديمة المرحة الخيالية ، لطول عهده بوجهى العبوس وميلى للصمت بعد وفاة أبى . وخيل الى أن هذه العودة المفاجئة أذهلته ، اذ قال : « مهلا يانوران .. لا تتسرعى فى الاختيار قبل أن تسمعى التفصيلات ! » . ثم سرد على نتيجة مقابلته للدكتور بايضاح واف ، قال : « بلغنى من الدكتور أن بلدة ( الجبزه ) هذه غنية بمناظرها الطبيعية ، تحيط بها الغابات من كل جهة ، فهى تصدر أثمن الاشجار القيمة للعالم ، وأرضها مغطاة بأرق أنواع الزهور البرية التى لاتقع عين انسان على شبيه لها فى أى بقعة أخرى .. وأشجار فاكهتها غنية بثمارها التى لا تضارع لذة مذاقها .. **وفى وسط كل هذا الجمال الطبيعى ، تقع ضيعة المؤلف ، واسمها ( ضيعة السنديانات السبع ) . ولم أعرف أهى مزرعة كبيرة تؤجر أراضيها للمزارعين ، أم أنها مزرعة صغيرة تحيط بالمنزل فحسب .. وأغلب الظن أنها شىء من هذا القبيل . وقد علمت انه لاتوجد سيدات فى منزل هذا المؤلف سوى والدته المسنة** . وهذه السيدة كريمة المنبت ، كان والدها أحد سفراء السلطان عبد

الحميد ـ فى عهده القديم ـ ويقال انه فى احدى أسفاره، زوج ابنته من وكيله . وكان هذا الوكيل مدمنا على شرب الخمر خفية أثناء وجود رئيسه . ولكنه ـ عقب سفر السيد ، أقبل يشرب الخمر جهارا ، واساء معاملة زوجته الصغيرة حين خلا له الجو ، فصبرت صبر الكرام ولم تشك لاحد ، الى أن بلغ والدها ـ من أحد أتباعها ـ ما تحاشت اخباره به، فحضر فجأة .. ومن سوء حظ الزوج ، أن السيد وجده فى حالة مزرية ، وهو يكيل الشتائم البذيئة لزوجته ، فثار السيد لكرامته ، وعاجله بطلق نارى أسكت لسانه البذىء الى الابد .. وأسلم ابنته الشابة الى الترمل وهى بعد فى ريعان صباها ومعها طفل رضيع فى الشهر الثامن من عمره ! .. **ولم يعرف أحد مدى تأثير هذه الفاجعة على نفسها ، ولكن الذى حدث أنها سافرت الى القاهرة ـ عند خالة لها ـ فلم يمر وقت طويل ، حتى تزوجت رجلا ثريا متقدما فى السن، يملك مزارع واسعة وعقارات عديدة ! » ..**

وسكت الاستاذ لحظة ، ثم أردف : « الى هنا يانوران ، ثم أحاط الطبيب حديثه بشىء من الابهام ، ولم يعمد الى تفصيلات ، بل استطرد قائلا ـ وقد فارقه مرحه الاول ـ ان الارملة الشابة رزقت صبيا آخر من زوجها المصرى ، بعد مضى ثلاثة أعوام من زواجها . وذات ليلة ، فقدت زوجها الكهل الثرى ، فعاشت وحيدة مع ولديها . ومضت الاعوام تباعا ، وترعرع الشابان وكبرا .. أما الابن الاصغر ـ أعنى وارث الثراء والغنى ـ فكان مغرما بالصيد والقنص ، ويسرت له أمواله المتوفرة اشباع هوايته وحبه للمخاطرة فى مواسم الصيد فى جميع أنحاء المعمورة . **وما لبثت الطبيعة الهادئة الجميلة أن ساعدت على ظهور أولى نتائج هوايته الكامنة فى نفسه ، فكتب قصته الاولى فى هذا المنزل النائى ، واذ صادفت**

نجاحا بعيد المدى ، أتبعها بأروع القصص ! »

ـ وما اسمه ؟

ـ نديم فاضل . ولكنى أعتقد أنه ينشر انتاجـه تحت اسم مستعار .

ـ ربما .. لاننى لم أسمع بهذا الاسم قبل الآن . ثم .. ماذا حدث بعد .. ؟

ـ ذكر لى الدكتور أن هذا الشاب ضرير ، لانه فقد بصره عقب عودته من احدى رحلات الصيد التى كان ينظمها ويقوم بها مع مدعويه فى الغابات المجاورة .. ولكن فى أى ظرف ؟ ومتى ؟ .. لم يذكر لى الدكتور أية كلمة عن ذلك .. وانتاب حديثه بعض الابهام مرة أخرى ثم قال أنه منذ فقده بصره ـ أى منذ ثلاث سنوات ـ لم يبارح هذه الضيعة . وهو الآن يؤلف قصصا للاطفال . وطبيعى أنه يحتاج ليد ماهرة تساعده فى عمله .

وسألته بحرارة ، وكأننى أستمع لقصة مثيرة : « وماذا حدث لاخيه الربيب ؟ »

ـ ابن مدمن الخمر ؟ .. لقدشب كأبيه سىء الطباع والخلق، وكانت عاقبته محزنة .. فقد انتهى به الامر الى السجن رهن التحقيق لقتله امرأة .. ثم وجد منتحرا فى زنزانته بعد عدة أيام .. ولقد سألت عمن تكون هذه المرأة ، ولماذا قتلها ، وما سبب هذه الجناية المحزنة، ولكنى لم أفز بجواب على أسئلتى، بل تجاهلها الدكتور بمهارة ، وختم حديثـه قائلا « انهـا قصة محزنة » !

وصمت أستاذى مفكرا ، فقلت له : « وبعد ؟ .. ماذا حدث يا أستاذى ؟ »

ـ ليس لها بعد .. استمعى لنصيحتى يا نوران ، فمالنا وهذا العمل الخفى المحاط بالاسرار فى بقعة نائية بعيدة عن العمران ؟ .. وكيف تطيب لك الاقامة فى مكان موحش مثل

**هذا ، بين أم عليلة ورجل ضرير ؟ .. ان مكانك هنا يا بنية ، لا لتقومى بأود نفسك فقط ، وانما من أجل مستقبلك أيضا ، لانك لن تعيشى منفردة طول الحياة . ومن الطبيعى أنك فى يوم ما .. وأدعو الله من كل قلبى أن يقرب هذا اليوم يا نوران .. !**

وشعرت بالدم يسرى حارا فى كيانى ، وخفق قلبى بشدة حين نطق اسمى ، فقد ضغط على مخارج الحروف كما كان أبى يفعل ! .. وعاود الحديث قائلا : « ما هذا الصمت .. الى أين سرح بك الخيال ؟ » . فأجبته مستعطفة بدلال ، كما كنت أفعل معه ـ وأنا طفلة ـ حين أطلب منه شيئا ويعارضنى فيه : **« أننى أريد قراءة نهاية هذه القصة المشوقة ! »**

ورفع صديقى العجوز حاجبيه متحيرا ، تاركا منظاره ينزلق فوق أنفه ، وسألنى : « أية قصة بالله عليك ؟ ! .. ما هذه الاحاجى ؟ »

**ـ هذه القصة الغامضة التى تكتنفها الاسرار .. أنك أثرت فضولى ، ولن يهدأ بالى قبل أن أعرف نهايتها . ان شعورا لا يقاوم يدفعنى الى الذهاب الى هناك ، وسأذهب !**

وبالرغم من أنه أيقن لفوره من أننى لن أحيد عن تصميمى قيد أنملة ، فانه ألح محاولا اغرائى . فلما رأى أن اغراءه ذهب سدى ، حدث نفسه وكأنه يقنعها ، قائلا بصوت منخفض : « ان لهذا العمل محاسنه أيضا فهو بعيد عن عيون الفضوليين ، لا صديق يشفق علينا ولا عدو يتشفى فينا . ومهما تكن ظروفنا ، فمن الواجب أن نحافظ على كرامة اسم الراحل العزيز ، فهو ثروتك الوحيدة الباقية يا نوران .. ألم تذهبى الى خالتك وتحملت الاقامة معها من أجله ؟ .. حقيقة أن العمل الشريف لا يشين ، ولكنك ـ بحكم عملك فى المستشفى ـ ستختلطين بسيل من البشر مختلف المشارب ، فمنهم كريم المحتد ، ومنهم السافل المنحط .. وكيف تفرقين بينهم وأنت

لم تختبرى الحياة عن كثب بعد ، ولم تصقلك تجاربها . وبالرغم من اطمئنانى لرجاحة عقلك ، فان تيارات الحياة أقوى من أن يصمد لها عقل غير مجرب ! » . ثم لم يلبث أن غير مجرى حديثه وقال : « ومع ذلك ، فلست أطمئن الى هذا العمل الآخر المحوط بالاسرار والغموض .. وكيف تقبلين الحياة فى منزل أورثته الاحزان والاسرار جوا موحشا ؟ ! »

وفى هذه اللحظة شعرت بالضحك يتملكنى من أقواله المتناقضة . فمنذ برهة وجيزة ، كان يصف لى جمال الطبيعة فى هذا المكان وصفا شاعريا كأنه شاعر ! .. ولكن الضحكة لم تنطلق من ثغرى . بل ولدت وماتت على شفتى ، وأنا أقول له : « انسيت يا أستاذى العزيز قدر المرتب المعروض ؟ .. ألا تجده مغريا ؟ ! » . فأجاب : « أن اغراءه قوى ، ان شئت الحقيقة ، حتى أننى لم أصدق — فى بادىء الامر — عرضهم هذا المرتب الباهظ . ولكنى تيقنت من حقيقته بعد أن أكده لى الدكتور ، وقد علمت منه أن هذا المرتب أغرى الكثيرات ، ولكنه رفض طلباتهن حين أبلغته مؤهلاتك وجعل يرجونى أن .. »

ولم أصغ لحديثه ، لان ذهنى انهمك فى جمع أصفار وأرقام صفها خيالى أمامى . وفجأة ، ارتجف كيانى وسرت فيه قشعريرة أبردت أطرافى ، والتفت الى أستاذى ، وقلت له بصوت حالم : « لو ادخرت كل هذا المرتب ولم أنفق منه مليما واحدا ، فما عدد الاشهر التى أستطيع بعدها استرداد عشى المختفى بين زهور الليلا ؟ » . ولم يجب .. والتقت عيوننا من وراء العبرات ، فكان فى هذا أبلغ جواب . وشعرت بأحزانى تتحرك من كوامنها فحدثت نفسى لاسكن جأشها قائلة : « ان رحمة الله واسعة يا نوران . ألم يهبك عملا فى الوقت المناسب لينقذك من تهكمات العائلة ؟ » . وبهذا الحديث استطعت التغلب على نفسى الثائرة ، فقلت لاستاذى وأنا أحاول الابتسام : « سأرحل غدا باذن الله ! »

ـ قبل اتفاقى مع الدكتور ؟ .. انه ينتظر ردك لعمل التسهيلات اللازمة لسفرك .

**ـ ساخطره الآن بالتليفون .. من هنا !**

وبارحت مكانى بسرعة قبل أن يعترض . وسرعان ما كنت أتحدث الى الطبيب الذى شكرنى ـ لقبولى العمل ـ شكرا جزيلا لم أر موجبا له ، وقال أنه أرسل خطابا الى سادة ( الجبزه ) ـ عقب حديثه مع حكمت بك ـ ولكنه قرر أن يردفه ببرقية يبشرهم فيها بقدومى .. ولم ينس أن يشرح لى معالم الطريق ، وعين لى المكان الذى أستطيع أن أجد فيه عربة تقلنى الى المنزل، اذا لم أجد أحدا من طرفهم فى استقبالى . وعدت لاجد أستاذى محزونا واجما . فضحكت قائلة : « أسمعت ؟ .. ما أسعدنى ! لقد تم كل شيء ، ولم تبق لى الا ليلة واحدة أقضيها فى سجنى كيفما يتفق ، ثم أفارقه الى غير رجعة ! »

**ـ وأنا يا نوران ألا أصحبك الى هناك ؟**

ـ الطريق طويل شاق ، فما الداعى لان أحملك مشقته ؟.. كن مطمئنا فان الفتاة التى جاوزت الربيع الثانى والعشرين من عمرها لا تخطىء طريقها أبدا يا أستاذى ، وسيسعدنى جدا أن ترافقنى الى المحطة فقط ، حتى اذا ودعتنى عدت الى غرفتك منشرح الخاطر ، مطمئن البال ، لتقول لنفسك : « لقد تخلصت فتاتى نوران من الذل الى الابد ! » .. **عاهدنى أنك**

**ـ ... قسا على الزمن مرة أخرى وتركنى على قارعة الطريق بلا مأوى ـ لن تحملنى على الرجوع اليهم مرة ثانية ، بل أنك ـ اذ ذاك ـ تقاسمنى غرفتك !**

ثم وضعت وجهى بين راحتى ، لاخفى وجهى المبلل بالدموع . وشعرت بيد صديقى الكهل تربت على شعرى بحنان ، وصوته الخافت يقول : « **لا قدر الله لك هذا اليوم**

يا نوران ! » .. واخذ قلبي يهتف في أنين : « أواه يا أبت .. لماذا تركتني ؟ »

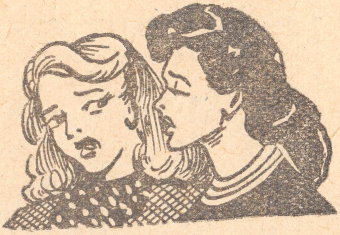
* * *

**في الليل :**

• **بعد** انسحاب الخدم من غرفة المائدة — في هذا المساء — وجهت حديثي الى خالتي قائلة : « أنني أشكرك يا خالتي ، كما أشكر للجميع حسن ضيافتكم لي هذه المدة الطويلة . فلقد آواني قصركم العامر حين كنت بلا مأوى .. واذا كانت الاقامة لم تطب لي هنا ، فليس هذا ذنبكم ، اذ أنكم أبديتم كل ما سمحت به عواطفكم لابنة أختكم المكروهة منكم ، وابنة الرجل المبغض لديكم . وليس بوسعي أن أنكر أنني عشت هنا في بيت جدي ، وبين أهلي ، كأنني غريبة لا أمت لاحد بصلة .. واهون لدي أن أعيش غريبة في محيط أجنبي ، عن أن أكون غريبة بين أقاربي ! .. ولذلك فسوف أبارح قصركم في الصباح الباكر ! »

**كانت كلماتي القاسية نوعا ما . ولكنها لم تحرك ساكنا ، ولم تثر فضول خالتي . فانها لم تلبث أن قالت لي بغطرسة ، دون أن تتنازل وتطلب مني ايضاحا أوفى : « أتمنى لك التوفيق .. ان أمك تركتنا وذهبت ، في ذات ليلة ، أيضـــا ! » ..**

وقال زوج خالتي الصغرى ، وهو يرشف قهوته : « ستكونين معلمة للرسم ولا شك .. ففي أية مدرسة ؟ » . واحمر وجهي خجلا لسؤاله المحرج ، ولكنني تخلصت بمهارة ، قائلة : « لقد وافقت الوزارة على تعييني معلمة للرسم ، ولكن باليومية — نظرا لاقتراب العطلة المدرسية — فلم أقبل ، ورحبت بعمل آخر .. كاتبة خصوصية ! » . وأسرعت بالوقوف لاضع حدا لسيل الاسئلة التي كنت أراها تتراقص على شفاههم . وقدمت شكرا للاسرة فردا فردا ، متمنية لهم أطيب التمنيات .



وقبل ان ينقضى نصف ساعة على انفرادى فى غرفتى ، أقبلت « فريحة » منفعلة ، تطوى وتنشر مجلة فى يدها ، فى اهتياج عصبى غريب ، وسألتنى قائلة : « نوران .. أحقا ما قلت ؟ أراحلة أنت غدا ؟ » . فقلت ضاحكة : « وهل هناك رحيل كاذب يا فريحة ؟ » .

ـ هذا المكان المجهول .. هل تعتقدين انك ستر تاحين اليه ؟

**ـ لا أدرى ، ولكننى لن أكون فيه عالة على أحد ، على اية حال!**

ووقفت فريحة مترددة برهة ، ثم قالت فجأة : « سأظل معذبة طوال الحياة ، اذا لم أعترف لك بذنبى قبل سفرك .. أننى فتاة سافلة يا نوران ، أستحق تحقيرك وسخريتك ! » . ورأيت ـ للمرة الاولى ـ العواطف الصادقة مرتسمة على قسمات وجهها ، فأردت أن أحتويها بين ذراعى لاسكن جأشها ، ولكنها دفعتنى عنها قائلة : « دعينى فأنا لا أستحق عطفك يا نوران .. اخبرينى ، لماذا رفضت الزواج من وداد بك ؟ » . فأجبت : « لانه ليس مناسبا لى من عدة وجوه »

**ـ انك تدافعين عن كرامتك بهذا القول ولو انه كان قد عرض طلبه عليك بالاسلوب الذى يرضى عزة نفسك لقبلته راضية .. ارجوك لا تنكرى !**

وهممت بأن أقطع عليها ثرثرتها ، ولكنها أشارت بحدة قائلة : « لا ، لن أكف حتى تسمعى كل شىء ! .. لقد كنت ـ قبل مجيئك ـ أؤمن بأنه ما من أنثى فى الدنيا تفوقنى

اغراء . وما خطر ببالى ـ حين رأيتك ـ أن لك سحرا خفيا . . **ولكننى بدأت المس سلطانه القاهر ، حين كنت ترسمين (( زهرة )) الصغيرة . فلاول مرة فى حياتى ، شعرت بنار الغيرة تلهب فؤادى . . وازدات نار غيرتى اشتعالا اذ رحت أرقب نظرات (( وداد بك )) تتبعك ، واعجابه بك يتحول الى طريقه الطبيعى ، دون أن يقوى اغرائى ـ رغم كل محاولاتى ـ على تحريك فؤاده** . وحنقت أشد الحنق على نفسى لفشلها وأنا التى لم أفشل قط فى هذا المضمار . ودفعنى هذا الحقد لان اظهر له محاسنى فى شكل خلاب ، وكلى أمل فى أن أخضعه لسلطان جمالى ، وأكبله بقيد فتنتى ، ثم . . ثم أركله بقدمى . . وكم ساءلت نفسى ـ وأنا أقارن بينى وبينك ـ عما تمتازين به من فضائل . . وكنت أجد نفسى أجمل منك وأفضل من عدة وجوه ، ولكنى فهمت غلطتى أخيرا ، وعرفت أنك تمتازين عنى بأشياء لا أدركها . من ذلك أنك تثيرين اعجاب مستمعك بأحاديث منتقاة فى الادب والاجتماع ، فى حين أن أحاديثى تضل طريقها الى الآذان ولا تجد تحبيذا من مستمع . . اننى فتاة حقيرة يا نوران ، لا أستحق عفوك . ولكنك خليقة بأن تغفرى لى ، لو أنك عرفت ما قاسيت من آلام منذ اللحظة التى جعل منى فيها (( وداد بك )) كاتمة سر غرامه بك ! . . **أنا يا نوران التى أفهمته أنك فتاة محافظة رجعية ، وأنا التى استلمت الخطاب الذى كتبه اليك يطلب فيه الاذن له بطلب يدك ، فأخفيته عنك ، ولم أجد صعوبة ما فى اقناع وداد بك بسخريتك من طلبه واستهزائك بخطابه !** وأغرب ما فى الامر اننى لم أحب (( وداد بك )) ، ولم أستطع للآن تفسير معنى هذه الغيرة الجنونية ، التى دفعتنى بقوة الى الاساءة اليك يا نوران . . على اننى لم اذق طعم الراحة منذ ذلك الوقت ، وازداد ضميرى عذابا لما سمعت عزمك على الرحيل غدا ، لتعولى نفسك بنفسك فى مكان مجهول ، بين اشخاص لا تربطك

بهم اية صلة .. **ها أنا ذى قد اعترفت لك بحماقتى وجهلى ، وساعترف أمام « وداد بك » بكل شىء ، حتى تنالى سعادتك كاملة ، وتبارحى منزل أهلك معززة مكرمة ، الى عش الزوجية .. اننى تحت أمرك يا نوران فما رأيك ؟ »**

ونظرت اليها مشفقة ، وأنا أقدر ماقاست من هذا الاعتراف . ولكن أوان اقتراحها كان قد فات بعد أن اتسعت الشقة بينى وبين هذا الديبلوماسى المسن ، ألعوبة فريحة ! .. وكانت تنتظر اجابتى بلهفة ظاهرة ، وعيناها الفاتنتان مغرورقتان بالدموع ، فأمسكت بكتفها ، وابتسمت لها قائلة : « ابتسمى فان الحزن لم يخلق الا لامثالى ! .. لم كل هذا الاسف وأنا لا أرحب بهذا الزواج ؟ .. أتظنين أننى أبيع نفسى من أجل المال ، وأكبت صوت وجدانى وأظل معذبة الحس طوال الحياة ؟ .. انه لم يخلق لى كما أننى لم أخلق له ! » .. وسادنا الصمت برهة ، ثم استطردت قائلة : « لست أحقد عليك بسبب ما فعلت ! » . **وخيل الى أنها لم تصدق كلمتى الاخيرة ، كما أننى لم أصدقها .. ولكننى أردفت قائلة : « لم يعد هناك داع للاعتراف ، فدعى الراحل ينطلق فى رحلته ! »**

وغادرتنى يعلو وجهها البشر والرضاء . ولعلها رفعت نفسها الى درجة القداسة بتضحيتها ، وأقنعت نفسها بسمو وجدانها .. أما أنا فقد نمت ملء جفونى لاول مرة بعد وفاة أبى !

### فى قطار أنقرة : ١٨ مايو

• رن آخر جرس فى تمام الساعة الثانية وثمانى دقائق ، فتحرك القطار من مكانه .. ومن النافذة ، كنت أرى منديل أستاذى الابيض الكبير يتأرجح فى يده بين المناديل الملوحة . وظلت نظراتى عالقة به تودعه بحنان ، الى أن اختفى عنها . وبعد أن أقفلت النافذة ــ منعا لتسرب دخان القاطرة الاسود ــ

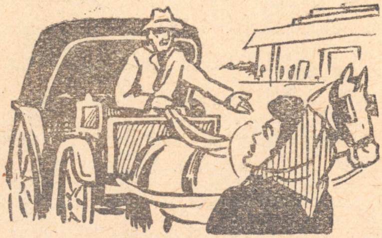
جلست مكانى ، وصدى صوت أستاذى المرتعش حنانا وعطفا ، يتجاوب بين حنايا صدرى مرددا : « ليساعدك الله يا نوران !» . ورأيت أرملة شابة جالسة فى المقعد المقابل لى وآثار فجيعتها فى فقيدها العزيز مرتسمة على وجهها البائس الحزين ، وبجوارها طفلة صغيرة تلح عليها بأسئلة بريئة ولكنها أحد من طعنات الخنجر : « أين بابا يا ماما ؟ » ، وهى تنظر بلهفة الى كل مار فى ممر القطار ، وابتسامة الامل تشرق لحظة على وجهها الصغير لتخبو بعد أن تتبين أن القادم لم يكن أباها . وعلمت أن هذه الام الصغيرة فقدت قرينها الشاب فجأة ، فأبت زوجة أبيها ايواءها فى المنزل ، ولم يعتـــرض على حكمها الجـــائر الاب « المحترم ! » ، بل تركها تسافر مع طفلتها الصغيرة كل هذه الاميال الطويلة لتعيشا فى كنف خالها الطيب القلب !

**فى الليل :**

• صادفتنى ـ فى هذه الرحلة القصيرة ـ حوادث كثيرة لم يعلق أكثرها بفكرى .. وكلما أغمضت عينى لا أرى الا منظر البحر الساكن ، وكأنه يعدو بالقرب منا .. المنازل الجميلة ذات الحدائق الغناء تتتابع على ضفته ، وعبير « الليلا » الفاتن يعطر الهواء ويبعث الهناءة الى النفس ! .. وعندما بلغ القطار المحطة التى قصدتها ، تلكأت على الرصيف ، الى أن عثرت على عربة سائقها كحصانها .. شائخان ! وبعد أن حمل حقيبتى فوق كاهله ـ الذى أحنته السنون ـ طلبت منه أن يقودنى الى ( ضيعة السنديانات السبع ) ، فنظر الى وضم شفتيه ، وقد تجلت امارات التعجب على وجهه المجعد ، وهز رأسه ، ثم قال : « الضيعة المهجورة ؟ »

ـ كلا .. بل ( ضيعة السنديانات السبع ) ، التى تقوم بعد مصنع « الاسمنت ! »

ـ لا داعى للوصف ، فأنا أعرف كل شبر فى هذه الارجاء .



والمكان الذى تذكرينه ، لم تطأه قدما امرأة منذ سنين ، لذلك اطلقنا عليه اسم الضيعة المهجورة ! .. هيا اركبى يا آنسة فالطريق طويل ، وسيستغرق أكثر من ساعة ، كما أنك ستحتاجين الى نصف ساعة أخرى سيرا على الاقدام ، لكى تصلى الى المنزل !

ـ ولماذا لا تقلنى الى هناك مباشرة ؟

ـ لا أنكر أن فى امكان صديقى العجوز ـ الحصان ـ أن يصعد التل ، ولكننى لا أرغب فى الذهاب الى هناك !

ثم أخذ عنان الجواد بين يديه ، وعبر وجهه أفصح تعبير عن أشياء يخفيها اثارت فضولى ، فسألته : « وهل ذلك راجع الى أن التل مرتفع ؟ »

ـ كلا ، كلا .. مالى وهذا ؟ ! .. لن أقترب من هذا المكان المنحوس ، ولو أجزلت لى العطاء !

ـ وأنا .. من الذى يرشدنى الى الطريق ؟

ـ سأصل بك الى باب العزبة الخلفى ، وستجد الحارس هناك ـ بدون شك ـ لان منزله يقع خلف هذا الباب .. ولكن ، لماذا حضرت بمفردك الى هذا المكان المهجور ؟

ـ جئت فى مهمة تخص سيدة المنزل « أسماء هانم » ، وانى لاعجب اذ أنها لم ترسل عربتها لانتظارى ، وهى على علم بمقدمى ! .. الا يملك أهل الضيعة عربة خاصة ؟

**ــ كانت لديهم عربة ، ولكن لم يعد ثمة ما يدعو لوجودها ، فمننا الذى يراها ، ومننا الذى يركبها ؟ .. وعندهم زورق بخارى لم نعد نراه الا نادرا فوق الماء !**

ثم صمت مفكرا ، ولكنه لم يستطع التغلب على فضوله ، فقال : « قلت أن السيدة الكبيرة على علم بمقدمك ، ولكن .. هل يعلم السيد بأمر هذه الزيارة ؟ » . فسألته فى دهشة : « ما قصدك ؟ .. لم أفهم مرمى أقوالك ! »

**ــ عفوا ، عفوا ! .. لم أقصد بسؤالى سوءا ، ولكن زيارتك هذه أثارت فضولى ، لانى أعرف أن السيد الصغير عدو لكل امرأة ، منذ فقد زوجته !**

وحيرتنى هذه المعلومات الجديدة ، فعولت على طلب المزيد من الحوذى الكهل ، وقلت له : « اذن فقد كان نديم بك متزوجا ؟ » . فأجاب : « كانت له زوجة فاقت الحوريات جمالا ! » . وشعرت بأنه على استعداد تام للثرثرة بكل ما يعرف عن سيد الضيعة المصرى الثرى ، فلم أتوان فى استدراجه ، متسائلة : « وما الذى أصاب الزوجة الشابة .. أماتت ؟ »

**ــ لا أدرى ، ولا أحد يدرى شيئا عن مصيرها ! والذى أعرفه أنها اختفت فجأة من هذه المنطقة ، ثم تتابعت المصائب بعد ذلك ، فحلت الوحشة على الضيعة ، وفقد السيد الصغير نور عينيه ، واختفى شقيقه بعد ذلك ، ولا يبعد أن يكون أصيب بحادث عاقه عن الظهور ..** انه سر من أسرار هذه الغابات الغامضة ! .. لا يدرى أحد ، أتبتلع أرضها من يجوس خلالها ، أم يختطفه الجن فلا يظهر له أثر ؟ .. أعوذ بالله ، يا له من مكان مخيف ! .. كل من حدثته نفسه بالسير فى مجاهل الغابة منفردا ، لا يرى نور الحياة بعد دخولها ! .. ألا تصدقين كلامى ؟ .. لو انك سمعت بأذنيك ما قصه صيادو السمك عما رأته عيونهم ، ما ابتسمت هذه الابتسامة المستهينة !

ولم أتمالك نفسى ، فضحكت من حديثه بصوت مرتفع ، ولم يرقه ضحكى فمال فوق مقعده ليرى وجهى الضاحك بوضوح ، وعقد ما بين حاجبيه الكثيفين وقال معاتبا : « ان سنك صغيرة يا آنسة .. وكذلك ادراكك ، ولهذا تستهزئين بأسرار الكون العويصة .. ولكنك ستندمين على عدم تصديقى . فان أقرب حادث من هذا القبيل وقع فى الاسبوع الماضى ، اذ ذهب أحد القرويين ذات مساء ليحتطب سرا من هذه الغابات ، ولكنه لم يعد .. وبعد البحث الدقيق، عثر قصاصو الاثر على جثته بين جذوع الاشجار ، وقيل أنه مات مصعوقا ـ لسوء حظه ـ من جراء سقوط الشهب فى تلك الليلة العاصفة ، ولكن ـ بينى وبينك ـ هل رآه أحد وهو يصعق ؟!»

.. هكذا حاول أن يقنعنى بنحس ( السنديانات السبع ) وساكنيها وغاباتها ، مدعما أقواله بمثل هذه البراهين الواهية ، فلم أحاول أن أجادله .. والعربة ماضية فى طريقها تهتز ذات اليمين وذات اليسار لوعورة الطريق .

وأشار بيده ـ بعد أن تركنا مصنع الاسمنت وراء ظهرنا ـ قائلا : « **أنظرى ! .. ها هو ذا المنزل فوق قمة التل ، تخفيه الاشجار الكثيفة ، ولكن لونه الاحمر يتراءى خلال أغصانها !** »

وبعد قليل ، وقفت العربة أمام باب أحمر خشن المظهر .. ويا للسياج العالى الذى كان يتوسطه ! .. كان سياجا كسته الطحالب البرية ، وتهدلت عنه فى أكثر من موضع ، بينما انحنت فروع الاشجار المهملة عليه ، بشكل موحش رهيب .. وارتدت قدماى الى الوراء ـ رغما عنى ـ وأنا أنظر الى هذا الباب الاحمر المغلق ، وسرت رجفة فى كيانى ، وملأ صدرى الخوف من المجهول ! .. نسيت خواطرى ، وتركزت نفسى فى النظر الى هذا الباب الاحمر المغلق ، وما يخفى وراءه من أسرار ! .. **وكاد حبى للحياة يغرينى بالعودة من حيث أتيت ، لولا أن فتح الباب الكبير ، وظهر صبى جميل لم**

تتجاوز سنه الثانية عشرة ، ذو شعر ذهبى مجعد ، اكسب رأسه الصغير فتنة ، كما أكسبت الشمس بشرته لونا خمريا ساحرا .. وأعادت ابتسامته البريئة الاطمئنان الى قلبى الواجف ! .. وأفقت من تصوراتى على صوت الحوذى الكهل وهو ينادى الطفل ويسأله : « أين أبوك يا عمر ؟ » . فأجابه بصوت رقيق ، وهو يتأملنى بعينين ضاحكتين : « أبى ليس هنا ، وجدتى تشكو من آلام مفصلها كالعادة .. واذا كنت تسأل من أجل السيدة ، فاطمئن ، فأنا الذى تلقى أوامر سيدة القصر بشأنها ! »

ولم يذهب الحوذى العجوز قبل أن يسرد على معلوماته عن عمر الصغير ، قائلا أنه طفل يتيم ، فقد أمه رضيعا ، فتولت أمره جدته ،وشب وحيدا وسط هذه الاحراش ، بين حنان جدة مريضة وعطف والد حزين . ثم قال : « وماذا تنتظرين من طفل نشأ هذه النشأة ؟ .. انه ليس طفلا عاديا مثل أطفالنا ، وانما هو قرد ! .. بل انه يثب من غصن الى غصن فى خفة يحسده عليها القرد نفسه ! » .. وهز رأسه، ثم قال لى : « مع السلامة ياآنسة .. تصحبك أطيب تمنياتى، ولا تنسى نصيحة الرجل الكهل ! »

* * *

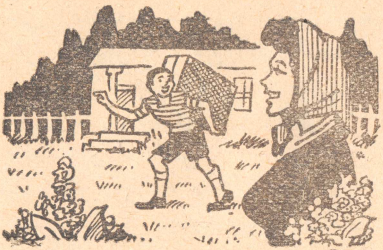
ولم أتحرك من مكانى بعد سير العربة ، وظلت نظراتى عالقة بها والحسرة تهصر قلبى لابتعادها ، وأنا أشعر بالاسف لاننى لم أعد معها ، وقد بدأ خوفى من المجهول يستيقظ ! .. وشعرت بيد صغيرة مرتجفة تقودنى فى لطف ، وابتسامة وجه أسمر جميل تعيد الاطمئنان الى قلبى مرة أخرى .. وقادنى عمر الى الداخل ، ثم ترك يدى ليقفل الباب الخشبى الكبير ، حتى اذا أحكم رتاجه ، حمل حقيبتى وهو يتمايل لثقلها . وأشار بيده الطليقة الى الاشجار وكأنه يحتضنها ،

ووجهه الصغير يعبر عن حبه وفخره بها ، وقال بصوت رقيق : (( ها هى ذى جنتى .. أتعجبك ؟.. ستحبينها مثلى بدون شك ! ))

كانت براءة الطفولة الجميلة ، وحرارة تعبير الصبى عما يعتقده ، ضوءا باهرا أثار بصيرتى ، وبدد هواجسى ، وجعلنى أتلفت حولى بامعان. كنا فى ساحة واسعة ، تحوطها الاشجار العالية . والى اليمين ، كان ثمة منزل صغير لطيف الشكل ، يتراءى خلال الاشجار ، وأمام بابه دجاج يقوقىء وهو ينبش الارض ، وقد ربض على عتبة المنزل كلبان كبيرا الرأس قصيرا الشعر ، راحا يزمجران فى غضب حين فطنا الى .. أما الى اليسار ، فكان ثمة طريق يتلوى فى صعود وهبوط ، وقد شق خلال غابة من أشجار السنط.

واقترب عمر من الكلبين هاشا مدللا، فهدأت ثورةغضبهما بعد ربتة يده الصغيرة الحنون . ثم دنا من زجاج النافذة ونظر خلالها ، وهو يقول لى : « هيا بنا ، فان جدتى نائمة !» . ثم حل وثاق أحد الكلبين ، وحمل حقيبتى . ولاحظت انه ينوء تحت ثقلها ، فقلت له : « دع هذه الحقيبة هنا ياعمر!.. لابأس من أن يحضرها والدك فيما بعد » . فتركها وهو يرمقنى شاكرا مبتسما ، وأسرع الى المنزل الكبير .

ووقفت أنتظر اوبته ، وأستنشق شذا الزهور البرية المختلفة التى كان النسيم النشوان يحملها عبر الغابة . ونظرت الى هذه الغابة ، وتذكرت قول الحوذى الكهل :(( انه سر من أسرار هذه الغابات الخفية .. أتبتلع أرضها من يجوس خلالها ، أم يختطفه الجن فلا يظهر له أثر ؟.. أعوذ بالله ، ياله من مكان مخيف ! )) .. وهكذا انسقت وراء الاوهام ، واستحوذت على الافكار السوداء مرة أخرى ، حتى أننى لم اشعر بعودة عمر .. وما لبثنا أن سرنا فى الطريق المعبد ، يسودنا الصمت فلا يبدده سوى وقع قدمى على الارض



الصلبة .. ومضينا فى هذا الطريق صامتين ، الى ان وصلنا الى مكان مرتفع ، لم أر له مثيلا من قبل ، ترتفع الاشجار على جانبيه بنظام مدرج يثير الاعجاب ، واغصانها متشابكة ورؤوسها متعانقة عناقا وثيقا يسبل ظلا شاملا على الارض لا تنفذ منه أشعة الشمس .. وكانت جذوعها تزدان بالزهور البرية المتسلقة . واكتست الارض بخضرة يانعة ، وتفتح الزهر البرى فى أكثر من بقعة فيها .. وكانت شقشقة العصافير مستمرة بدون انقطاع ، بنغمات متكررة مستحبة لطيفة . حقا ، مارأيت لهذا المكان شبيها ، فكأننى انتقلت الى ديار القصص الخيالية .

والتفت الى عمر ـ الذى وقف ساكنا ، ولعله تهيب من طول صمتى ـ وقلت له : « لقد أحببت جنتك ياعمر منذ الآن ! » . فاذا كلمتى هذه تفتح مغاليق قلب الغلام ، وبدا يصف لى جمال دنياه بفخر وزهو ، قائلا : « ما هذا سوى الطريق الرئيسى للضيعة ، تزين جانبيه الاشجار والزهور البرية النفيسة .. **ولكنك لن ترى جنتى مالم تدخلى الى اعماق الغابة ، وتأكلى فاكهتها اللذيذة ، وتشربى من مائها المنعش ، وتتسلقى سورها العالى ، وتنامى ملء جفونك بين فروعها !** .. لايكفيك أسبوع تقضينه ـ ليل نهار ـ فى تعرف جميع مسالكها ودروبها .. حتى ابى لا يعرف طرقها

مثلى . أنا الذى اكتشفت مخابىء أجمل الزهور البرية ،وأنا الذى يقطع زهر ( البابونج ) من أعلى أغصانه .. وكم يحلو لى اللعب على قمم الاشجار العالية ، حتى أصبحت جميع السناجب تألف رؤيتى وتحبنى .. والطيور ؟ .. ان أشجار الغابة تنوء بحملها ، وقد تكاثرت عن ذى قبل اذ أهمل القوم الصيد هنا منذ زمن طويل ! »

هكذا راح عمر الصغير يحدثنى عن أصدقائه من الحيوانات الصغيرة والطيور الاليفة ، ويصف لى لذة مذاق كروم الضيعة المتعددة الانواع والالوان . وأسهب فى وصف جمال زهرة بيضاء تعيش فوق سطح مياه نافورة مهملة وسط الغابة . ثم قال فجأة ، بعد لحظة صمت : **« أتعرفين ؟ .. أننى أحب سيدى أكثر من كل شىء فى جنتى ، فهو فريد فى العالم ، ولا شبيه له .. هل تحسنين مثله قص الحكايات ؟ .. مهما تحسنين فانك لن تبلغى مبلغه ! »**

— وسيدك .. هل يحبك مثلما تحبه ؟

**— كان يحبنى جدا حين كان مبصرا ، ولكنه الآن لا يحب أحدا .. ومع ذلك فما زلت أحبه ، وأجد أنه محق فى نفوره من الناس !**

قال هذه الكلمات بتؤدة ، كأنه شخص كبير يقدر الامور ويزنها . فقلت له : « وأين شقيق سيدك ؟ » . فنظر الى متفرسا ، وكأنه يود كتمان مايعرف ، ثم قال : **« لم أحبه قط ، لانه كان يضربنى كثيرا بدون جريرة .. لاتذكرى اسمه أمام سيدى لانه يمقته ! »** .. وفى هذه اللحظة انثنى الطريق دفعة واحدة ، وهب النسيم حاملا الى فى أردانه عطرى الحبيب ، فنظرت حولى باحثة عن مصدره وأجفانى ترتجف وصدرى يعلو وينخفض . ورأيت زهور « الليلا » نامية على جانبى هذا الطريق ، تعطر الجو بشذاها المسكر ، وتضفى على الدنيا لونا رائعا لم أر له مثيلا قبل اليوم فى حمرته القانية

فعدوت اليها ، ودفنت راسي وسط زهوري الحبيبة ، وأنا أستنشق عبيرها حتى ارتويت . وسمعت عمر يقول : (( **لقد كان سيدي يحبها كذلك ، ولكنه لم يعد يقترب من هذا الطريق !))** . وما لبث أن قال : (( ها هو ذا المنزل قد ظهر .. أنظرى ! ))

فنظرت ، وسرت فى طريقى بعزم قوى ، لاقاوم جراح قلبى التى تحركت أوجاعها من جديد ! .. واعترض مسيرنا سور منخفض ، نمت على جدرانه وبابه الاعشاب . ثم اجتزنا حديقة المنزل الكبير ، وكانت تشكو اهمالا ران عليها بعد أن الفت العناية فى الماضى . وكان القصر قائما وسط الحديقة .. ولاح لى من مظهره الخارجى أنه كبير جدا .. واستقبلتنى أمام بابه الفخم جارية سوداء ، رحبت بى بصوت منخفض يشبه الهمهمة ، وكأنها كانت تخشى ايقاظ انسان نائم بجوارها . ثم التفتت الى عمر قائلة : (( **لاتنس ماأوصيتك به سيدتك !))**

وعاد عمر من حيث أتى ، بعد أن وعدنى بارسال الحقيبة فى أقرب وقت .. فتبعت الجارية ، واجتزنا مدخل المنزل الفخم ، فى سكون وعلى أطراف أصابع أقدامنا .. **ولا أدرى لماذا سرى خوف الجارية الى نفسى .. كلا ، لم تكن هى التى أثارت مخاوفى ، وانما هو هذا السكون الشامل المخيف ! .. وبعد أن صعدنا الى الطابق العلوى ، فتحت لى الجارية بابه وقالت : (( تفضلى .. فان سيدتى تنتظرك فى الداخل ! )) . ثم اختفت من أمامى كالخيال السارى !**

وكان قد سرى الى أذنى ـ عند فتح الباب ـ تغريد عصافير الكناريا ، فرحت أتلفت هنا وهناك ، ابحث عن أقفاصها الصغيرة . ولكنى رأيت بدلا من الاقفاص غرفة كبيرة من السلك الرفيع ، فرشت أرضها بالرمل الاصفر ، وزينت بالنافورات الصغيرة لتستقى منها العصافير ، وغرست فى

أرضهاأشجار صناعية استقرت بين فروعها أعشاش «الكناريا» وكأنها تعيش فى وسطها الطبيعى . وكانت العصافير النادرة ذات الريش الاملس الجميل والالوان الزاهية اللامعة ـ مابين حمراء وصفراء وبيضاء ـ تتبادل الصفير فى نغمات رقيقة بدون انقطاع ، وترفرف بأجنحتها الصغيرة ، متنقلة من غصن الى غصن ، فى مشهد طريف .. ولمحت سيدة متقدمة فى السن ، توج الشيب رأسها ، وقد جلست فى مقعد كبير تتأمل الطيور .. وحولت السيدة رأسها الى ، حين شعرت بدخولى **وكان أول ما رأيته فى وجهها المجعد عينين كحيلتين ، أحاطت بهما التجاعيد دون أن تفقدهما شيئا من فتنتهما القديمة . ورأيت الود يطل على منهما ، ويقترب ، ويقترب ، الى أن أدفأ بشعاعه الحار أعماقى ، وهز أوتار قلبى الناعس !**

ومدت لى يدها اليسرى مسلمة ، ويدها اليمنى بجوارها ساكنة لا تتحرك . وقالت لى بحنان وشفقة كأنها تعرفنى منذ أجيال : «أتمنى الا تكونى قد شعرت بتعب !» . وأشارت الى بالجلوس أمامها ، ثم أطالت النظر الى وجهى ، وكأنها تستعطفنى من أجل أمر لا أعرفه ، وقالت : « لقد كنت خائفة ـ قبل قدومك ـ من أن تعدلى عن الحضور فى آخر لحظة لسبب ما .. وان قلبى ليحدثنى ـ بعد حضورك ـ ويصر على بأنك لن تقبلى حياتنا القاتمة الشاذة ، ولن تلبثى أن تختفى بسرعة من أمامى كما ظهرت ! »

**ـ ان قلبى أصبح كهلا قبل أوانه ، فهو لا يقيم وزنا لزخارف الحياة .. الحياة التى حطمته بقسوتها دون رحمة أو شفقة ، ثم اننى آبى العودة الى المكان الذى أتيت منه ، وليس لى من مكان آوى اليه سوى هذه الدار !**

وأطالت النظر الى وجهى مرة أخرى ، ثم قالت : « لقد علمت أنك فقدت أباك ، وحرمت الاقامة فى منزلك . أليس هذا حقا ؟ .. انها مصيبة كبرى تنوء بحملها الكواهل . ولكنك

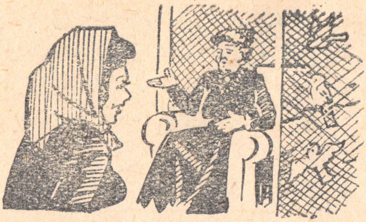
يا ابنتى تملكين ينبوعا لا ينضب من الصبر والسلوى .. هذا المورد الساحر هو شبابك الريان . أنظرى الى ! .. اننى اصبحت حطاما ، لا أملك حتى القدرة على التحرك كما أريد .. ان الالم والحزن والمصائب ، عوامل قاسية تسحق القلوب ، وتجرف الحس الرقيق مع تيارها القاتل . ولكن قوة مقاومة الشباب لا تلبث أن تستيقظ ، وما أسرع ما تناضل بفتوتها هذه العوامل ، ولا شك فى نجاحها وفوزها ، اذ ان الشباب ينبوع لا ينضب . والعكس على خط مستقيم مع المتقدمين فى السن ، فان المصيبة اذا حلت بامرىء منا جرفته مع تيارها القاسى — دون مقاومة أو نضال — ثم تقذفه الى الحياة حطاما هشمه الالم ! »

انقطعت عن الحديث لحظة ، سرح خيالها فيها الى اشياء بعيدة ، ثم قالت وهى تبتسم ابتسامة حزينة ، أقسى من البكاء : « جدير بى أن أوضح لك بعض الاسباب التى أدت بدارنا الى ماهى عليه ، قبل أن أطلب منك تأدية العمل الذى استدعيتك من أجله ، والذى ربما وجدته شاذاً غيرمألوف!.. **«منذ ثلاثة أعوام تقريبا فقد ابنى الصغير نور عينيه فجأة ، بسبب امرأة .. وقتل ابنى الكبير نفسه بسبب امرأة . أما أنا ففقدت ولدى معا ، لان العمى أبدل صغيرى وجعل منه رجلا آخر لا يمت لولدى الرقيق العواطف الانسان الكامل بأية صلة ! ..**

« ولقد تمكنت العلة منـــه فى الســـنة الاولى ، وكانت أزماتها على أشد ما تكون ، فعاش طوال هـــذا العام حبيس غرفته كأنه حيوان فى قفص ، تثور ثائرته لاتفه الاسباب . وقد ابغض الحياة ، وأبغض كل شىء فيها .. حتى أمه التى دللته صغيرا وأحبته كبيرا ، لم يعد يخجل من مصارحتها بهذا البغض وهو يدفعها بذراعيه بعيدا عنه ، فصرت منذ هـــذا اليوم أعيش معه تحت سقف واحد ، اراقبه عن بعد دون أن

أجرؤ على الاقتراب منه ، والحسرة تملأ قلبى . وقد رأيته يمضي أياما بلياليها على الطوى ، منزويا فى ركن قصى ، يقذف أطباق الطعام المرة تلو الاخرى ، و « حبيب » ـ خادمه الخاص ـ لا يمل من جمعها ومعاودة الكرة لعله ينال شيئا قليلا من الزاد .. ومن ذا الذى كان يتحمل أعماله هذه غير « حبيب أغا » الذى أحبه منذ صغره وما زال يحبه ؟ .. وبالرغم من تصرفاته الشاذة ومعاملته الرديئة ، فان حبنا له ازداد عمقا ، وعطفنا عليه أصبح مضاعفا ، لان شعورنا بآلامه المبرحة كان يدفعنا لان نجد لاعماله مايبررها . وهكذا مضت الايام على منوال لا يتغير ، الى أن جاء يوم جمع كتبه التى احبها دائما ، وأشعل النار فيها وسط الحديقة . ثم طلب رؤيتى بعد هذه الايام الطويلة ، وأجلسنى بجواره ، وأسمعنى صوته الحنون بعد أن حرمت سماعه عامين طويلين !..وكان يتعرف على تقاطيع وجهى براحة يده ، وهو يقول بصوت يقطر ندما : « أماه ! أماه ! .. اغفرى لى ! » .

« ثم فتح جفنيه ونظر الى ، وكأنه يود لو يرانى ، ثم قال بصوت تخنقه العبرات : « لقد حاولت أن أقضى على نفسى فلم أنجح ، وحاولت أن أعود للحياة فلم أنجح.. ولقد قاسيتم بسببى ، وتحملتم بصبر الكرام الشىء الكثير منى ، ولكن .. الا اعلمى يا أمى أن عذابكم من أجلى يعد قطرة فى بحر آلامى التى تحملتها ، والتى مازالت تمزق فؤادى بقسوة ، وكم أود أن تساعدينى على أن أمضى بقية أيام حياتى فى كتابة قصص للاطفال الاطهار الذين لم يعرفوا الكذب والنفاق بعد .. سأجعل الزهور تحدثهم عن عالمها ، وأجعل الطيور تحدثهم عن حياتها ، وأصور لهم من الخيال حقيقة يغذون بها خيالهم الغض . ولن أذكر لهم المرأة .. لن أذكرها بقية حياتى القادمة ! .. ومن أجل ذلك أحتاج الى مساعد .. الى عينين تساعداننى على تسجيل ما يتخيله ويمليه على عقلى ! » ..



« وحز هدوؤه واستكانته وصوته وكلماته فى نفسى ، وآلمتنى أكثر مما لو كان فى أشد ثوراته ، لاننى رأيت المسكين قد راض نفسه على تحمل بلواه ، وأخفى حدنها فى أعماق نفسه .. لذلك أسرعت فأحضرت له مساعدا متوسط العمر ليكون ناضج العقل كما قال . ولكن هذا المساعد مل عشرتنا بعد مضى شهرين ، وشكا من وحدته هنا ، ومن نكسات حدة طبع ابنى . وبعد ذلك تعاقبت الوجوه أمامى ، وان لم يتغير السبب فى رحيل كل مساعد يأتى .. وهكذا مضى عام وابنى يبحث عن عينين لتكتبا له أفكاره ، ولكنه كان ينتظر أشياء أخرى من الغريب صاحب العينين ، غير تسطير أفكاره ! .. انه لم يعترف يوما بأنه فى احتياج لبعض الحنان والعطف من مساعديه ، ولكنى كنت أرى بعين الام أنه يبحث عن عواطف سامية وشعور نبيل فى صدور هؤلاء الرجال العاديين الماديين ، الذين أغراهم على الحضور هنا بريق المرتب الباهظ فقط! .. رأيت بعين الام أنه فى احتياج لحنان المرأة الغريزى .. ذلك الحنان الفياض ، الذى يروى روحه العطشى ، ويسكن أنين جراحه الدامية ! .. وما ان خطر لى هذا ، حتى صارحت طبيبه فأقر فكرتى ، واقتنع بصوابها .. وكان ذلك الاعلان الذى قرأته فى الصحيفة ! .. ان ابنى نديم لايدرى شيئا عن تدبيرى هذا ، ولن يدرى ! .. بل انه سيستقبل المساعد الجديد على انه رجل كالسابقين ، وكل أملى أن يسرى حنان

**الانوثة الطبيعى فى روحه مسرى النسيم الهادىء ، مقنعا بقناع رجولة زائفة ، دون علمه !** .. اننى أحببتك يا نوران هانم قبل أن أراك ! فلقد ألهمنى المولى أنك أنت التى أبحث عنها ، لاسيما بعد أن جاءتنى معلومات الطبيب عنك . وكنت – طوال الوقت – فى قلق ، خوفا من عدولك عن الحضور !

« والآن وقد اوضحت لك ما مكننى الظرف من ايضاحه وأحطتك علما ببعض الاسباب التى أدت الى انهيار هناءة منزلى أقول لك : **ان هذه الطعنة الصائبة التى حطمت قلب ولدى كانت من يد امرأة ! .. وانى لارجو أن يكون تخفيف الام جراحه – ولست أقول شفاءه – على يد امرأة ! ! ..** ولو اننى كنت فى مقتبل العمر لقمت بهذا العمل الانسانى ، ولكنى حطام بال ، ولن أنجح . فهل تقبلين أن تتوليه بدلا عنى ، وأن تظهرى أمام عينيه المغلقتين على غير حقيقتك ، لتكونى قبس أمل لقلب أم بائسة فقدت كل الامل ! »

ولا أتذكر الآن ما وعدت به السيدة التى استجدتنى الشفقة والرحمة لابنها الضرير ، ولكنى لم أنس قط نظرات عينيها المغرورقتين بالدموع ، والقبلة التى طبعتها على جبينى شاكرة .

* * *

**نزلنا** الى الطابق الاول ، وبعد ان اجتزنا غرف الاستقبال العديدة والردهات المختلفة ، وصلنا الى جناح منفصل ، فهمست السيدة الكبيرة فى أذنى : « ان غرفتك فى هذا الجناح ، وسأقودك اليها الآن . فاذا لم ترق لك ، فليس ابسط من أن تختارى لنفسك غيرها ، فالغرف الخالية متوفرة .. والآن ادخلى معى ، وحذار أن تحدثى صوتا ينم عن وجودك ، وانصتى لما يدور بيننا ، لتأخذى فكرة عنه قبل أن أقدمك اليه ! »

وانفتح باب الغرفة الخشبى الابيض بدون صرير ، ودخلنا – فى هدوء – غرفة تسبح فى ظلام مقبض للنفس ، وقد

ساعدت على اظلامها شجيرات الورد التى تسلقت فروعها النافذة ، حتى كادت تحجب ضوء النهار عن داخل الغرفة .. وكان الحائط المواجه لى مكسوا بأرفف خالية من الكتب .. وفى ركن من الحجرة قام مكتب فخم كبير ، عليه بعض كتب وأوراق مبعثرة كيفما اتفق .. وبجواره مقعد شاغر . ودلتنى نظرتي الاولى على نقص كبير فى أثاث الغرفة ، اذ كانت شبه عارية . ورأيت كلبا يثب واقفا دفعة واحدة ، وينبح غاضبا .. وكان أحمر الشعر طويله ، وسمعت صوتا يقول :« أأنتذى يا ماما ؟ .. هل من أحد معك ؟ »

ـ لا احد معى يا نديم .. ان « لهب » يمزح معى !

واقتربت السيدة الكبيرة من الكلب وداعبت رأسه الكبير ، ثم قبضت على طوقه بيدها السليمة ، وظلت قابضة عليه حتى بعد أن جلست على المقعد الآخر ، بينما استندت بظهرى الى الباب بحذر ، خشية أية حركة تنم عن وجودى . وسمعته يقول : « ماذا وراءك من أخبار يا ماما ؟ » . فقالت : « لقد وصل الشاب الصغير الذى أثنى عليه طبيبك وألبسه أكاليل الغار . وهو الآن فى غرفته يستريح من عناء السفر ، ليبتدىء معك العمل فى باكورة الغد .. يخيل الى أنه شاب طيب ، وأتمنى أن ترتاح اليه كما ارتحت اليه أنا ! » . فأجاب بصوت شابته خشونة ظاهرة : « هل أفهمته رغبتى ؟ .. وهل قبل كل شروطى ، وقبل أن لاأسمح له براحة فى نهاية كل أسبوع ، ولا أقبل الحجج الواهية فى هذا الصدد ؟ »

ـ قبل كل شروطك وهو زاهد ـ من تلقاء نفسه ـ فى السفر .. وقال ان له أستاذا مسنا ، ربما حضر لزيارته بين حين وآخر .

فقال ببرود ، وبصوت غريب ارجفنى : « عسى الا يكون متزوجا وله أولاد ! » فقالت السيدة : « أنسيت ما كتبه لنا الدكتور بشأنه ؟ .. انه وحيد ، فقد أباه وما يملك ، فكره

الحياة قبل أن يعرفها ! » . وهنا سألها : « وكم سنه ؟ » . وبالرغم من أنها عرفت سنى تماما ، فانها قالت له : « يخيل الى أنه لا يتجاوز العام السابع عشر أو الثامن عشر .. وقد انتهى من مرحلة التعليم الثانوى هذا العـــام فقط ! » .. فصاح وهو يدفع المقعد الى الوراء بشدة : « شىء لطيف جدا ! هل حضر هـــذا « البك » الصـــغير الى هنا لالعب معه الاستخفاء ؟ »

وعندئذ رأيته .. رأيته واقفا ويده تبحث فى الفضاء عن شىء .. وما لبث أن قفز « لهب » بسرعة ، ووضع رأسه الكبير تحت هـــذه اليد الحـــائرة . كانت قامته أطـــول من المتوسط ، ووجهه .. لا أدرى كيف أصفه .. لقد بعث فى ذاكرتى صورة وجه المسيح المصلوب ، وهو يتحمل الآلام فى جلد خارق للعادة ! .. كانت تقاسيم وجهه ، وعيناه المغلقتان ، وصوته الحزين ، تعبر أفصح تعبير عن حسرات نفسى ، وعن قلب يذوب ويحترق بلهيبه كالشـــمعة ! وبالرغم منى بحثت عيناى عن تاج الشوك فوق هذا الرأس ، وعن العروق النافرة تحت جفون العينين اللتين سكبتا الدم مدرارا بدل الدموع شفقة على الانسانية المهدورة الحقوق فى حياتنا الدنيا . وقالت والدته بصوت منخفض حنون ردا على كلماته : « أنك فقدت أباك قبل أن تتجاوز الثامنة عشر ربيعا يا نديم ، وكنت فى بحبوحة من العيش . وقد دانت لك رغبات الحياة بالطاعة . فهل كنت تلعب لعبة الاستخفاء فى ذلك الحين ؟ »

ورأيته يسير و « لهب » يتقدمه ، الى أن وصلا الى المكتب . ولاحظت أن خطواته ثابتة لا يشوب تنقلاتها تهيب ما ، ولعل المسكين تعود عماه ! .. ومكث يفكر لحظة ، ثم قال متسائلا : « وما اسمه ؟ » . فنظرت الام العجوز الى عينى فلذة كبدها المغلقتين ، وأطالت النظر ، ثم قالت بصوت منخفض : « نور! »

* * *

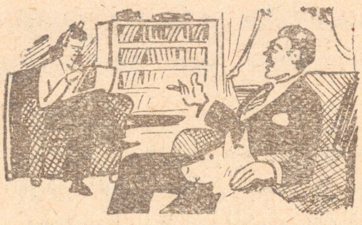
الساعة جاوزت الثالثة صباحا ، وأنا لا أزال اكتب فى غرفتى الخاصة .. لقد تناولت عشائى الاول بمفردى ، فى غرفة رحبة ، وعلى مائدة طعام طويلة جدا ، وضع على طرفيها شمعدانان ضخمان من الفضة اللامعة ، لم يبدد ضوء شموعهما العديدة ظلام هذه الغرفة الكبيرة ، بل أن الرعب كان يتملك نفسى كلما أخذت على غرة من الخيالات التى كان اللهب المتراقص يرسمها على الجدران ! .. وكان أثاث الحجرة من النوع القديم النادر ، أخشابه من أجود أنواع « الارو » ، وقد حفرت بعض أجزائه بمهارة فنية دقيقة . واسترعت نظرى دقة حفر رأس الوعل البارز فى أجزائه بشكل جميل .. وقد قدم لى الطعام بنظام ، كأحدث الطرق المتبعة . وخيل الى انهم كانوا فى دهشة من جلوسى على رأس هذه المائدة ، قدر دهشتى أنا من وجودى !!

**ومضت الدقائق والثوانى طويلة مملة وسط هذا السكون المستتب . وشعرت أن هذا الصمت يثير أعصابى ، وأن الضوء المتراقص يحرك الاشباح ويدنيها من مكانى لتحدق فى ثم ترتد الى الظلام ليأتى غيرها ، وأنا امضغ الطعام فيستعصى مضغه بين فكى !**

ولم أتخلص من هذه الاوهام المرعبة الا بعد دخولى غرفتى اللطيفة ، ذات الفرش الزاهية التى تبعث البهجة الى النفس .. وتمددت على مقعدى الطويل ـ المكسو بقماش موشى بالورد الاحمر ـ فى راحة ودعة ، والنافذة أمامى مفتوحة ، أتأمل خلالها جمال السماء الفاتن ، وبريق كواكبها ، والفراش الهائم بين الازهار فى الحديقة .. وأحاول ـ بكل ما أوتيت من قوة ـ ترويض نفسى على عملى الشاذ الذى سيبتدىء بعد سبع ساعات على أكثر تقدير !

## ( جبزه ) فى : ١٨ يونية

• مضى على وصولى الى هنا شهر كامل قضيته على وتيرة واحدة : أقوم فى الصباح مبكرة ، وأتناول فطورى فى غرفتى، ثم أنشد السير – فترة قبل العمل – فى الهواء الطلق بين أرجاء حديقة المنزل ، ولا أجرؤ على تجاوزها .. وفى تمام الساعة الثامنة ، أكون جالسة أمام مكتبى ، أراجع ما كتبته على الآلة الكاتبة ، بينما يكون « حبيب أغا » مشغولا مع السيد فى غرفته الخاصة . وفى تمام الساعة التاسعة ، يفتح الباب الفاصل بين المخدع وغرفة المكتب ، ويدخل نديم بك يصحبه « لهب » ، ويجلس على المقعد المعد له أمام النافذة ، ثم يقول : « أتسمح بقراءة ما كتبناه البارحة ؟ » . وينصت لقراءتى ، دون ما مقاطعة ، وتقاسيم وجهه تعبر بوضوح عن حسه وشعوره .. وأحيانا يقول : « لقد كنت أجد صعوبة فى ابراز الفكرة ، ولكنى أراها الآن سلسلة القياد ! » .. ويشع وجهه بالرضا وتلوح شبح ابتسامة طفيفة على ثغره !



وقد يفطن – فى بعض الايام – الى أننى أضفت الى ما أملاه من وصف أو حوار ، فلا يقول شيئا ، بل يطلب منى اعادة القراءة مرة ثانية ، ليستوعب معانى ما أضفت ، وهو يهز رأسه هزات خفيفة وعيناه مغلقتان .

**ولقد ارتديت – منذ أول أيام العمل – قميصا أبيض**

و « بنطلونا » رماديا ، كنت أستعملهما فى صيد السمك مع والدى ، خشية أن تلمس يد السيد ملابسى ، فيعرف ما نود اخفاءه عنه .. ولكم أنا مطمئنة — ولله الحمد — ازاء هذا ، فمن الذى كان يتصور أن صوتى الذى يشـــوبه شىء من الخشنة ، سيكون خير عون لى على أداء مهمتى على أحسن وجه .. ان السيد لا يرتاب مطلقا فى أننى « نور » ولست « نوران » !

وفى هذا الصباح ، جمعت باقة من زهور « الليلا » البيضاء ، ونسقتها فى اناء وضعته فوق حافة النافذة ، ليحمل النسيم عطرها ويضوعه فى أرجاء الغرفة . ودخل نديم بك .. وفجأة ، رأيته يسرع الخطى نحو الزهور راسا ، تهديه اليها حاسة شمه ، ثم أمسك بها فى يده ولفت رأسه الى الوراء ، وكأنه يبحث عن شىء .. وكان من عادتى أن أشعره بوجودى حال دخوله الغرفة ، كأن أقول له : « صباح الخير » . ولكننى خالفت عادتى اليوم ، وانتظرت .. ولولا ترحيب « لهب » بى — على طريقته الخاصة — لما شعر بوجودى ، ولسمعت بأذنى الكلمات القاسية التى كانت مسطورة على تقاطيع وجهه ، والتى كظمها وان كانت قد جرحت نفسى رغم انه لم ينطق بها !

وقال بعد أن ألقى بزهورى الحبيبة من النافذة : « أنت بدون شك الذى وضع هذه الزهور هنا ، اذ أن والدتى وحبيب يعرفان شدة كرهى لها ! » . فبادرت مجيبة فى حنق : « انما جمعتها من اجل نفسى .. لاننى أحبها ! » . فقال : « لك أن تضع الزهور التى تروقك فى غرفتك الخاصة ، وليس هنا ! »

وجلس فى مكانه المعتاد ، ولكنه لم يطلب منى القراءة ككل يوم ، بل ابتدأ فى الاملاء . ولم يســـتمر كعادته ، بل انه لم يلبث أن أسند رأسه الى ظهر مقعده ، مستسلما لافكاره .. فلم انبس بلفظ حتى لا اقطع خواطره ، وأخذت اعبث بالقلم . وبعد لحظة قصيرة ، رأيت أننى أرسم على الورق رأس المسيح

**النائم المضطرب !**

وسمعته يسألنى سؤالا لا يتصل بالعمل ـ لاول مرة ـ اذ قال : « مع من تتناول طعامك ؟ » . فقلت : « بمفردى ، لان والدتك تفضل الانفراد فى غرفتها مثلك » . فتساءل : « وأين ؟ » . قلت : « فى غرفة كبيرة زينت جدرانها برؤوس الوعول المحنطة » . فلاح على وجهه شبه عبوس وهو يقول : « اذا لم تضق ـ فى ساعات بعدك عن العمل ـ بصحبة رجل ضرير ، فانى أدعوك اليوم الى مائدتى ! » .، ولقد جاءت هذه الدعوة عفو الخاطر ، اذ أراد بها أن يزيل كل تأثير سىء ربما نجم عما حدث بيننا منذ برهة . فشكرته ، ثم ناديت له « حبيب أغا » .. **ما أوفى هذا المخلوق الاسود الذى تحمل ثورات أعصاب السيد فى جلد عجيب ، نم على ما يكنه قلبه النبيل السامى . وما من مرة أراه فيها الا ويدعو لى ، وعينه تومض وميضا يشف عن امتنان ورضاء .. ان الجميع هنا ـ وعلى رأسهم سيدة المنزل الاولى ـ يجعلوننى أشعر بأننى قمت بعمل خارق للعادة !**

ورأيت البشر يلوح على وجه هذا الانسان النبيل ، حين سمع « البك الصغير » ـ كما يلقبه ـ يقول له : « أضف طبقا على مائدتى يا حبيب ، لاننى دعوت ضيفا للاكل معى ! » . أما أنا فاقتربت بهدوء من النافذة ، واطللت متحسرة على زهورى التى توسدت العشب الاخضر ، وقد لاح الذبول على وجنتها .. ولم أنس شكرها ـ فى سرى ـ اذ أنقذتنى من أشباح غرفة المائدة .

وما لبثنا أن انتقلنا الى الغرفة المجاورة .. وكانت فيما مضى غرفة للسلاح ، كما استنتجت من الاسلحة المنوعة ، ذات المقابض الاثرية المرصعة بالاحجار الملونة ، المعلقة الى الجدران فى نظام يدل على ذوق سليم . وفى وسط هذه الغرفة أعدت مائدة الطعام ، فجلسنا متقابلين على مقعدين من الحصير .

ولاول مرة ــ منذ ثلاث سنوات ــ تلقى السيد مساعدة يد أخرى غير يد « حبيب » أثناء تناوله الغذاء . وحاولت ألا أكون له يدا مساعدة فقط ، بل عينا ترى أيضا ، فوصفت له صفاء الماء وأنا أقدم له الكوب ، ولون الكريز اللامع وانا أنتخب له أحسنه . ولم أترك شيئا أمامنا لم أحدثه عنه بدقة، وكأننى أخلط الالوان لعمل لوحة وبين أصابعى ريشتى. فلما انتهينا ، قال : « شكرا ، لقد أكلت اليوم وكأننى أبصر !»

**وسادنا الصمت برهة ، انساق كل منا خلالها وراء خياله . ولاحظت أن حبه للحياة بدأ يستيقظ ، وأن شمسها الدافئة أجرت الدماء حارة فى شرايينه مرة أخرى ، وهو يطمئن لوقع حديثى ويستطيب معانيه ، وكأنه بلسم لروحه الحزينة الشاردة . وما لبث أن قال وهو يشير الى ما فوق المائدة بيده : « لقد أريتنى كل هذا يا نور ، ولكنى لم أرك للآن .. فهلا عرفتنى بنفسك ؟ »**

وضحكت ، ثم قلت : « من حسن حظك أنك لا ترانى ، ولك أن تطلق على هذا الظلام المسدل على بصرك اسم « حجاب السعادة » الذى أطلقه كليمانصو على كتاب له ! » . فتساءل : « ولماذا ؟ » .. وتغافلت عن سؤاله ، وشرعت فى تلفيق قصة خيالية ــ من بنات أفكارى ــ بدأتها بسؤاله قائلة : **« ألم يخطر ببالك السبب الذى فضلت من أجله الاقامة هنا ، وأنا شاب صغير السن وفى عز صباى، بعيدا عن مجال المرح واللهو فى المدينة ؟ ألم يدهشك أننى ــ منذ حضورى ــ لم أفكر فى طلب أجازة ما ؟ »** . فأجاب : « لم يخطر على بالى شىء من ذلك يا نور ، لاننى كنت أعتقد أنك لن تستمر كالآخرين ! »

ــ اذن اليك السبب .. ان لى وجها لو رأيته لتقززت من مرآه ! .. لم يخلق الله أقبح منه على وجه البسيطة ، ولم يشعر مخلوق بشرى فى العالم بوطأة هذا القبح البغيض على النفس مثلى . فلقد أذاقنى الهوان مترعا منذ طفولتى البائسة

.. فكنت - أثناء الدراسة - أنزوى فى الاركان القصية كالمجذوم ، هربا من مشاكسة أقرانى لى ومناداتهم أياى بـ « ميمون » ، كأننى قرد ! .. وكنت أراقب ألعابهم ومرحهم عن بعد بعينين دامعتين ! .. وبعد مدة ، ألحقنى والدى بمدرسة « الفرير » الفرنسية ، فلم أسلم من سخرية زملائى هناك أيضا ، غير أنهم أطلقوا على اسم « كازيمودو » ، بدلا من « ميمون » ! .. وكنت ضعيفا أمام هذه الوجوه المستهزئة القوية .. كنت وحيدا بلا نصير يساعدنى على اطفاء جذوة انتقامى منهم ، فكرست كل فراغى لاستذكار دروسى فى جد بلغ درجة الهوس والجنون ، حتى تفوقت على الجميع تفوقا ممتازا ، كان يبعث بعض العزاء الى نفسى الثائرة ، ويدعوهم الى الالتفاف حول « كازيمودو » المشوه المسكين - قبيل الامتحان - ليفيدوا من علمه ومعرفته ! .. **وهكذا مضت أعوام الدراسة متكررة على وتيرة واحدة لا تتغير ، وكلما كبرت كبرت معى همومى ، لان القدر خصنى بقلب مرهف الحس ؛ وأسرف فى منحى رقة الوجدان بقدر ما أسرف فى نكبتى بهذا القبح !**

« بحثت عبثا عن نظرات عطوفة تروى ظمأ قلبى المسكين ، ولكن الاناث كن يشحن بوجوههن الجميلة عنى نفورا وتقززا .. وآلمنى ذلك ألما لا يوصف ، فحرمت على نفسى الخروج نهارا حتى لا أرى هذه النظرات النافرة الجارحة ، واقتصرت على السير ليلا فى الطرقات المظلمة .. وكان أبى فنانا كما تعلم ، وقد ورثت عنه حب التصوير ، فكان هذا الفن الجميل يغرينى بأن أعشق الجمال أينما أجده فى السماء أو فى الارض ، فى الانسان أو فى الطبيعة .. وكان هذا سببا فى شقائى . وازدادت بلواى تضخما بعد موت أبى ، فلقد كنت فى شكل لا يشجع انسانا على قبولى فى أى عمل أكتسب منه القوت بعد أن فقدت عائلى .. وأجبرتنى ظروفى الخاصة على أن ألتجىء الى احدى قريباتى ، أنشد مأوى تحت سقف دارها

ريثما اعثر على عمل . . ومرت على ثلاثة اشهر لم أشعر بفترة في حياتي تفوقها مرارة . وفى أثناء ذلك ، أنقذنى اعلانكم من ورطتى ، واعتقدت أن الحظ ابتسم لى بعد عبوسه الطويل . فان العمل مع شخص ذى عينين مغلقتين ، لن يعرضنى لنظرات السخرية والنفور .. وهو شىء نادر ، لم أكن أحلم به !

« ولعلك الشخص الوحيد الذى صورنى خياله جميلا أو ظريفا . وقد أسعدنى هذا الشعور قليلا ، ومع ذلك . . فها أنذا قد قدمت لك نفسى كما هى ، فأفقدتها تسليتها وعزاءها الاخير ، اذ لاحظت عليك سأما ومللا وبغضا للحياة ، فخطر ببالى أنك قد تخفف من أساك اذا ما عرفت مأساتى ، فترضى بما قدر لك ! »

واحدثت هذه القصة المختلقة الخيالية ، النتيجة التى قدرتها وسعيت اليها ، فلقد لمست منه عطفا وتقربا لم أكن لانالهما منه الا بعد مضى زمن طويل . وسمعته يتلطف فى لهجته — للمرة الاولى — فيقول : « أحسنت صنعا يانور ، بصراحتك معى . . والآن يمكننا أن نتفاهم بسهولة ! »

**( جبزه ) فى : ٢ يوليو**

• ما كان أجمل ملامح عمر الصغير ، ونظراته عالقةبوجه سيده ، وهو يستمع بكل جوارحه لقصته الجديدة ! . . وكان نهب قابعا بجواره ، يلهث من شدة القيظ ، وكأنه هو الآخر ينصت ويفهم ! . . كانت القصة عن طفلة جميلة توسدت ساعديها وقد غلبها النعاس ، وأخذت تحلم بدميتها التى تركتها فى الحديقة . وتراءت لها دميتها وحيدة تحت سيل امطار منهمرة وزوابع عاتية ، وقد فتحت كفيها الصغيرتين ، تطلب من القادر أن يهبها روحا من عنده !

**وهنا تبتدىء القصة ! ... كنت أستمع للمؤلف وهو يروى مجرى حياة الدمية ـ اذ أوتيت روحا ـ ومصادفاتها المشوقة الخارقة للعادة ، بينما كنت أرسمها واسبغ على لوحتها ألوانها الاخيرة ، وقد تخيلت بطلة القصة الصغيرة متوسدة ورقة زهرة (( النيفيا )) بجوار نهر صغير ، والفراش ذو الاجنحة الشفافة الزاهية يتطاير حولها !**

واذ انصرف عمر منتشيا ، اقتربت من السيد ، وقدمت اليه اللوحة قائلة : « أنظر ! .. ها هى ذى بطلة قصتك .. اننى أقدمها لقرائك الاطفال ! » . وأمسك اللوحة بين يديه ، بينما وقفت وراءه أشرح له فكرتها وأصف له ألوانها . وكان سعيدا بها سعادة طفل محروم بلعبة جديدة يحافظ عليها ويخشى عليها لمسة يده ! .. وأخذ يشير باصبعه عن بعد ، وهو يردد أقوالى : « هنا غاب طويل أخضر .. وهنا زهرة الماء ـ « النيفيا » ـ البيضاء مزدهرة فوق أوراقها الخضراء المستديرة ، على سطح ماء النهر الصغير الجارى .. والفراش ذو أجنحة كحلية ووردية ، يتطاير هنا وهناك » . وهكذا كان يردد وصفى الى النهاية ، ثم قال : **(( اننى أكاد أرى ألوانك يانور .. انها ألوان رقيقة هادئة ، بعيدة كل البعد عن الواقع المادى .. انى ارى فيها ألوان (( دولاج )) البديعة وفنه الحر ! ))**

وأخذ يحدثنى عن رحلاته وما رأى فيها ، وكأنه يتحدث عن شخص قرأ عنه فى بطون الكتب . وشرح لى طريقة الفن الايطالى فى التلوين ، ووصف لى ـ بدقة فنان ـ اللوحات المشهورة التى حازت اعجابه فى المعارض التى زارها فى رحلاته .. وقد لاحظت أنه كان يصف لوحات الاطفال والحيوانات التى أبدعها كبار الفنانين المشهورين باسهاب ، مظهرا جمالها المستور ، وكأنه مفتن خبير قضى عمره بين الالوان والفرش .. كانت تلك فترة طيبة لن أنساها . فمنذ وفاة أبى وأنا محرومة من مثل هذه الاحاديث الطلية !

وكنا قد اعتدنا أن نتناول طعامنا معا فى الغرفة المجاورة الرطبة . ولقد استدعتنى السيدة الكبيرة الى غرفتها وقالت لى وعيناها مغرورقتان بالعبرات : « **رعاك الله يا ابنتى وأحسن جزاءك ، فان وجودك بيننا أضفى على حياتنا القاتمة نورا يا نوران !** » .. وكنا قد اعتدنا ـ كذلك ـ أن نبدأ العمل فى الصباح الباكر ، ونتركه عندما يشتد قيظ الصيف . ولكننا انقطعنا عنه تماما منذ ثلاثة أيام . وأخذ المؤلف يعتذر قائلا : « انى أشعر بأن أعماقى قاحلة جرداء ، فمن أين آتى بالخيال الخصب ؟ ! .. لن أستطيع اليوم أيضا أن أملى عليك شيئا يانور ، فاتمم لوحتك الجديدة ان شئت ! » .. وكان يجلس ـ بعد ذلك ـ ورائى ، يتطلع ناحيتى ، وينصت لشرحى الدقيق لسير العمل ، وكأنه يرى ما أعمل !

وفى هذا الصباح ،طلب منى السيد ـ بمجرد دخولى غرفة المكتب ـ ما كنت أتمناه ولا أجرؤ على البوح به اذ قال : « أشعرت مثلى بنزول المطر طوال هذه الليلة يانور ؟ .. ما أجمل رائحة الارض والنبات عقب الليالى الممطرة ! .. لقد فتحت نافذة مخدعى فى الصباح الباكر ، فدخل النسيم محملا بعبير الغابة . وشعرت بحنين جارف الى هذه الرائحة الطيبة التى نسيتها منذ وقت طويل ، **ولذلك عولت على أن أخرج الى الخلاء لاستنشق عطر الطبيعة من ينابيعه، ولتصف لى فتنة جمالها وسحرها الخلاب اللذين حرمت متعة مشاهدتهما منذفقدت بصرى !..لسوف ياتى عمر معنا !** » .

فتساءلت : « عمر ؟ ! .. ولماذا ؟ » . وكان جوابه : « لانك لا تعرف مسالك الغابة وأنا لا ابصر، واخشى أن تضل الطريق ! »

ولم أجب ! .. وتمثل لى الحوذى الكهل وهو يردد على مسامعى : « انه سر من أسرار هذه الغابات الغامضة .. ! »

وبعد قليل ، خرجت قافلتنا الصغيرة يتقدمها « لهب » بشعره الطويل الاحمر ، وهو يقود سيده كالمعتاد . ولم يلبث

دليلنا الصغير - ذو القدمين الحافيتين - أن تقدمنا مرشدا، فمضينا نتعقبه ببطء ، ورائحة «المانوليا» تعطر الجو المحيط بنا . واقتربت من عمر وهمست له قائلة : « لماذا لم تقدنا فى الطريق المعبد الآخر ؟ .. لقد فات اوان « الليلا » وذبلت !» . **فأشار لى بيده الصغيرة نحو منزل أبيض جميل الشكل ، يتراءى عن بعد خلال الاشجار ، وأجاب بصوت خافت : « أردت أن أتفادى المرور بالقرب من هذا .. فقد فقدسيدى نور عينيه فى هذا المنزل المنحوس ! »**

وزممت شفتى دون أن أجيب ، لاننى لم أفهم السبب . فلقد كان هذا المنزل يلفت نظرى أثناء رياضتى كل صباح ، اذ أعجبت بلونه الابيض الناصع ، والنبات المتسلق يكاد يحجب منافذه وشرفاته المغلقة. وكان طريقه المعبد ،وأشجار السرو العالية على جانبيه تستهوينى . ولكنى كنت أحجم عن السير اليه ، وأهاب السكون والوحشة المحيطين به !

وأفقت من تصوراتى وعمر يقول: « والآن سأقودكما من بين الاحراش ، الى أجمل بقعة فى الغابة !» .ثم انثنى بنا الى يسار الطريق قائلا لسيده : « أعطنى يدك ياسيدى ، لاننا تركنا الطريق المنبسط ، « ولهب » لن يستطيع قيادتك ! »

ورأيت تأثير السكون الذى أحاط بنا منذ برهة ، مسطرا على قسمات وجه السيد الذى حرم من استجلاء مفاتن الطبيعة ، فقدرت آلامه واقتربت منه لابدد هذا الجو القاتم الذى أحاط به ، وبصوت يشبه الهمس - أدركت أنه ذو تأثير سحرى عليه - أخذت فى وصف ما كان يحيط بنا من مناظر جميلة رائعة أثناء المسير : **« اننا الان فى مكان ، وياله من مكان أبدعت الطبيعة صنعه ! .. أمامنا وخلفنا وعن يميننا وشمالنا بحر من الخضرة اليانعة ، يمتد الى أقصى مدى النظر، ويتراءى وهو يتقابل مع الافق البعيد ، ويختفيان معا فى عالم الاسرار .. فلا منزل ولا حائط، ولا طريق مترب هنا يعترض**

**سريان النسيم حاملا قبلات الغرام ونجوى الحب بين الازهار!**
.. وها هى ذى أشجار السرو العظيمة تسبح فى ضوء الشمس هانئة بالدفء، وشعورها الذهبية مسدلة تتأرجح مع النسيم، والعصافير تتواثب عليها شادية ، بأعذب ألحان الجنة .. وها هو ذا الخشخاش يتدلى من أغصانه بوفرة فى هذه المنطقة .. وفى الجهة الاخرى زهور الاقحوان تطل برؤوسها الصفراء .. وها نحن الآن قد وصلنا الى وسط مكان فسيح كأنه ميدان فى احدى المدن الكبيرة ، ووقفنا بجوار نافورة خربة يتوسطها تمثال من المرمر الابيض ، طفا عليه الماء الآسن فأخفى معالمه . **انه تمثال فتاة عارية متوسدة ذراعيها ، وقد ظل نهداها بارزين فوق سطح الماء ، فجعلت منهما الضفادع مرتعا للعب والوثب الى قاع النافورة ! »**

وهكذا رحت أشرح له ما كان يصادفنا، وهو سائر بجوارى ويده فى يد عمر ، منصتا لى ووجهه لا ينم عن احساساته المتضاربة .. فقد كان يحرص على اخفائها تحت جمود مصطنع ! .. وأخذ دليلنا الصغير يلمس جمال ما حواليه من وصفى ، فراح يصفى - هو الآخر - مسرورا ، دون أن يعنى بالتحقق من صدق وصفى .. واعترض طريقنا غاب أخضر عالى السوق ، فشققنا طريقنا بينه . حتى اذا اجتزنا هذه المنطقة ، أنعشت صدورنا رائحة « التيليو » وأغرتنا بالبحث عن أشجاره ، الى أن عثرنا عليها حول ساحة كبيرة جدا ، تحيط بها الاشجار - فى شكل دائرة منتظمة - وتظللها بأغصانها المتعانقة فى تماسك لم تستطع أشعة الشمس أن تنفذ خلاله ، عدا خيوط كالحة منها ، فقدت لونها الذهبى الجميل !

وجلسنا لنستجم فوق أرضها المفروشة بأزهار « التيليو » الذكى الشذى ، بجوار جذع شجرة من أشجاره الضخمة . ورقد « لهب » بجوار سيده وهو يلهث بصوت مسموع . وما لبث عمر أن تركنا قائلا : « انتظرانى لحظة ، فأنتما الآن

ضيفاى وعلى واجب اكرامكما ! » .. وراقبته وهو يبتعد عنا فى خفة الغزال الشارد ، ثم وهو يتسلق الشجرة التى انتقاها ويقفز من غصن الى آخر بخفة القرود ، فشعرت بالهناء يغمر نفسى وأنا أتتبع حركاته السريعة ، وجمال الدنيا الفاتن يحيط بى من كل جهة . وعبرت عن حسى هذا قائلة بصوت منخفض : (( **كأننى أعيش الآن فى ربوع قصة خيالية!**)) .. ولم يعقب السيد على قولى، بل راح يداعب رأس «لهب» الضخم ، ثم قال : « ياللمسكين ، انه عطشان يانور ! .. يخيل الى أننى أسمع خرير ماء عن بعد .. ترى أين يكون ؟ » . فوقفت متلفتة أبحث عن مجرى الماء.. فرايته بعيدا ينساب من بين الصخور ، وقد أكسبته الشمس بريقا لامعا . فسرنا الى النبع الجارى . ورأيت زهور البنفسج البرى نابتة حول الصخور ، تحوطها أوراقها الخضراء العريضة ، والماء الرقراق ينساب من بينها مكونا لنفسه عينا جارية ينحدر منهـا فى قنوات رفيعة ملتوية ، حتى يبلغ التربة الظامئة فتمتصه .. وبعد أن روى لهب ظمأه ، غسلت وجهى وبللت شعرى .. **ولا أدرى أى شيطان دفعنى لان أقول : (( كدت أنسى شناعة ملامحى وسط كل هذا الجمـال الالهى ، ففزعت منه حين تراآى لى - على حين غرة - على صفحة الماء الصافى ! .. ما أشبهه بوجه عفريت فى قصة خيالية ! )) .. وضحكت !**

وكان السيد متوسدا ذراعيه ، راقدا على العشب الاخضر فرفع رأسه قليلا وأجابنى قائلا : « جدير بك أن تشكر الله أناء الليل وأطراف النهار على هذه النعمة التى من بها عليك يا نور ! » . ولعله شعر بحيرتى ، فأردف : (( **أنك بهذا الوجه القبيح بمنجاة من مخالبهن الوحشـية ، وبمنأى من اغراء عيونهن الناعسـة الخادعة ، بعيدا كل البعد عن عواطفهن الخادعة وحيلهن الكاذبة )) .. وتنهد ثم قال بصوت منخفض كالهمس : (( ليتنى كنت مثلك يا نور .. ! ))**



وعاد عمر حاملا خيرات الله من الفواكه اللذيذة النادرة ، فغسلتها فى النبع ذى الماء المثلج ، وقدمتها السيد ، وصدى صـــوته المتألم لا يزال يتردد فى أذنى : « لبتنى كنت مثلك يا نور ! » .. وألهمتنى هذه الامنية الحزينة قصـة مهدت لروايتها قائلة : « لقد أكرمتنـــا يا عمر كل الاكرام ، لذلك سأقص عليك قصة صغيرة » . فالتفت عمر نحوى ، وترك ما كان يهم بأكله ، واصغى الى كل الاصغاء . فقلت :

ـ كان فى سالف الزمان ، سلطان عادل الاحكام ، عظيم الشأن ، لم يرزقه الله الا ولدا واحدا أحبه كل الحب ، وأعزه كل الاعزاز ، الى أن شب وترعرع بين عطف والده واعجاب أمته . ولكن الامير المحبوب أصيب ذات ليلة بمرض عضال تحير الحكماء فى علاجه ، واســتعصى عليهم دواؤه ، حتى يئسوا من شفائه . **وبمرور الايام والليالى تمكن الداء منه ، وسرى فى بدنه ، حتى وصل الى قلبه فنهشـــه . وبعد ذلك تعافى الامير ، ولكنه أصبح انسانا بدون قلب .. هذا ما قيل فى القصة يا عمر ، وأنت تدرك ـ طبعا ـ أنها خرافة !** وصار ـ ككل مخلوق عديم القلب ـ قاسـيا وظالما ، تسره رؤية الدماء القانية ، ويضحك جذلا من تأوهات الآدميين الذين كان يأمر بتعذيبهم ارضـاء لنفسه المتوحشة . واستمر فى ذلك مدة ، والقوم مستسلمون لهذا الظلم الجـائر . ولكنهم لم

يلبثوا أن ضجوا من تعسفه ، واجمعوا على رفع ظلامتهم الى والده السلطان ، حتى يبحث عن دواء لعلة ولده أو ينقذهم من ظلمه . وبناء على الاوامر السلطانية ، خرج المنادون فى طلب كل حكيم وعالم . وبعد عدة أيام ، اجتمع العلماء والحكماء فى قصر الامير ، وأحاطوا به يفحصونه بامعان . حتى اذا أجمعوا على رأى ، تقدم كبيرهم وأبلغ السلطان هذا الرأى ، قائلا : **« يؤسفنا يا مولاى أن وجدنا أن العلة أتت على قلب أميرنا الشاب ، ولم تبق على جزء منه .. وشفاؤه ممكن ولكنه عسير المنال ، فلن يبرأ من علته قبل أن تفتديه فتاة شابة مثله ، تهبه قلبها ، على شريطة أن يكون ذلك بمحض رغبتها ورضاها ! »** .. وما ان قال هذا ، حتى ألقت احدى الجوارى الجميلات — اللائى كن يستمعن وراء الابواب — بنفسها عند قدمى الامير ، وراحت تقول له وهى تدفن خنجرها الصغير المرصع باليواقيت فى صدرها : « اليك قلبى يا أميرى ابتلعه قبل أن يسكن ، ولا تنس أنه خفق من أجلك دائما ! » .

وقبل أن أتم نهاية القصة سمعت ضحكة شيطانية أرجفتنى كما أرجفت عمر الصغير ، ثم وصوت المحرر يقول بخشونة : **« لا تتلاعب بصبرى مرة أخرى يا نور ! .. ما أسخف قصتك ! اننى لم أسمع أسخف منها قبل اليوم .. هيا بنا ! »**

وفى الحال عدنا من نفس الطريق — الذى قطعناه فى مجيئنا بقلوب عامرة بالبهجة والسرور — وقد سادنا الصمت وعلت وجوهنا الكآبة .

## ( جبزه ) فى : ١٥ يوليو

• **كتبت** اليوم خطابا لاستاذى ، بعد أن شكا مرارا من اهمالى الكتابة اليه .. ولست ادرى لماذا أبديت له اعذارا مختلقة حتى أجعله يرجىء قليلا حضوره لرؤيتى ، كاتفاقنا !

تصل جميع الصحف من ( استامبول ) كل صباح ، فاطلع

عليها فى المساء . وقد لاحظت أن الرأى العام فى ( استامبول ) يبدى اهتماما شديدا ـ منذ وقت طويل ـ بجريمة غرامية . وقد رأت احدى الصحف ـ بهذه المناسـبة ـ أن تستفتى قراءها فى : **هل يحق للزوج أن يقتل انتقاما لشرفه المسلوب ؟**

ولقد اهتممت بهذا البحث، فتتبعت اجابات القراء ، ورحت أقارن بينها كل مساء .. ولست أدرى أى دافع خبيث دفعنى ـ هذا المساء ـ لان أسأل الضرير المسكين ، وهو جالس فى مقعده يحتسى قهوته بعد العشاء : « **وأنت .. ماذا ترى ؟ .. أتعطى الزوج المخدوع حق قتل زوجته انتقاما ؟** »

ولا أدرى ما الذى حدث .. ولكننى رأيتـه واقفا ، وقد اكتسى وجهه بصفرة كالاموات ، زادها امتقاعا ـ فى نظرى ـ ضوء المصباح الاخضر .. وكان قدح القهوة مهشما تحت قدميه ! وأسرعت قائلة : « انه استفتاء ، ليس الا .. وقد أردت معرفة رأيك ، وهذا كل ما فى الامر ! » . **فتهدجت أنفاسه ، وقال بصوت رهيب كالفحيح : « حق قتلها ؟ ! .. بل أن له الحق فى تمزيقها اربا ، والقائها للكلاب الضالة ! »**

وشعرت بالخوف يسرى فى كيانى ، وأنا بمفردى مع هذا الرجل ذى الوجه المصفر والعضلات التى راحت تختلج اختلاجا فظيعا ، وقد أنسانى رعبى وفزعى قدرة الابتكار على تغيير مجرى الحديث . فانسحبت الى مخدعى !

## ( جبزه ) فى : ٢٠ يوليو

● **كنت** فى المكتبة أفتش بين الكتب القليلة عن كتاب له من مؤلفاته ربما نجا من النار ، وظل فى أحد المخابىء آمنا .. واذا به يدخل الغرفة ، حتى اذا شعر بوجودى ، قال : « ما الذى تفعله يا نور ؟ » . فقلت : « أبحث عن رواية لمؤلف شاب أعجب بمؤلفاته » .. واذ ذاك قال : « ادخر مجهودك ! .. ألا ترى يا نور أننى لم أترك رواية غرامية من أى نوع كان ؟ »

**( جبزه ) فى : ٢٥ يوليو**

• **حضر** الدكتور صلاح الدين بك منذ يومين .. وهو طويل القامة ، تدل سيماؤه على نبل وكرم محتد وطيب عنصر . وقدمتنى اليه السيدة الكبيرة بعد وصوله توا ، فكان أول سؤال له فى حضرتها ، هو هذا : « أفى مقدورك يا آنسة نوران أن تقنعى مريضنا العزيز بالسفر الى خارج القطر ؟ » . وكان السؤال مباغتة ، لاننى لم أكن أتوقعه ، فسألت الطبيب بدورى : « الى أين مثلا ، يادكتور ؟.. لست أفهم غرضك ! » . واذ أوضح ما التبس على فهمى أولا ، **أدركت أنهم يريدون عرض السيد على طبيب العيون الالمانى العالمى ، فقد يسترد ابصاره بعدعملية جراحية** . وسألت الدكتورعقب هذاالايضاح : « ولماذا لم يسافر قبل اليوم ؟ »

ــ لم يقبل أصلا ، لان احتمال نجاح العملية ٤٠ فى المائة فقط .. ولم نشأ أن نلح عليه نظرا لحالته الصحية . وقد بلغنى الآن ــ من السيدة الفاضلة ــ أن لك كل الفضل فى تهدئة أعصابه المتوترة ، وأن حديثك الطلى وقوة اقناعك يجعلانه يقبل فى سرور ما يكون قد رفضه من قبل فى غلظة ..

وكان الخطر الوحيد ، هو أن استرداد بصره قد يؤدى الى نتيجة عكسية .. الى صدمة قدتفقده عقله !.. ولكن الامل..!

وأجبت الدكتور بعد تفكير دام لحظة : « سأحاول اقناعه .. وليساعدنى الله ! »

ولقد رحل الطبيب هذا الصباح .. وفى المساء ، جلست بالقرب من السيد ــ أمام النافذة المفتوحة ــ نتجاذب أطراف الحديث . وفى جو المساء الشاعرى ، والدنيا فى سكون، تفيض النفوس بما فيها ، وتشعر باحتياجها الشديد لان تبث آلامها وتفضى بأشجانها لانسان ما .. وهذا ما حدث لى ، اذ رحت أحدث السيد طويلا عن موت أبى وما نتج عنه .. ووصفت له

منزلى الجميل المحاط بزهور « الليلا » .. وبالرغم من أنه لم يواسنى بكلمة واحدة ، الا اننى على يقين من أنه الوحيد فى العالم ، الذى استمع لى بعطف ، مقدرا شعورى الحزين ..

وسألته أخيرا ، والحسرة لا تزال عالقة بصوتى : « ألا تحن لرؤية جمال الدنيا الباهر مرة أخرى ، بعد أن تذوقت مرارة الحرمان منها يا نديم بك ؟ .. لقد سمعت الدكتور .. » .

فقطع على الحديث قائلا ، وقد لاحت على وجهه شبه ابتسامة هازئة : **« سمعت من الدكتور أن احتمال نجاح هذه العملية ٤٠ فى المائة ، أى أن كفة الفشل أرجح . ومعنى ذلك أن أعود من رحلتى المفعمة بالآمال الباسمة ، وأنا ضرير كما ذهبت ، ولكن .. بعد أن أكون قد فقدت كل أمل . فلماذا يريدون يا نور حرمانى من أملى الواهى الذى ينير بضوئه الضعيف حياتى المظلمة ؟** .. لماذا يريدون أن يفقدونى هذا الحلم الخيالى الذى يبعث الدفء الى قلبى المقرور ؟ .. الواقع أننى أتهرب من معرفة الحقيقة يا نور ، خوفا من أن افقد هذا السراب الخادع الذى يبدو لى باسما مشرقا كلما اشتد حنينى لرؤية السماء فى زرقتها ، والزهور الفاتنة على اختلاف ألوانها ، وضوء القمر الحالم فى ليالى الصيف .. وها أنذا أرجىء هذا الرحيل لاجراء العملية خوفا من أن أعيش بلا أمل ، وما أقسى الحياة بلا أمل ! .. ومن يدرى ، ربما اشتد حنينى لجمال الدنيا — اذا ذهبت لاجراء العملية — فيعز على بعد ذلك تضليل خيالى بآمال وهمية ، وسراب خادع ! »

ولعله شعر بشدة تأثرى من اعترافه الحزين ، لانه قال مواسيا ، وكأننى المحتاجة للمواساة وليس هو : **« اننا مخلوقات مسيرة ، لا نملك لانفسنا شيئا يا نور .. ولو قال لك انسان محطم بائس انه يعيش فى الحياة بلا أمل ، فلا تصدقه لانه كاذب .. فلا بد أنه يتعلق بامل ما ، ما دام يحيا .. هكذا جبلنا ، معشر البشر ! .. هيا اعطنى يدك ، وقدنى الى الحديقة**

لتصف لى بريق النجوم الماسى على صفحة السماء الداكنة الزرقة ! » .. وتوليت قيادته لاول مرة ، ويده فى يدى . وبعد أن سرنا قليلا ، توقف فى الحديقة وقال بخوف : « الى أين تقودنى يا نور ؟ » . فأجبته كأننى على علم بسر مأساة المنزل الابيض قائلة : « لا تخف يا نديم بك فلن أقودك الى .. هناك ! »

ولم يدهش ، ولا هو تساءل عما أقصد بقولى « هناك » ، وانما ضغط على يدى قليلا ، كما يفعل الطفل حينما يفزع من الظلام ، وتابع سيره بجوارى صامتا ، **ولم يترك راحتى حتى بعد جلوسنا تحت شجر « المانوليا » ، بل أخذها بين كفيه واسند رأسه الى جذع الشجرة ، ونظر الى أعلى كأنه يود رؤية السماء . وقال بعد برهة : « ما أغرب هذا يا نور ! ! ان « كازيمودو » يملك يدا صغيرة الحجم جميلة التكوين ! » .**
فسحبت يدى من بين يديه بلطف ، دون أن أشعره ، ثم قلت ضاحكة : « أتستكثر هذا على المسكين ؟ .. ان جمال تكوين يديه عزاء أرسلته له السماء الرحيمة أثناء خلقه ، وأمرت قائلة : لتكن يدا المسكين جميلتين ، فانه سيراهما فى كل آن .. أما وجهه فلن يراه دائما ! »

وسره جوابى وأضحكه ، بالرغم من تفاهته ، وقال : « اننى للآن لم أصف لك الصورة التى طبعها خيالى لك فى مخيلتى منذ أول لقاء لنا ، فقد اعتدت ــ بعد فقدان بصرى ــ أن أعطى كل شىء شكلا أتذكره به . وبالرغم من أنك خطأت خيالى وقدمت لى نفسك فى صورة لم تخطر على بالى ، الا أننى لم أستطع أن أمحو من مخيلتى الصورة التى رسمتها لك .. لقد ذهبت محاولاتى سدى .. أتدرى أى حال يماثل هذا يانور؟ .. **انه مثل أن يرى انسان صورا ملونة لمكان ما ، فيعجب به ويرحل اليه ليحقق أمله برؤيته ، فاذا حقيقته صدمة لخياله . ومن المدهش أن الصدمة ــ فى هذه الحال ــ تكون وقتية ،**



**تزول بعد عودته توا ، ويظل يتصور المكان – كلما تذكره – فى المنظر الجميل الاول الذى طبعه خياله .. حتى لينسى – على كر الاعوام – كآبة المكان الحقيقى ، ووحشة مناظره ! » .**

فسألته – وقد أثار فضولى – أن يصف لى صورتى كما رسمها خياله ..

– فى القاهرة ، كان لمربيتى الحبشية طفل يصغرنى بعامين .. وكنت أحبه واعطف عليه ، حتى لقد كان هو الطفل الوحيد الذى قاسمنى ألعابى دون بقية الاطفال . وكان صبيا جميلا ، خمرى البشرة ، جذاب الملامح ، له عينان سوداوان براقتان ، محاطتان بأهداب طويلة سوداء منثنية الاطراف .. وكان شعره أسود مجعدا ، ولكنه فى نعومة الحرير . ولست أتذكر الآن اسمه الحقيقى ، ولكنى لم أنس أننى أطلقت عليه : « قطيفة » .. هذا الصبى الجميل ، كان خليط الدم .. كان والده ناصع البياض ، ووالدته حبشية جميلة التقاسيم ، فجاء لون بشرته فريدا لم أر له مثيلا فى جماله وجاذبيته . **ولا أدرى ما الذى جعلنى أتذكره بعد هذه السنين الطويلة ، حين سمعت صوتك لاول مرة ، وصور لى الخيال من صديق طفولتى شابا أجلسه أمامى . والآن ، كلما حاولت أن أتخيلك على حقيقتك ، أختلط على الامر ، فلا أراك أمامى الا فى الصورة**

**التى جسمها لى خيالى أول مرة !**

استمعت لحديثه مغمضة العينين حيرى ، فمن أدرى هذا الضرير المسكين بحقيقة حالى .. ولو أنه فتح عينيه لرآنى أمامه طبق الاصل من صورة خياله .. وفى هذه اللحظة ، مرق من بعد شهاب ساقط من السماء ، فقلت له : « يقولون أن الله — جل شأنه — يجيب دعاء كل من دعا لحظة سقوط الشهب . ولقد دعوته الآن باخلاص من أجل عينيك ! »

**( جبزه ) فى : ٢٧ يوليو**

• **لم** ألاحظ الا البارحة أن فى أرض الغرفة التى نستعملها للطعام بابا لمخزن أرضى ، وقد أخفوه عن العيون بسجادة عجمية .. ولقد ترددت برهة وجيزة فى فتحه ، ثم غلبنى الفضول ، فجذبت الباب الى أعلى ، فانفتح بسهولة . ولكن رائحة « النفتالين » القوية التى انبعثت منه ، أتعبت صدرى ومع ذلك فاننى لم أتراجع ، وأطللت برأسى لارى محتويات هذا المخزن الخفى ، فرأيت أرففا صفت عليها أوان بلورية ثمينة ، وأخرى فضية ، وقد كساها الاهمال بطبقة سوداء خفيفة .. وفى الجهة الاخرى ، كانت ثمة ستائر مطرزة بالقصب ، وقد كدست بعضها فوق بعض ، ورائحة « النفتالين » تتصاعد منها . **وكنت أهم بسحب رأسى ، حين لمحت حاكيا فى نهاية أحد الارفف ، فكدت أطير من الفرح وأنا ألمسه بيدى ، وكأننى وجدت كنزا لا يقدر بثمن . وأسرعت بسحبه من مخبئه الى عالم الوجود ، وأخرجت الاسطوانات التى فى داخله وقرأت أسماء المقطوعات الخالدة وأنا أزيل الغبار عنها واحدة بعد أخرى** . وكان الحاكى على شكل حقيبة مربعة الشكل .. وأرجأت هذه المفاجأة السارة لكلينا الى ما بعد العشاء ، وانتظرت مضى الوقت وأنا على أحر من الجمر .. . وأخيرا غربت الشمس ، وتناولنا عشاءنا كالمعتاد ، ثم جلسنا

وحيدين أمام النافذة المفتوحة ، والنسيم يحمل الينا شذا الزهور عبر الحديقة ، وينفذ به الى أعماقنا الساكنة فينعشها ! .. وعنـــدئذ رأيت أن الوقت المناسب قد حان . **فدخلت الغرفة المجـاورة ، وأخرجت الحـاكى من مكمنـه الخفى . وتسارعت دقات قلبى عنيفة موجسة ، وكأن العالم بأسره كان يسمع صرير « الزمبلك » وأنا أملأه خفيــة ، ثم حملت كنزى بين ذراعى ، ودخلت الغرفة بهدوء . وكان ينادينى قائلا : « أين أنت يا نور ؟ .. نور ! »**

ولم أجبه ، بل أدرت الحاكى ، وانتظرت نتيجة المفاجأة السارة ! .. ولكنه لم يتنبه لصـــوت « الكمنجة » الخافت الحالم فى قطعة شوبير الخالدة « فلات ماجور » . ولكن ، ما أن ارتفعت نغماتها الشـــاكية ، حتى قال بصوت غريب : « ما هذا ؟ ! .. ما هذا ؟ ! » . **ثم قفز عن مقعده مهتاجا ، واندفع فى سيره وقد اختلط عليه الامر .. وكانت يده تبحث عن شىء وهو يتجه عكس مصدر الصوت ، واصطدم بالمقعد واختل توازنه ، وكاد ينكفىء على وجهه . ولكنه تحامل على نفسه فى اللحظة الاخيرة ، وصرخ قائلا بصوت أجش مرعب : « أسكت هذا الصوت يا نور ! .. أسكت هذا الصوت ! »**

فحاولت أن أمد يدى لارفع ابرة الحاكى ، ولكننى لم أستطع تحريكها ، اذ قهرنى الخوف وشل جميع أعضائى وعقد لسانى .. وتبين السيد مصدر الصوت ، فاندفع كالمجنون الى المكتب ، ونزع الاسطوانة فى عنف ، وهشمها على الارض ، وحاول تحطيم آلة الحاكى المعدنية الصلبة بيديه . وكانت ملامحه قاسية مخيفة .. ولكنه لم ينجح ، وألقى بنفسه على المقعد مغلوبا على أمره ! .. **ولم أشعر نحوه بذرة من الشفقة ، بل كنت حانقة عليه أشد الحنق ، وقلت له غاضبة : « انك شرير ظالم ! »**

ثم خرجت من الغرفة ، وصفقت الباب ورائى فى عنف ، وذهبت الى غرفتى وكيانى يرتجف كعود جاف تتجاذبه الرياح

فى يوم عاصف .. ولست أدرى كم من الوقت مضى على ، وأنا واقفة أمام النافذة أفكر، دون أن ألقى بالا لجمال الليل الفاتن . ولم أشعر الا ودموعى تهطل على وجنتى فى سيل غزير ، حتى ارتوت أعماقى القاحلة ، وزال ما كان قد ألم بنفسى من حقد وغيظ ، وشعرت بالاسف الشديد والالم من أجله .. وراح وجدانى يؤنبنى قائلا: **« أهكذا تصونين عهدك وتبرين بقسمك ؟ .. ألم تعدى والدته بأن تكونى بلسما شافيا لجراحه ؟ .. انك الآن قد ضاعفت أوجاعها قبل أن تلتئم ، فحاولى اذن أن تصلحى ما أفسدت يا نوران ! »**

وعدت اليه .. ولم يشعر بعودتى ، اذ وجدته متوسدا ساعديه فوق حافة المكتب .. وشعرت بقلبى ينتفض بين حنايا ضلوعى ، وصرخت صرخة والهة حين رأيت الورق الابيض ملوثا بالدماء . فرفع رأسه ببطء بعد سماعه صيحتى، **ورأيت أن مخدومى لم يعد ينقصه شيء ليمثل صورة « المسيح الشهيد » ، فقد كانت قطرات الدم الاحمر منتشرة تحت جفنى عينيه المغلقتين ، وقد ارتسمت آلام نفسه المضنية على قسمات وجهه ـ الشاحب المعذب ـ فى جلد عجيب ! ..** وشل الالم قدرتى على التمييز ، فلم أتصور أن هذه الدماء المرعبة انما انبعثت من جرح فى يده ، أصيب به وهو يحاول تحطيم الآلة الصلبة بالقوة . وسألته مشفقة : « ماذا جرى؟.. ما هذه الدماء ؟ »

وكطفل صغير نادم يطلب عفو أمه ، مد الى يده ، وأجاب : « لقد سالت هذه الدماء ـ فى الظاهر ـ من هذا الجرح الصغير. ولكن الحقيقة ليست كذلك يا نور ، فان الجرح فى أعماق نفسى ، تتساقط دماؤه دائما قطرة قطرة ، تكوى أحشائى . ولكن هذا .. لا شيء ! » . وعاد فتوسد ساعديه ، وأخذت كتفاه تهتزان كما لو كان يبكى بحرقة .. ولكن عبراته كانت تتساقط فى أعماقه حقا ، لان وجنتيه كانتا جافتين ، ولا أثر

للدموع عليهما ! .. ولم أحول نظرى عن بقع الدماء الحمراء الصغيرة فترة لا أدرى أطالت أم قصرت .. **وأفقت من تأملاتى على صوته وهويسألنى قائلا : « وما رأيك أنت يا نور ؟ .. أتعطى الزوج المخدوع حق الانتقام لشرفه ؟ »**

وارتج على القول ، فقد أنسانى الذهول تذكر هذا البحث الذى دار بيننا منذ أيام .. وما لبثت أن قلت : « مهما يكن الدافع ، فأنا لا أبيح لانسان حق ازهاق روح بشرية .. وللزوج المخدوع أن .. » . وبتر حديثى بضحكة هستيرية ، ثم قال : « كفى ، كفى ! .. اذن أنت لم تخطىء حين نعتنى بالشخص الظالم الشرير ! » . ولم أفهم شيئا من جملته هذه .. وشعر هو بأننى أستعد لسؤال ، فقال : « هيا يا بنى .. ادع لى حبيب ، لاننى أريد أن أنام .. أنام .. أنام ! »

**( جبزه ) فى : ٢٩ يوليو**

• **تسلمت** اليوم خطابا من أستاذى حكمت بك .. ولم يحدثنى عن الاماكن التى ازداد حنينى لهـا على مر الايام . وآلمنى أن لا يذكرها بكلمة ، مع أنه أفرد صفحة طويلة لوصف حفلة زفاف فريحة ورحيلها ـ مع قرينها الثرى ـ لتمضية شهر العسل فى الخارج . ثم أفرد الصفحة الثانية لشكاية مريرة من وطأة القيظ ، ومن السعال الذى لا يود مفارقته بالرغم من الجو الحار . وآلمنى أن لا أقرأ بين سطوره ما كنت أتوق لمعرفته عن .. هناك ! كما آلمنى أنه لم يسألنى عن أشياء كنت أنتظر منه أن يسألنى عنها .

**( جبزه ) فى : ١٥ اغسطس**

• **لم** أخط حرفاواحدا فى دفترى منذ شهر ونصف الشهر . وقد مضت هـذه الايام الخمسة والاربعون محملة بشتى الاحاسيس المثيرة .. ألم ، وفزع ، وخوف ، وأمل ! حتى

خيل لى أنها خمسة وأربعون جيلا . فلا يزال « هو » تائها فى بحران الحمى ، وأسمعه يقول بين وقت وآخر : « أريد الشمس ! .. لماذا قتلوها ؟ »

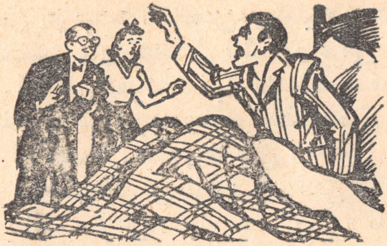
**كان قد تباعد عنى بعد ثورته - فى تلك الليلة - وعاملنى بجفاء ، وأسدل على وجهه قناعا من الجمود .. وأخذ يواصل العمل طوال فترة الصباح - من كل يوم - بالرغم من الجو الحار الخانق ، ولا حديث بيننا مطلقا خارج نطاق العمل .**

الى أن كان ذات يوم ، وقد انتظرت املاءه والقلم بين أصابعى - مدة طويلة - دون أن ينبس ببنت شفة . وما لبث - فى النهاية - أن قال بصوت ملول : « أشعر بتعب مضن ، وقد انتزعت نفسى من الفراش انتزاعا ، فى هذا الصباح .. تعال معى الى الغرفة الاخرى ، فان جوها رطب وأريكتها مريحة ! .. ولعلك تقرأ على شيئا ، اذا لم أستطع أن أملى عليك ..! »

وبارح مقعده وهو يتحامل على نفسه بعناء ، فاستعد « لهب » لقيادته كالمعتاد ، وهو يبصبص بذنبه متحيرا ، ويرمقنى بعينيه الواسعتين ، وكأنه يسألنى عما بسيده !

**وفى أثناء رقاده على الاريكة ، نزف أنفه دما قانيا . وشعر بابتعادى عنه ، اذ هرعت لطلب المعونة ، فقال محتدا : « تعال هنا يا نور ! .. لا تستدع أحدا ، فلست أريد جلبة ! » ..**

وكانت هذه الكلمات آخر جملة نطق بها لسانه وهو مستيقظ الشعور . ثم رفرف الموت بجناحيه مدة شهر ونصف ، فى هواء هذه الغرفة ، وصارع هذا الانسان الضعيف النائم أمامى فكاد يصرعه لولا رحمة الله الواسعة .. وكنت أراقب صراعهما الدموى القاتل بقلب واجف ، ومريضنا العزيز يلقى بنفسه هنا وهناك ، تحت تأثير الحمى المتوقدة .. وبالرغم من وجود طبيبين مستديمين ، فان محاولاتنا لتهدئته كانت تبوء بالفشل دائما ، وكانت تنتهى بوثاق المسكين فى فراشه لشل حركته ، حتى لا يضر نفسه .. وأوشك الشك أن يسيطر على ذهن



الطبيبين ــ ابان هياجه وثورته ــ فكادا يجزمان بجنونه ،لولا نتيجة تحليل الدم التى أظهرت أن الهياج من تأثير «التيفود»!

**هذه الاحاسيس المثيرة ، والعواطف المتباينة ، والمصادفات الحزينة لم تطلعنى على سر مأساته فقط ، وانما اثبتت لى أن شعورى القوى نحوه لم يكن وليد الشفقة والرحمة فى يوم ما .. وما هو الا حس رقيق له اسم آخر !**

اننى أجلس الآن معه وحيدين ، وقد خرج الطبيبان لبعض شأنهما .. وانى لارقب رذاذ المطر وهو يتساقط على زجاج النافذة ، ودفترى بين يدى ، وأسمعه يهذى أثناء نومه قائلا : « أريد الشمس ! .. لماذا قتلوها ؟ .. أين ذهبت ؟ » .. وها أنذى أهمس فى أذنه ، وأنا أبدل له الضمادة المبللة على جبينه الملتهب قائلة : « لا تحزن ! .. سأدعو الله أن يمنع المطر ، حتى تشرق الشمس من أجلك ! »

ترى هل سمع ؟ .. هل فهم ؟ .. لست أدرى ! ولكن الهدوء والراحة لاحا على قسمات وجهه ، على أثر سماعه صوتى الهامس ، فنام فى هدوء ، بعد أن تنهد !

* * *

**لقد** علل الدكتور كراهة نديم بك لوالدته ــ دون الجميع ــ بأنها عارض شاذ من أعراض الحمى . أما أنا ، فقد وجدت فيها جوابا شافيا سكن شكوكى المتراكمة فى أعماقى منذ وقت

طويل .. ولعل أغرب ما استعصى على تعليله ، هو أن للمسكين مقدرة على التمييز ، وارهافا فى الشعور ، الى درجة انه كان يشعر بدخول أمه الى الغرفة ، قبل أن نشعره نحن بوجودها ، فكان يصيح غاضبا ، ووجهه يطفح بحقد عميق : « اخرجوها من هنا ! .. لا أريدها ! ابعدوها عنى ! »

وحدث فى ليلة من الليالى المضنية ، التى تركت أثرا خالدا فى نفسى ـ لم يطمسه توالى الاعوام ـ ان ضم « نديم بك » يدى الى صدره ، وراح يستعطفنى وهو فى بحران الحمى ، مرددا : « لاتدعهم يأخذوننى يانور ! .. لقد قتلتها .. قتلتها ! .. لسوف يشنقوننى ، فلا تدعهم يأخذوننى ! دافع عنى يانور! »

.. وكان الدكتور عثمان فى الغرفة معنا ، فرأيته ينصت لكلماته وقد عقد مابين حاجبيه ، وهو ينقل نظراته المستريبة بينى وبين « حبيب أغا » . وبسرعة خاطر منى أنقذت الموقف قائلة: « انه يهذى بما كان يكتبه فى مؤلفه الاخير يا دكتور .. كان الموقف يمثل جريمة قتل ، وقد حال المرض دون أن يتمه ! » .. واقتنع الطبيب بايضاحى المقنع الذى بدد شكه ، وخرج من الغرفة . وبعد انفرادنا ، دنا « حبيب » منى ، وحنى قامته أمامى حتى كاد رأسه ـ المتوج بالشعر الابيض الناصع ـ يمس الارض ، وقبل طرف ردائى !

وحدث فى ليلة أخرى ، أن كنت و « حبيب » جالسين بالقرب من الفراش ، ساهرين على المريض ، واذا به يبكى فجأة ، ويتفوه بكلمات غير مفهومة ، وهو يرفع ذراعيه كأنه يستعطف كائنا يتخيله أمامه .. وفى النهاية ، استطعت أن ألتقط بعض كلمات مفردة : « اعف عنى يارب ! .. دم .. دم! .. عفوك ! عفوك ! .. سوزان ! » .. وكان هذا أول اسم لامرأة سمعته من فمه ، فالتفت متسائلة نحو حبيب وسألته: « أهذا اسم زوجته ؟ » . فأمن على سؤالى بايماءة من رأسه . ولم يسمح له الظرف بالاجابة عن سؤالى ، لان عوارض نوبات

الحمى الشديدة عاودت المريض ، فتقلصت عضلات وجهه ، وأخذت أصابعه تنتفض بحركات تشنجية ، وهو يخمش وجهه حتى خيل لى أنه سيفقأ عينيه . وبادرت الى الاستعانة بالطبيبين .. وكانت هذه الليلة هى التى أحكم فيها وثاق المسكين حتى لا يؤذى نفسه ! ..

وفى ليلة أخرى ، انتعش الامل فى صدورنا اذ هبطت درجة حرارته من ٤١ الى ٣٨ ، فانسحب الطبيبان لينامافى غرفتيهما ، بعد أن اطمأننا الى أنه حظى بنوم هادىء . وجلست فى مقعد مريح أمام فراشه أراقبه ، بعد أن ألححت على حبيب أغا حتى أرتضى أن ينال قسطا من الراحة فى غرفته هو الآخر . ومضت الدقائق والثوانى والسكون يشملنا ، وقد سيطر النعاس على أعضائى فخدرها ، وجفلت من غفونى — فجأة — على صوت المريض وهو ينادينى : « أين أنت يانور ؟ » . واذ سألته عما كان يبغى ، بدأ يهذى بكلمات مبهمة ، وهو فى غيبوبة الحمى . فأمسكت رسغه لاجس نبضه . ولكنى فوجئت بارتفاع جديد فى درجة حرارته ، فأسرعت بوضع قطعة ثلج صغيرة فى فمه . غير أنه لم يلبث أن لفظها ، وأخذ يهذى بصوت غريب ، ثم ارتسم الغضب على قسماته وهو يقول بصوت واضح : **« عدنى أن تفعل ! »** . وبالرغم من محاولتى فهم رغبته فأننى لم أتبين معانى كلماته المتقطعة غير المرتبطة .. فقد راح يقول : **« خذه من المكتب واقرأه ! .. لا تدعهم يشنقونى ! »** . وبعد مضى أيام على هذا الحادث ، قابلنى حبيب فى الردهة — وكان ينتظر خروجى من الغرفة — وقدم لى ظرفا مختوما بالشمع الاحمر ، وقال : « لقد أقسمت أن أسلمك هذا ، وها أنذا قد بررت بقسمى . من يعلم ؟ .. ربما أسف على اطلاعك على هذه الاوراق فيما بعد ، ولكنه أمرنى — وجعلنى أقسم بالله — أن أسلمك اياها .. **ولست أعرف ماتحويه ، غير أنني رأيته وهو يكتبها بنفسه ، بعد**

**اصابة عينيه .. وفى ذات يوم نادانى ، وفتحت - حسب ارشاداته - درجا خفيا فى المكتب ، وقال لى : « أنظر ، اننى أضع هذا المظروف هنا ، فقد يأتى يوم تحتاجون فيه اليه ، وعليك أن تسلمه لوالدتى عقب وفاتى مباشرة ، ان لم أحدثك بشأنه قبل ذلك ! »** .. ولكنه بعد ذلك اليوم لم يفاتحنى بشأنه ، ولم يذكره الا أمس ، اذ جعلنى أقسم على أن أسلمه اليك يدا بيد ! »

وكان هذا المظروف الكبير الابيض ، يحوى سرا طالما تحرقت فضولا لمعرفته ، وطالما ربطت كلمات سمعتها - فى فترات متباعدة - بعضها ببعض ، واستنتجت منها بعض الادلة ، وأنا أسعى بكل جهدى لاعرف سر هذه المأساة الخفية .. وها هو ذا السر بين يدى ! .. ومع ذلك ، فقد عزفت عن التعرف عليه وشبح الموت جاثم على حافة فراش صاحبه ، وجو غرفته مشبع باليأس المضنى ! .. ولهذا ظل المظروف ملقى فى أحد أدراجى ثلاثة أيام كانت حافلة بالاحزان .. وأخيرا ، أشرق فجر اليوم الرابع ومعه بصيص ضوء أحيا فينا الامل ، فبارحت غرفة المريض فى الصباح ، بعد أن سمعته يتحدث بصوت خافت ، واهن ، خلا من الهذيان .. وقد أعلن الطبيب انه اجتاز منطقة الخطر .. **ففسلت وجهى ، ورطبت شعرى بالماء البارد ، حتى أجد بعض قواى المنهوكة وأزيل أثر النعاس الذى كنت فى أمس الحاجة اليه ، وجلست أمام منضدتى ، وفتحت المظروف !**

ان من يرى هذه الاوراق ، لايتمالك ان يوقن من أن كاتبها انسان ضرير غير متمرن ، اذ أن الاسطر مائلة فى غير نظام ، والكلمات متشابكة بعضها ببعض بشكل يجعلها لاتكاد تقرأ .. ولم أستطع قراءة الصفحتين الاوليين ، بالرغم من محاولتى واصرارى . وفى الصفحة الثالثة تمكنت من قراءة الاسطر .. وحدست المعنى المقصود من الكلمات المبهمة التى لم أستطع

حل حروفها المتشابكة ، وكان سر مأساته على النحو الآتى :
**« ... هذا الشك ، كان كثعبان يسكن أعماقى .. كلما أردت سحق رأسه ، راغ منى وكمن ساكنا وهو ينفث سمه بحذر ، ليخدر أعصابى ، ريثما يلتف حولى ويشل حركتى فلا أستطيع منه فكاكا ، ثم يلدغ قلبى المسكين ويسقيه سمومه قطرة قطرة .** ولقد جفانى النوم ، فرحت أقضى الليالى جالسا فى فراشى فريسة للشك ، انصت لتنفس هذه المرأة المنتظم الهادىء ، وأراقب زفيرها بدقة ، وكأنه كفيل بأن يخبرنى بما رآه فى حنايا صدرها المغلق ! وكثيرا ما دفعنى شكى الملتهب الى أن أمسكها من كتفها ، فأهزها بقسوة حتى تستيقظ ، ثم أفاجئها بأسئلة محيرة ، لاستخلص ماتخفيه عنى من زلات لسانها ، وهى فى سكرة النعاس ! .. وكثيرا ما تركتهما معا متعمدا ، لاباغتهما فجأة ، وأنا أحاول أن أقرأ ما سطرته عاطفتاهما من انفعالات على ملامحهما .. وكانا أسيرى نظراتى أينما ذهبا ، لاتفوتنى لفتة من لفتاتهما . وكثيرا ما أولت لمحة من لمحاتهما بشىء يحز فى نفسى ! .. وكنت أراجع نفسى فى بعض الاحيان ، وأنا أؤنبها قائلا : « ما هذه الافكار الشريرة أيتها النفس ؟ .. انه أخى ! .. أخى ! لقد رضعنا من ثدى واحد ، وظللنا حنان صدر واحد ، ولا أود أن أعتقد أن يكون .. كما تظنين ! ». ولكن ثعبان الشك النائم فى أعماقى كان لا يلبث أن يستيقظ وينفث سمه الزعاف بدون رحمة قائلا : **« أنظر الى عينيه ! .. ألا ترى حقده الطبيعى لك متجسما فيهما ؟ انهما كعينى قابيل ! .. أنسيت أنه يكن لك الكراهة والبغض ، ويتحامل عليك لاتفه الاسباب ، منذ صغره ؟ .. ما أبلهك ! »**

« حتى أمى لاحظت ما اعترانى من قلق ، فقالت لى ذات يوم : « أرى أنك فى احتياج شديد لتغيير الهواء يانديم .. ألم تشتق لرحلاتك القديمة بعد ؟ » .. أفكانت هى الاخرى

تتآمر معهما على ابعادى ، حتى يخلو لهما الجو ؟ .. اواه ، ماأقسى هذا الخاطر على نفسى ! اننى أرتعد كلما مر بخاطرى!

« **ولو أن أحدا سـألنى عن اثبات شـكى ببرهان واحد ، لعجزت..لان براهينى الواهية لم تتعد الاحساسات والشعور النفسانى الذى لم أستطع لهما تفسيرا . وبعد أن ضقت ذرعا بهذه الاحساسات المتباينة ، صممت على اجلاء الحقيقة مهما كلفنى ذلك من ثمن.** فدعوت ـ ذات يوم ـ جمعا من أصدقائنا المقربين لحفلة صيد تستمر سبعة أيام فى مجـاهل الغـابة البعيدة . وخرجت قافلتنا تقصد المكان الذى عينته لها ،وقد تخلف « ناظم » عنها .. وبالرغم من أننا على طـرفى نقيض طوال سنى حياتنا ، فان تخلفه أثار أعصـابى ، لاننى كنت أتوقعه .. على أننى ما لبثت أن شعرت بالسكينة تسود نفسى المضطربة ، بعد أن رأيت خطتى تسير فى طريق النجاح .. وأهاب بى ضميرى النقى قائلا ، حين لمس اصرارى : « أيهـا المجنون ! لتكن هذه آخر تجربة لك ، فتظل بعدها ماحييت عبدا لزوجتك المظلومة ! »

«**ولم أحتمل هذه العواصف النفسية المتضاربة بين جوانحى أكثر من يومين ، ثم عدت فجأة الى المنزل بعد أن اعتـذرت لضيوفى بعذر مختلق** .. وكانت الساعة الحادية عشرة مساء حين اجتزت حـدود الضيعة ، حاملا بندقيتى على كتفى ، و « لهب » بجوارى . وكثيرا ما تعثرت قدماى فى الظلام ، لان الطريق التى سلكتها كانت مهجورة وغير ممهدة. وداعبنى ـ أثناء سيرى ـ الامل البسام فى أن أجدها نائمة كالعذارى، تحلم فى فراشها الطاهر ، فأقسمت ـ بينى وبين نفسى ـ أن لا أسىء بها الظن بعد الليلة . ورحت أتسلق الصخور وثبا والشوق اليها يستفزنى. ورأيت السكون مستتبا فى الحديقة، وكل شىء سابح فى ظلام حالك .. وتراءى لى عشنا الابيض ـ خلال الاشجار ـ وليس من ضوء ينفذ منه .. حتى المنزل

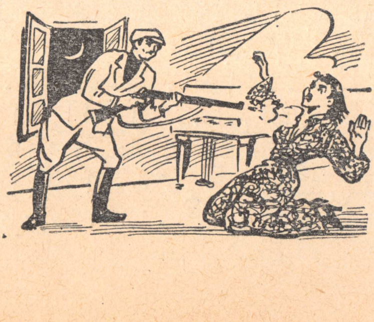
الكبير كان مظلما هو الآخر . فقلت : « حمدا لله ، ان الجميع استسلموا لسلطان الكرى! » ..

وتقدمت بسرعة وكأننى أطير من الفرح ، ولكننى لم ألبث أن رأيت ضوءا أحمر يشع من بين مصراعى نافذة صالوننا ، فارتجفت !

« وقبل اقترابى من النافذة ، سمعت نغمات « بيانو » سوزان ، وهى تختتم احدى القطع المحببة لديها ، وتفعل ما اعتادت أن تفعل دائما ، اذ مرت بظهر يدها على أصابع المعزف من أوله الى آخره ، فى سرعة جعلت له صوتا يشبه ضحكة طويلة هازئة تبعث الرهبة فى النفس ! فاقتربت من النافذة .. وكانت ستائرها مسدلة ، محكمة الاغلاق .. وبحثت عن فرجة لعلى أرى الغرفة منها .. **وفى هذه اللحظة الرهيبة طرق سمعى صوت سوزان وهى تقول : « مهما يكن حبى لك قويا ، فان زواجى بك كان مستحيلا لانك فقير .. وأنا لا أحب الفقر ! »** .

« وبعد جهد يسير ، رأيتها جالسة على مقعد المعزف المستدير ، فى غلالة رقيقة فاضحة ، وقد أسندت رأسها على صدر ناظم ، وراحت ترنو اليه وعيناها نصف مغلقتين فى اغراء ، وشفتاها تتأهبان لتلقى قبلته بينما انحنى هو ليقبلها !

« ولست أدرى ما الذى فعلته فى هذه اللحظة ، ولكنى



أتذكر فزعهما ورعبهما حين رأيانى أقفز من النافذة المحطمة، وبندقيتى مشهرة فى يدى .. أما هو فقد فر واختفى من أمام ناظرى فى لحظة خاطفة ، منطلقا بكل ما أوتى من سرعة ، لينجو بروحه السافلة المنحطة . وأما هى فكان خوفها من سلاحى المشهر أكثر من خوفها من ثورة غضبى ، فركعت أمامى على الارض تستعطفنى بذلة ومسكنة .. ورأيتها أمامى تتلوى كأنها أفعى سامة ، وقد انحسرت غلالتها عن كتفيها ، وبرز نهداها ، وتهدل شعرها .. ولا أدرى ما الذى أصابنى فى هذه اللحظة ، فقد شعرت بألم فى عينى كأنه طعنات خنجر .. ألم لا أملك أن أعبر عنه بأكثر من أنه ألم لا يوصف ، فغالبت ضعفى ، وسددت المرمى نحو رأس الافعى ، وأطلقت الرصاصة ! .. ورنت صرختها البغيضة فى أذنى وأنا أغيب عن الوجود ، وكأننى أتردى فى هوة عميقة لا قرار لها ! ..

وبعد خمسة أيام من هذه الفاجعة ، عدت الى رشدى . ويا ليتنى لم أعد أبدا ! .. لاننى عرفت أن قد قضى على بأن أعيش ضريرا ، وأن أحرم من رؤية جمال الدنيا .. وكان مما عجبت له ، أننى لم أحاكم عن هذه الجريمة .. ولكننى لم أسأل عن التفاصيل !

« واليوم وقد مضى عام طويل على هذه الفاجعة المروعة ، أجدنى عاجزا عن أن أصرف نفسى عن التفكير فى كل ما مر بى فى هذه الليلة المشئومة ، وعن أن أمحو المنظر الكريه الذى رأيته خلال فرجة الستار ، وكأنما انطبع هذا المنظر أمام ناظرى فى صورة لاتتغير ، وأكاد أجزم بأنها ستظل ثابتة أمامى طوال حياتى .. وبعد مماتى أيضا ! .. آه ، يا الهى ! لماذا حرمتنى نعمة العمى الكامل ؟ .. أين الظلام الحالك الذى يخفى هذه الصورة ؟ أين الستار الاسود الذى تمنحه كل ضرير ؟ .. أوجدت أن هذه المنحة كثيرة على بائس مثلى ؟

« هذه الذكرى — ويالها من ذكرى ! — تثير ثائرتى ، وتكاد

**تورثنى الجنون .. حتى أمى لم أعد أحتمل سماع صوتها ! .. انها مخادعة مثل الاخرى ، ولن أسمح لاى امرىء كان بان يخدعنى ، وقد تحاشيت جميع الناس وامتنعت عن مقابلتهم خوفا من أساليبهم الخادعة وأحاديثهم الكاذبة ، فلم يعد لى من أصدقاء فى الحياة غير الاطفال الاطهار . ولو قيل لى يوما ... » !**

وهنا لم أعد أستطيع قراءة كلماته ، فقد ازدادت تعقدا واختلط بعضها ببعض فى حروف يستحيل قراءتها .. كم من الوقت ظلت هذه الورقات فى يدى ، وأنا جالسة فى مكانى جامدة لا أتحرك ، وقد شرد منى خيالى .. لا أدرى ! .. ولكنى ما لبثت أن آويت الى فراشى وأناكسيرة الخاطر منه .. لماذا ؟ .. لست أدرى أيضا ! كل الذى أدريه هو أن نومى كان مضطربا فى هذه الليلة . **ورأيت فيما يرى النائم أننى أعيش فى ربوع القصة الخرافية - التى رويتها فى يوم ما تحت أشجار التيليو - وقد رحت أسير متعثرة فى دهاليز مظلمة لا نهاية لها ، أحمل فى يدى شيئا لزجا يقطر دما .. أحمل قلبى !**

وفى المساء أعدت الاوراق لحبيب أغا قائلة : « ضع هذه الاوراق مكانها يا حبيب أغا ، فهى مليئة بكتابة كالرموز ، من المستحيل استجلاؤها . وأرى أنه من المستحسن أن لاتفاتح السيد فى هذا الامر بعد شفائه ، لانه لن يتذكر ما قاله فى هذيانه ، وربما ضايقه اطلاعى على أسرار عائلية ! »

**( جبزه ) فى : ٢٠ أغسطس**

• **اليوم** رتبت الوسائد وراء ظهره ، وساعدته على الاضطجاع عليها ، وقد عاد كالطفل الصغير يقبل كل شىءدون ما معارضة ، والابتسامة الضعيفة لاتفارق ثغره .. ولقدأخذ

اليوم يسألنى بعض الاسئلة عن مرضه ، فقال : « هل أحضرتم ممرضة عندما اشتد بى المرض ؟ » . فتعمدت أن لا أجيب عن سؤاله ، لاننى لم أفهم مقصده . حتى اذا طال سكوتى عاد يقول : « اننى لا أتذكر اسمها ، ويخيل الى أنهم كانوا ينادونها بيا آنسة ! »

ـ كل ذلك من تخيلات الحمى ، لاننا لم نحضر ممرضة . انما عنى بتمريضك حبيب أغا .. وكنت أساعده !

**ـ وكيف نجوت من العدوى ولم ينتقل اليك المرض ؟**

ـ لاننى حقنت بالمصل الواقى !

**ـ لست أعتقد أن هذا المصل يقى الانسان شر المرض تماما .**

ـ ولكن ، ألا تعرف أن العصفور لايقرب الثمرة الغضة !

وكنت أرمى الى مارويته له عن قبحى لاضحكه ، ولكنه عاد يتساءل : **« ألم تشعر برهبة أو خوف ؟ »**

ـ ومم أخاف ؟ .. أمن المرض ؟

**ـ بلغنى أنك كنت تمرضنى الليالى ساهرا بجوارى ، تلبى ندائى ، وتراقب سير مرضى .. أليس هذا حقا يانور ؟**

ضحكت وأجبت قائلة : « هذا رأيهم ! »

**ـ وأنت ، ألا ترى مايرون .. انها لتضحية كريمة وعطف نبيل لا ينتظرهما المرء من كاتب يعمل لكسب معاشه .. هذه الاحساسات السامية لاينتظرها المرء الا ممن تربطه به رابطة الدم الوثيقة .. أو تكون وليدة حب صادق !**

ـ اننى لم افكر فى كل هذه المعضلات ، وانما فعلت ما أوحت به نفسى دون تفكير .

فقال ، ولعله كان يريد منى المزيد : **« وما وحى نفسك يانور ؟ .. ماذا كان شعورك وأنت تقوم بهذا العمل ؟ »**

ولبثت لحظة حائرة ، لا أجد جوابا مقنعا لسؤاله . وساءلت نفسى : « أحقا لم أكن أدرك أننى انسقت لما فعلت بقوة شعور نفسانى متسلط لا يقاوم ، وأننى قضيت الليالى ساهرة

بجواره لمجرد أن وجدانى حتم على هذا السهر ؟ » .. ثم أجبته قائلة : « لقد شعرت بأننى أسأت اليك ذات ليلة ، مما أدى الى انصرافك عنى . وكثيرا ما أنبنى ضميرى على ان عكرت صفاءك ، لذلك كنت أتحين فرصة لازيل ما علق بنفسك من جهتى . ولكن المرض اللعين كان أسبق ، فدفعتنى نفسى الى العطف عليك ، والتفانى فى تمريضك ، لعلى أمحو الاساءة وأرضى ضميرى المتألم ! .. وكثيرا ماكنت تنادينى فى هذيانك ، وأعتقد أن هذا بحكم العادة .. لذلك كنت ألازمك فى أغلب الوقت .. كل هذا ارتبط فى حلقات متسلسلة ، فأطلقتم عليه أسماء متنوعة : تضحية .. عواطف نبيلة . حب ! »

واستمع الى ، دون أن يقاطعنى ، وقد ولى الحائط وجهه . وأخيرا ، قال : « ليكن ماتقول يانور .. ولكن لى سؤالا آخر .. » . فقاطعته بسرعة قائلة : « لا ، لا .. لن أجيب عن سؤالك ، فانك قد أكثرت اليوم من الكلام ، فوق ماينبغى . ويجب الآن أن أقدم لك الدواء وأرفع الوسادات حتى تنام . »

ولم يعترض ، ولكنه كرر آخر مقطع من حديثى : « باكر أو بعد باكر .. باكر أو بعد باكر ! » . ثم لزم الصمت .

**( جبزه ) فى : ٢٢ اغسطس**

• **حضر** أستاذى برفقة الدكتور صلاح الدين بك ، وأبدى ملاحظاته الدقيقة حين رآنى ، اذ قال : « يالله ! .. لشد ما تغيرت يانوران ! .. ولكن النحول لم يفقدك شيئا من جمالك ، بل انه زاده رواء ! » . وتأمل — فى دهشة — شعرى القصير المبلل بالماء ، والمضمخ بـ « البريانتين » فى اسراف ، ليلتصق ويتماسك فلا تنهدل خصلاته وتنم عن انوثتى . وهتف حكمت بك أخيرا : « ماذا حدث حتى ضحيت بشعرك الجميل يانوران ؟ .. ألم تضطرب يدك وأنت تقصينه ؟ » . ثم تحول يعاتبني قائلا: « **ألم تشعرى بشوق يدعوك لرؤية أستاذك الكهل؟**

**..مازلت في دهشة من اعتذاراتك المتتالية ، وارجائك حضوري الى هنا لرؤيتك ، مما اضطرني - في النهاية - الى الحضور دون أن أخطرك ! »**

وأثناء تناولنا الغداء ، جلست بجواره ، ومعنا الدكتور صلاح الدين بك . فقال : « انك لم تبارحي المنزل قط منذ حضورك ، وكأنك في سجن اختياري ؟ .. لكم يدهشني أنك لم تشعري بملل هنا .. لماذا لم تحضري الى ( استامبول ) في عطلتك الرسمية ، حتى تروحي عن نفسك ؟» . فأجبت قائلة : « ولماذا أذهب الى ( استامبول ) .. لست أحبها . فلقد بكيت فيها كثيرا ! » . ثم غيرت مجرى حديثي ، اذ رأيت تغضنات الالم ترتسم على جبينه : « ثم ان من المستحيل أن أذهب وأعود في نفس اليوم .. فأين أقضي سواد ليلي ؟ »

- قول هراء ، وحجة واهية ! .. تنزلين عندي يا آنسة ، فغرفتي واسعة كما تعلمين ، ومتى وضعنا الحاجز في منتصفها انقسمت الى غرفتين ، فتنامين على سريري ، وأنام على الاريكة !

وضحكت قائلة : « هذا رأي طيب ، ومع ذلك فلا يزال لدي سبب قاهر يمنعني عن الحضور .. أنسيته ؟ » . وتطلع الى في تساؤل ، فقلت : **« أنسيت العملية الحسابية التي قمنا معا بحلها ذات يوم ، والاصفار العديدة التي صففناها عن يمين الرقم الناتج من هذه العملية ؟ .. اذا كنت قد نسيت ، فانني لم أنس ! وهل ينسى المرء امله الوحيد في الحياة ؟ .. لهذا السبب أخاف اغراء واجهات المتاجر الزجاجية لشبابي الغر ، خشية أن يزين لي الغرور شراء بعض المعروضات ، مما يخل بالعملية الحسابية ، ويؤخرني عن الوصول بأسرع وقت ممكن الى تحقيق أملي المنشود .. ! »**

وانقطع حبل الحديث بانتهاء الغداء ، فصحبت أستاذي ليتناول قهوته مع السيدة الكبيرة ، التي ارتاح الى صحبتها . ووجدناها جالسة في مكانها المعتاد من الصالون ، تراقب

« الكناريا » فى وثباتها وتغريدها الشجى . وبعد أن اشتركت فى الحديث معهما قليلا ، تركتهما ثم عدت الى غرفة المريض ، فوجدته يتحدث الى الطبيب ووجه متجه للحائط ، كأن الحديث ليس موجها لاحد . وسمعته يقول : « لقد انتهى كل شيء ، وعدت أشعر بحب الحياة ينبض فى قلبى من جديد .. أصبحت أحب الحيـــاة من كل قلبى ، ولم أعـــد أتمنى مفارقتها .. **لقد استيقظ حنينى فلست أرتضى أن أفقدها بعد صراعى الدموى مع الموت .. لقد أصبحت عزيزة لدى بعد هذا النصر المبين ، ولم أعد أراها بغيضة الى قلبى . وأعتقد أن الفضل فى كل ذلك للمرض الذى طهر بلهبه آلامى القديمة ، وقضى بنيرانه على ما كان فى خفايا أعماقى ، وترك فى داخلى فراغا صافيا يبعث الهناءة والراحة لنفسى ..** بماذا تعلل هذه الظاهرة يا دكتور ؟ .. ما أحسبك عرفت بعد مبعث راحتى وسعادتى . أتتذكر المنظر البغيض الذى يتراءى لى دائما أبدا يا دكتور ؟ .. لقد استجاب الله دعائى أخيرا ومحاه برحمته من أمام ناظرى ، فأنا الآن أرى ظلاما حالك السواد ، ولا شيء غير الظلام . وانى لاشعر براحة تامة وهدوء يخدر نفسى التى تصبو الى الهدوء .. وعقلى لا يود العودة الى الماضى ، فاذا أجبرته على تذكره ، شعرت بملل وخمول يصرفاننى عنه !

« **حقيقة أننى لا أشعر برغبة قوية فى الحياة - كما كنت قبل مأساتى - ولكننى لست المخلوق الحقود المضطرب الذى كنت بعدها ..** وأرى أن المرض الذى أفقدنى القدرة على تحريك ساعدى وساقى ، وطرحنى بدون حراك فوق فراشى ، هو الساحر العجيب الذى حد من ثورة نفسى وغل انسياقها وراء ذكرياتها ، فلم أعد أفكر فى شيء غير ميعاد حسائى ، وساعة دوائى .. أصبحت أشعر كأننى شخص مسلوب الارادة ، على استعداد تام لقبول كل ما يلقى اليه ، دون أدنى معارضة ، كالطفل الحديث السن .. وحين يقـــول لى نور : « كف عن

الحديث وحاول أن تنام ! » ، أشعر فى الحال بالنعاس يدب فى أعصابى ، فأنام ملء جفونى ! .. **ألا ليتنى أظل هكذا – نصف مخدر – فانى أحب حالتى هـــذه يا دكتور ، وأكاد أرى أن الستار الاسود المسدل على عينى أخف كثافة من ذى قبل ، والامل يداعبنى ويهمس لى بحنان ممنيا اياى بأننى لن ألبث أن أرى يوما نور الحياة الساحر مرة أخرى ! »**

وانتقلنا – بعد قليل – الى غرفة المكتب ، حتى لا نزعج راحته بحديثنا . فأشعل الطبيب لفافة ، ونظـر الى بعينين متطلعتين وهو يقول : « انه يؤمن بك ايمانا صادق يا نوران هانم ، ويثق بك ثقة كنت أعتقد أنه فقـدها الى الابد ، بعد الصدمة القاسية التى أصابته .. انه لا يعزو شفاءه للدواء والطب ، وانما يعترف بالفضـل فى نجاته لرعايتك وعطفك عليه ، **وهو يكرر لى فى كل مناسبة هذا القول : « لقد حرمه الله جمال الوجه ، ولكنه وهبه جمال الروح ! » .. ومن أجل هذه الثقة العمياء بدأت أخاف عاقبة هـــذه اللعبة يا نوران هانم ، ولا أحب أن أتصور ما يحدث اذا ما عرف أنه خدع ! »**

فأجبته قائلة : « لا تخف يا دكتور ، فانا أثق بنفسى ! »

وكنت أحدثه وأنا جالسة الى المكتب ، وأصـــابعى تعبث بورقة وجدتها أمامى ، فى انفعال بالغ ، حتى أننى لم أشـعر باقترابه منى ، الا حين مسح بيده على شعرى بحنان ، وقال بصوت يقطر رقة : **« لست أخاف عليه وحده هذه اللعبة ، بل أن هناك شخصا آخر يهمنى أمره ، وأخاف عليه يا نوران هانم ! »** .. ولا أدرى لماذا تبادرت الدموع الى عينى فى هذه اللحظة ، وانسابت على وجنتى متتابعة . وعبثا حاولت تمالك نفسى ، وأنا أشد ما أكون حنقا على هذه الدموع التى لم يكن لانسكابها مبرر !

وفى هذه اللحظة ، سمعت نداء ضعيفا ، ينبعث فى صبر نافد : « أين أنت يا نور ؟ » .. ولم أتمالك شعورى ، فقفزت

دفعة واحدة من مكانى ، فى اسراع ولهفة ظاهرة . فنظر الطبيب الى حركتى هذه ، وهز رأسه ، ولسان حاله يقول : « ليتك تكونين على صواب ! »

ورأيته يبتسم فى اشفاق ، وأنا أعدو نحو غرفة المريض !

**( جبزه ) فى : ٢٥ اغسطس**

**• حمدا** لله ، فلقد سافر أستاذى اليوم بصحبة الطبيب الذى انفرد ـ قبل رحيله ـ بمريضى ساعات طويلة .. ان الشمس مشرقة اليوم ، والدنيا باسمة بعد أن ظلت عابسة ثلاثة أيام . وبعد أن فتحت مصراعى النافذة ، قلت لمريضى الجالس فى فراشه : « أنظر ! .. ها هى ذى الشمس مشرقة لم يقتلها أحد ! .. انك كثيرا ما تساءلت عن سر اختفائها فى هذيان مرضك ! » . **ففتح جفنيه ، ونظر فى اتجاه النافذة .. وكانت يداه فوق غطائه الابيض ، تبدوان نحيلتين صفراوين .. وكان رأسه ذو الشعر المجعد، وقسماته النحيلة الدقيقة ، وبشرته الرقيقة الصافية ، ولحيته الخفيفة .. كل هذه كانت توحى الى ـ وأنا أنظر اليه ـ بأنه انسان طاهر الروح ، لم يأثم فى حياته !**

وحرك طاقتى أنفه قائلا : « نور ! .. لقد اشتقت لعبير الزهور ! » . وسرحت نظرى فى الحديقة ، فوقع على وردة جميلة تزهو بفتنتها وشبابها تحت أشعة الشمس الساطعة . وقلت : « لم أجرؤ على اقتطاف زهرة ما ، منذ حادث الليلا! »

**ـ الليلا ؟!.. لقد تصافيت معها أيضا .. وعاد حبى لها !**

واقتطفت له الوردة ، فأمسكها وأخذ يستنشق عبيرها بقوة ، حتى اعتراها الذبول بسرعة . وسألنى بعد قليل : « ما لون هذه الوردة يا نور ؟ » . واذ قلت : « حمراء قانية كالدم » ، تساءل بصوت غريب : **« أهى بلون الدم ؟ .. »**

ولم يتحدث بكلمة واحدة بعد ذلك ، بل لاذ بالصمت الى

أن انقضى النهار وولى . ولاول مرة بعد مرضه ، لم يقبل على حسائه بشهية ، ولم يمازحنى وأنا أناوله الحساء — رشفة اثر رشفة بالملعقة — كالاطفال ، بل كان يبدو حزينا مهموما !

وفى الساعة التاسعة مساء ، استدعتنى السيدة الكبيرة ..

ووجدتها مستلقية فى مقعدها الطويل ، ونظرها عالق بسقف الغرفة . ولعلها كانت تفكر .. واعتدلت حين شعرت بدخولى ، ودعتنى الى الجلوس بجوارها ، ونظرت الى وجهى طويلا وهى تقول : « منذ أيام وأنا أريد محادثتك يا نوران ، دون أن أجد فرصة مواتية . ولكن صبرى فرغ الليلة ، وصممت على الحديث اليك ، فانتظرتك بالرغم من حلول ميعاد نومى .. لقد أطلعنى حبيب على ما حدث ، وكان جم التأثر ، مؤنب الضمير لاعتقاده أنه أتى أمرا أدا .. أبلغنى أنك قرأت مذكرات ابنى ، التى أعتقد أنه كتبها وهو ضرير . وأنا أحدس ما جاء فيها ، على ضوء الحوادث التى أعرفها لاننى لم أطلع عليها .. ولا أريد الاطلاع عليها . **أنه يعترف فيها بأنه قاتل .. بعد أن شاهد خيانة زوجته بنفسه ، أليس كذلك يا نوران ؟ »**

وأومأت لها برأسى أن نعم ، دون أن أرفع نظرى عن الارض فقالت : « ألم تجدى فى هذا الاعتراف ما أثار دهشتك ؟ » .

فقلت : « لست أفهم .. مثل ماذا ياسيدتى ؟ »

**— ألا تتساءلين الآن ، فى قرارة نفسك ، عن نوع هؤلاء القوم .. ابنهم الكبير قاتل ، وابنهم الصغير قاتل .. ألا تشعرين بالندم لاقامتك بينهم ؟**

فنظرت الى وجهها ولم أجبها . فعادت تتابع حديثها وعيناها مغرورقتان بالعبرات : « ألا حدثينى عما كتبه ابنى عن هذه الجناية الوهمية يا نوران ؟ »

ولم ألق بالا لقولها « الوهمية » فى هذه اللحظة .. واوجزت لها ما قرأت فى الاوراق . وبالرغم من أننى تحاشيت النظر الى وجهها ، فانى كنت أشعر بأنها تبكى فى صمت ، حتى اذا

ختمت حديثى ، سألتنى قائلة : « وهل صدقت هذه الرواية ؟ »

**ـ حاولت كثيرا ألا أصدق اعترافه ، لاننى لا أود أن يكون نديم بك ملوث اليدين بالدم مهما يكن الدافع قويا . ولكن .. !**

ـ ولكن .. ماذا ؟

ولذت بالصمت خوفا من أن أضاعف جراح قلب أم قست عليها الاقدار بدون رحمة . فلما طال صمتى ، عادت تقول : « ان الحقيقة ليست كما اعترف بها نديم ، وقرأتها أنت فى أوراقه يا نوران ! .. انصتى الى جيدا ، لانى سأقصها عليك الان . ألا تتذكرين أننى أخبرتك فى سياق حديثى الاول معك ، أننى فقدت ابنى الاكبر بسبب امرأة ؟ .. وأن ابنى الصغير فقد نور عينيه بسبب امرأة ؟ .. **لقد كانت المرأة واحدة فى الفاجعتين ! أحبها الاثنان ، وهى ـ فى الحقيقة ـ لم تعشق أيا منهما ، بل كانت أنانية ، جشعة ، متهتكة ، ترى سعادتها فى بريق الجواهر اللامعة وتتركز آمالها فى المظاهر الخادعة . وكانت ماهرة فى دهائها .. حتى أنا وقعت فى حبائلها بسهولة ، وأغرتنى بقناع الطهارة والعفاف الذى كانت تقنع به نفسها أمامى ! ..** وكما قرأت فى الاوراق ، اكتشف نديم خبايا نفسها الدنسة ، وشعر بخسة شعورها .. وجرت الحوادث ـ كما وصفها تماما ـ فى تلك الليلة المشئومة ، غير أنه حين أطلق سلاحه لم يزهق الطلق أنفاس الافعى السامة وقضى عليها كما اعتقد . **بل أنه أخطأها ، لانه فى هذه اللحظة أصيب فى عينيه من هول الصدمة ، وأغمى عليه ، فانتهزت المجرمة السافلة هذه الفرصة ، وقفزت من النافذة ! ..** وقضت هذه المناسبة القاسية على طفلى الحبيب بأن يعيش بقية حياته فى ظلام حالك ، تسوده اضطرابات نفسية وعذاب أليم لا يوصف .. »

واستطردت قائلة : « أما هى ، فقد عاشرت ناظم أربعة أشهر ، ثم عرفت أنه أنفق كل ما كان معه ، فهربت ـ ذات

ليلة – مع شاب نرى أوقعته فى شباكها . **ولكن (( ناظم )) لم يفقد أثرها ، ونجح فيما فشل فيه (( نديم )) ، فسحق رأس الافعى التى سممت حياتنا وهدمت سعادتنا المنزلية وتركت دارنا بعد رحيلها كقبر مهجور مظلم .. وانتحر ناظم فى سجنه ، دون أن يكشف عن حقيقته ، ابقاء على كرامة الاسرة .. وبهذا كفر عن اساءته لاخيه ! ))**

روت السيدة ما حدث دون أن تذكر محنتها بكلمة . وكانت دموعها تتساقط متتابعة ، دون ما نشيج أو شهيق .. لم تذكر آلامها وأشجانها ألتى عجز عن حملهما كيانها الضعيف فأصيبت بالعلل والامراض . وكانت دموعها ما زالت تسيل ، وهى تبكى هناءتها المفقودة ، وتخفف عن قلبها الجريح بعض أشجانه . وكانت دموعى – أنا الاخرى – تسيل ، فأشعر لانهمارها بسعادة وراحة تمسان شغاف قلبى . **فلقد أسعدنى حقا أن يديه لم تضرجا بدم ما !**

وسادنا الصمت مدة ، شغل كل منا خلالها بخواطره . ثم خلعت السيدة عن أصبعها خاتما ثمينا ذا لؤلؤة سوداء ، وقدمته لى قائلة : « لقد أنقذت نديما ، وكنت له ملاكا حارسا يا نوران ، وأضأت حياته بقبس من أمل لم يكن مرتقبا – اذ طوته الايام فى طياتها وأذوته الزوابع منذ وقت طويل – وأضفيت على روحه المهتاجة هدوءا وسكينة .. **وهذا دين باهظ لا يقدر ، ولا يستطيع مخلوق سداده .. فلا يخطرن ببالك أننى أقدم لك هذا الخاتم سدادا لبعض دينك ، وانما هو ليذكرك بآلام العجوز التى تدعو لك من كل قلبها بالسعادة والهناء ، أينما تكونين ! ))**

وجفانى المنام فى هذه الليلة ، ورحت أتقلب فى فراشى ، وأفكارى تتدافع مضطربة فى غير ارتباط .. وفى الصباح ، وقفت أمشط شعرى القصير أمام المرآة . وكان منظر الخاتم النسائى فى يدى غريبا جدا ، لا يتلاءم مع هيئتى الجديدة ،

فخلعته من يدى وأنا متأففة من خلعه ، والقيت به فى قاع حقيبتى الخاصة ، وأنا اقول له : « اغمض عينك السوداء ، ونم هنا فى هناء ودعة ، الى أن تعود اليك نوران ! »

**( جبزه ) فى : ٢٦ أغسطس**

• **كنت** أتصفح الصحف بعد انتهاء عملى ـ كعادتى كل مساء ـ فلفت نظرى اعلان فى صحيفة منها ، وقد جاء فيه : **« مستعدون لشراء لوحات المصور الشهير أحمد فريدون بك ، بأى ثمن .. راسلوا صندوق البريد رقم ٢٢٠ »**

وفكرت كثيرا فيمن يكون هذا الشخص الكريم الذى يعجب ويهتم بفن أبى الى هذه الدرجة . وخطر لى أن أكتب اليه أستوضحه عن شخصيته ، ولكنى عدلت .. غير أن هذا الاعلان الصغير أعادنى الى عالمى الحبيب ، فحشت فيه بكل جوارحى ، وتتابعت ذكريات طفولتى السعيدة بكل وقائعها ، يدفع بعضها بعضا .. الى أن تراءى أمام ناظرى أتعس يوم فى حياتى ، وتمثل لى أشخاص يتزاحمون حول لوحات زيتية ، بين معجب وناقد ومستخف يبدى عدم اهتمام بالفن .. ورنين ناقوس السمسار يدق باستمرار ، فأشعر بدقاته المتتابعة كأنها طعنات خنجر يمزق أحشائى .. آه ! ما أقسى هذا اليوم وما أمر ذكراه ! .. **لقد حركت هذه الذكرى حنينى ، والهبت جوانحى بشوق لا يقاوم الى تقبيل الثرى الاسود الذى ضم رفات أبى المحبوب ، والى ارتياد الربى الزمردية والدروب التى لم أتنسم جوها المنعش منذ أشهر !**

ولم تهدأ نفسى الا بعد أن صممت على السفر فى الصباح

**( جبزه ) فى : ٢٧ أغسطس**

• **أيقظنى** هياج العاصفة من نومى قبل موعد استيقاظى المعتاد . وكان يصحبها قصف الرعد ووميض البرق الخاطف

فى قبة السماء القاتمة . وخيل الى أن قلبى صار من عناصر الطبيعة الهائجة ، فهو يضطرب بشدة ويريد الهرب من مكانه الضيق . وصعدت الى الطابق الاعلى لاطل على البحر، وبنفسى لهفة تستحثنى . وخبا أملى الضعيف ، حين رأيت البحر متضامنا فى ثورته العاصفة مع الجو ، وتبينت أستحالة سفرى

وقلت لمريضى وأنا أناوله كوب اللبن : « لولا شدة العاصفة ، وهياج البحر ، لسافرت الى المدينة هذا الصباح » . فتساءل: « وما الداعى لسفرك ؟ » . وضايقنى سؤاله بالرغم من بساطته .. وأنا أعزو احساسى هذا لما كنت أشعر به من ضيق وشجن ، من جراء ذكريات ليلة أمس المؤلمة . لذلك أجبته بجفاء قائلة : « ألم أنل بعد الحق فى أجازة ، وأنا لم أبارح المنزل منذ أربعة أشهر ؟ »

**وأجاب بلهجة مست أعماق قلبى وجرحته : « أجازة ؟ .. حق ؟ ! ما هذه الاقوال يا نور ؟ .. لك أن ترحل وأن تمكث المدة التى تراها كافية لراحتك . لماذا ترجىء سفرك خوفا من هياج البحر ؟ ان قطار السكة الحديدية لا يتأثر بعوامل الطبيعة .. وسيرافقك « حبيب » ، لانه هو الآخر عازم على السفر اليوم ! » . ثم أردف بصوت خافت : « معك حق ، فان المدة طويلة ، ورفقة المرضى مملة مقبضة للنفس ! »**

فأجبته وكأننى لم أسمع كلماته الاخيرة : « ما دام حبيب مسافرا ، فاننى لن أسافر ، حتى لا تظل وحيدا ! »

ـ ان مهمة حبيب ليست بذات شأن ، من الممكن ارجاؤها .. فقد كان على موعد مع الدكتور صلاح .. وهذا غاية ما فى الامر !

فلم أنبس بكلمة . . كما أنه عزف عن شرب اللبن ولم يقربه! .. وسادنا الصمت . وبعد قليل ، شعرت بالخجل يغمرنى من سلوكى الفظ الذى لا مبرر له . وما أن حضر حبيب أغا وهو بلباس السفر ، وبدأ السيد يلقى اليه بتعليمات بشأن

سفرى ، حتى قاطعته قائلة : « اننى لن ابرح المنزل بأية حال، لان سفرى لا يثمر الثمرة المرجوة فى هذا الجو العاصف ! » .. وجلست وراء النافذة اراقب تقلبات الجو . وساءنى أن أرى الكهل يبارح المرسى فى زورق بحرى وسط هذه العاصفة الهوجاء ، فقلت له بصوت المعاتب : « لماذا تركت المسكين يرحل فى هذا الجو ، دون مراعاة لتقدم سنه وضعفه ، من أجل مهمة من المستطاع ارجاؤها ! »

فقال : « هو الذى لم يقبل بالرغم من رجائى ، وأصر على الرحيل ليسعد انسانا يحبه ! » .. ثم ابتسم

وبعد انتهاء الغداء ، كانت حالته غير طبيعية ، فقد توردت وجنتاه الشاحبتان ، من جراء ارتفاع طارىء فى حرارته ، نجم — بدون شك — عن قلقه وانفعاله النفسانى ، اذ لاحظت انه يسأل عن الوقت فى كل ربع ساعة تقريبا . وصرفته حالته عن نوم القيلولة ، ففكرت فى شىء يصرف عنه خواطره ، فقلت له : « الم تشتق الى عمر الصغير « ولهب » ؟ .. لقد حرمنا عليهما دخول غرفتك منذ أول يوم لمرضك ، فهل أناديهما ليبددا سأمك ! »

وسره جدا هذا الاقتراح . وان هى الا لحظة وجيزة ،حتى كان يداعب رأس « لهب » الكبير ويدلله ، والكلب يلعق يديه ويهمهم بأصوات غريبة ، ثم أقبل عمر ، فوقف عند الباب مرتبكا . ولعل الفرح غمر قلبه الصغير فأربكه ! ثم عدا نحو الفراش مسرعا وانكفأ على اليد النحيلة الصفراء يقبلها فى شوق . وتقاسم عمر ولهب عطفه كل بدوره ، وراحا يتدافعان للفوز بقربه . ولم يمض طويل وقت حتى انحلت عقدة لسان الصغير ، وثرثر فى حديث مستحب كتغريد البلابل، فروى لنا حوادثه مع أصدقاء غابته ، وقص علينا كل ما جد فى الضيعة المهملة ، وقال فى النهاية متسائلا : « متى تغادر فراشك يا سيدى ؟ .. اننى أود أن تقطف العنب الاسود اللذيذ بيدك

**قبل جفافه . ولو عرفت أن كل شىء ازداد جمالا منذ احتجابك ، لاسرعت بالخروج ! »**

وكنت سعيدة مغتبطة باستماعى لثرثرة الصغير .. ورأيت المريض يرفع رأسه ، ويلتفت هنا وهناك كأنه يبحث عنى ، ثم قال : « أأنت هنا يا نور ؟ .. ألا ترحب بصحبة عمر فى يوم صحو جميل ، تذهبان فيه الى الغابة وتقطفان لى زهورها البرية ذات الرائحة الذكية ؟ » . وانتظر جوابى لحظة ، فلما لم يتلقه ، عاد يقول : « لماذا لا ترحب بالخروج يا بنى ؟ .. لقد كاد الصيف يولى وأنت حبيس المنزل ، ألم تشعر بالملل من هذا السجن ؟ لماذا لا تجيب ؟ »

وسرحت نظرى عبر الحديقة ، فرأيت الوهن والضعف قد دبا فى فروع الاشجار المورقة ، والاصفرار قد سرى فى وريقاتها الخضراء ، فتمتمت قائلة : « حقا لم ألاحظ قبل الآن أن الصيف ولى ! »

* * *

**انسحبت** عقب العشاء ، لاننى كنت أشعر باحتياج شديد للوحدة . وسرت فى الردهة المظلمة وراسى مصدع ، كأن بداخله أزميلا يدق دقات منتظمة . ورأيت ضوءا يشع من عقب باب غرفتى ، فعجبت من هذه العناية المتأخرة ، اذ اعتدت أن أجدها كل ليلة سابحة فى ظلام دامس . وفتحت باب غرفتى وأسرعت الخطى ، فرأيت على طرفى المنضدة شمعدانين فضيين ، يرسلان بضوئهما المهتز خيالات لطيفة على جوانب الغرفة . وفى نظرة خاطفة علق نظرى بكل شىء جد فى الغرفة ، فتقدمت ببطء — وقلبى يضطرب بشدة — نحو اللوحة المعلقة أمام فراشى ، لاتبين فيها احدى لوحات أبى الثمينة المحببة الى .. لوحة هذه السيدة الباهرة الجمال ، الجانسة فى سكون تجدل اكليلا من زهر « الليلا » الابيض ، لتزين به جبين طفلتها المنتظرة فى شوق ظاهر .. **اننى أحمل**

لهذه السيدة الكريمـة أجمل العواطف ، وكلما مرت ذكراها بخيالى تنهمر دموعى حارة .. فقد جعلت من هذه الصورة ـ ابان طفولتى ـ طيف أمى التى لم أرها .. وهذا سر اعزازى لهذه اللوحة وتفضيلى لها عن جميع آثار أبى . فأية معجزة احضرت هذه اللوحة الحبيبة لتؤنس وحدتى ، بعد أن رأيت الايدى الغريبة تتلقفها بين هرج الغوغاء وناقوس السمسار ؟ .. معجزة حقا أن أجدها هنا ، بعد أن فقدت الامل فى رؤيتها !

ولا أدرى كم من الوقت مضى على وأنا أطيل النظر اليها فى شوق وحب ، وقد جمدت فى مكانى ، وكأننى طفلة تتطلع فى سكون الى أمها ، الى أن أسدلت عبراتى ستارا بينى وبينها ، وأغرقت وجنتى بفيضـها الغزير .. وببطء شـديد حولت نظراتى ، فاذا بها تقع على خيالى فى المرآة .. وأطلت اليه النظر لحظة ، متأملة زيه الرجالى . ثم لمحت لفة كبيرة تتوسط الشمعدانين ، فأسرعت أفضها .. ولفرط سرورى بما حوت ، ركد تفكيرى فلم أعد أدرى بماذا أفكر .. فقد كانت تحتوى على كتب قيمة !.. ترى أية عصا سحرية أنالتنى كل ماأحب مرة واحدة ؟ ! .. وأخذت أرتب الكتب على فراشى ، وانا أقرأ أسماءها فى حنان ، وأعجب بغلافاتها الفاخرة .. كانت بينها سيرة «ميشيل أنج» و «رفائيل» ـ بلغة فرنسية راقية ـ وكتب عن الفن ، كتبت بأسلوب فنى دقيق ، واشتملت على نماذج للوحات الخالدة العالمية ، مع شرح وايضاح لكل دقائقها .. وكنت حيرى مذهولة أمام كل هذا الغذاء الروحى ، كجوعان وضعت أمامه فجأة مائدة عليها أشهى الاطعمة وألذ الفاكهة !

وعرفت صاحب العصا السحرية الماهر الذى نجح فى ادخال السرور على نفسى الحزينة ، فلم أنتظر الصباح لاعبر له عن مدى شكرى وامتنانى ، بل جرفنى الجذل ، فعـدوت الى غرفته كطفل صغير أطاش صوابه الفرح بيوم العيد ! وبالرغم من أننى فتحت الباب بشدة ودخلت مندفعة ، فان كلماتى



**انحبست بين شفتى ، وأصبت بعى أفقدنى التعبير عما أكنه نحوه ، فلم أستطع التفوه بأكثر من : (( لقد عدت ! )) ..** وانسحب حبيب من الغرفة كهبة النسيم والابتسامة تزين وجهه ، بينما قال مريضى : « عسى الا تكون آسفا على تخلفك اليوم يا نور !»

هذا التساؤل المعاتب أطلق لسانى من عقاله ، فاستعاد فصاحته . وابنت له عمق الشجن الذى غمر نفسى بعد قراءتى اعلانه فى الصحيفة - بطلب لوحات أبى - ويقظة حنينى الفياض ، الذى جعلنى أضيق ذرعا بكل أحاسيس وجدانى المختلفة المتباينة . وحدثته عن ذكريات طفولتى العزيزة ، وسر حبى للسيدة جادلة اكليل « الليلا » البيضاء .. وانصت صامتا ، وأنا موقنة من أنه كان يدرك - باحساسه - ما خفى فى جوانحى مستكنا ، ولم أتفوه به . وظلت الابتسامة مشرقة لم تفارق ثغره ، الى أن أنهيت حديثى قائلة : « ولكنى لن أستمتع وحدى بقراءة هذه الكتب القيمة ! .. فهل تسمح بأن اقرأها عليك ؟ » . فأومأ برأسه ، ووجهه مشرق بالرضى !

**( جبزه ) فى : ٤ سبتمبر**

• **الجو** صحو ، والنسيم عليل ، وكأنى بالربيع قد آب ثانية . ولقد ساعد اعتدال الجو مريضى على المضى فى استرداد صحته ، وامر له الطبيب - منذ يومين - بالغذاء الكامل .

وهو يقضى الآن وقته مضطجعا فى المقعد الطويل امام النافذة ، وعليه غطاء بنى من وبر الجمل .

وقال لى هذا الصباح ، اذ شعر بدخولى الى الغرفة : « انظر يا نور ! .. اننى أنشط منك ! » . حتى اذا شرب كوب اللبن والدواء من يدى ــ كالمعتاد ــ انصرف « حسب » حاملا « الصينية » ، فجلست أمامه .. وكان ينتظر فى هدوء واستسلام كانسان فرغت رغباته ، وقنع بما قدر له ، وأصبحت أعماقه ساكنة قاحلة ، لا تسودها رغبات ، وليس فيها سوى هدوء شامل . وفتحت الكتاب ــ كعادتى كل صباح ــ وأخذت أقرأ له ، وهو يستمع فى صمت .. أحيانا ، ويناقشنى ــ فى أحيان أخرى ــ فى الفكرة ، ويخطىء الكاتب كما فعل هذا الصباح ، اذ قال : « ان ما ذكره لا يمثل الحقيقة يا نور .. لقد وصف « أوسكار وايلد » الاضطراب النفسى وصفا دقيقا يمثل الواقع ، اذ قال عنه انه شىء طويل ممتد لا نهاية له ولا لون ، ولا يرتبط بالفصول والسنين ، ولا تؤثر عليه بهجة الربيع وجماله الفاتن ، ولا يستطيع الصيف أن يغريه بزهوره البديعة وفاكهته اللذيذة ، ولا يشعر بالخريف فى حله وترحاله .. حتى برد الشتاء القارص وبرده الناصع البياض لا يفيقه من ذهوله عن العالم ! .. **انه دائما أسير ذبذبته ، لا يشعر بمرور وقت ، ولا يقدر مضى زمن .. أنه يلف ، ويلف حول نقطة اضطرابه ، ويصل ليبدأ من جديد ، كما تفعل الفراشة التى يلقى بها سوء طالعها نحو ضوء المصباح ، فتحوم حوله الى أن تحترق بلهبه .. ان موسمه واحد لا يتغير ، واسمه واحد لا يتغير : « الاضطراب » .. والويل لمن يقع فى أسره !** .. أليست هذه حقيقة يا نور ؟ .. كذلك احاسيس النفس ماهى الا وليدة رغبات وهمية .. انعم النظر الى بدء حياة الانسان يا نور ، تجد أنها تبتدىء بصرخة وتنتهى بأنين ! »

فأجبت ضاحكة ، وأنا أحاول أن أرفه عنه : « لماذا تحكم على الحياة هذا الحكم الجائر ، وتقدر بدءها ونهايتها فقط ؟ .. اننى أعتقد أن الحياة الحقيقيــة هى ما مر بين هذين العهدين ، فلماذا نقضى حياتنا القصــيرة هذه فى اضطراب وأنين ؟ » . فهز رأسه موافقا . ولكن الابتسامة الغريبة التى لاحت على قسمات وجهه ، عبرت لى عن معنى صــمته ، فأدركت أنه صمت الذى لا يود أن يقضى على خيالى المتفائل !

**( جبزه ) فى : ١٠ سبتمبر**

• **دخلت** غرفته اليوم ، وكان الوقت ظهرا ، فقال لى : « لماذا خرجت بمفردك يا نور ، فلم تصطحب عمرا ؟ .. ألم ترهب الســير بمفردك فى دروب الغابة ؟ » . **فسألته فى دهشة : « ومن أدراك أننى آت من الغابة ؟ » . فأجاب وهو يحرك رافتى أنفه : « لقد تنسمت عبيرها ! »**
ثم قال وهو يداعب الزهور البرية التى وضعتها بين يديه : « حدثنى بما رأيت ؟ » . وقبل أن أتكلم هتف : « كلا ، كلا .. أرجىء هــذا الوصف الجميل ، الى أن أستطيع الوقوف وسط أجوائه ، فلست أطيق سماع وصف جمــال الطبيعة وأنا حبيس أربعة جدران ! .. هذا مؤلم ! »

**( جبزه ) فى : ١٧ سبتمبر**

• **منذ** أسبوع وأنا أنتهز كل فرصــة للخروج . وكثيرا ما أمر بمنزل عمر فأصطحبه . وقبل اقترابى من المنزل ، يسمع الكلبان وقع خطواتى فينبحان سرورا ، ويرقبان الطريق لاستقبالى ، وخلفهما عمر الصغير . وبعد أن أزور الجــدة العجوز ، أمضى بصحبة عمر المسلية ، فنقضى الضحى فى تسلق التلال الوعرة بمهارة ، كالعنز الجبلى .. **ونشق طريقنا**

بين الاحراش ، تمزق ايدينا الاشواك دون أن نبالى .. وافادتنى رفقة عمر فائدة كبرى ، اذ ألممت بمخابىء الغابة ودروبها .. كشف لى عمر عن أسرار غابته ولم يضن على بشىء يعرفه عنها .. وكان فخورا مزهوا وهو يرى حيرتى مرتسمة جلية على وجهى ، ازاء جمال الطبيعة البديع ! .. وعلمنى التمييز بين الفواكه اللذيذة بمجرد النظر ، دون لمسها . وبعد عودتى ، كنت أجد مريضى يسير بحذر فى غرفته ، فأزف اليه هذه البشرى قائلة : « لقد علمنى عمر أسرار جنته ، ولم يعد هناك ما يخيفك من صحبتى .. فاسرع باسترداد قواك ! »

### ( جبزه ) فى : ٢٧ سبتمبر

• منذ أيام وحبيب أغا يساعده على السير فى الحديقة ، ويقوده الى المكان الذى أكون قد هيأته لجلوسنا من قبل ، حيث يستمع لما أقرأه عليه والبشر يكسو محياه .. وفى هذا الصباح فاجأنى بقوله : « أشعر يا نور بأننى عدت الى حالى الطبيعية ، وأصبحت ساقاى تحتملان مجاراة خطواتك ، فهيا بنا نخرج الى الغابة ، لترينى ما أحن شوقا اليه ! »

ولكن قوة المسكين خدعته ، وسرعان ما فطنت الى نضوب طاقته اذ ارتكن على جذع شجرة ليستريح ، وراح يجاهد لاخفاء تعبه .. ولم نكن جاوزنا حدود الحديقة بمسيرة عشر دقائق ! .. وكان لزاما على أن أخدعه أنا الاخرى ، حتى لا يمعن فى انهاك قواه الهزيلة . لذلك قلت له : « لقد أشرفنا على أجمل بقعة فى العالم ، فهيا معى ، ولنجلس تحت ظل أشجارها ! »

وابتعدنا عن الطريق العام وأوراق الشجر المتساقط تخشخش تحت أقدامنا ، الى أن أجلسته تحت شجرة حور باسقة ، مورقة الاغصان .. وكان هذا المكان موحشا مقبضا ، فلم أجد شيئا يستحق الوصف . لذلك أغمضت عينى ،

وتخيلت الاماكن التى زرتها فى بحر هذا الاسبوع ، واسهبت فى وصف الجمال الربيعى الذى بعثته حرارة الشمس المسرية فى كل الكائنات ، بعد طول احتجابها وعبوسها . ولم أتوان فى نقل أجمل البقع الطبيعية التى يعجز خيال الانسان عن تصورها ، والتى لم يتمكن مريضى العزيز من الوصول اليها لشده هزاله . وأحطته — من جميع الجهات القاحله المحيطة بنا — بسياج رائع أبدع خيالى فى تلوينه ، وصورته له بصور تبعث البهجه فى النفس ، وحلقت به فى أجواء الخيال الحالم ! .. وكان منتشيا من الوصف ، وقد مضى متتبعا خيالى وسط طريق صفت على جانبيه أشجار الكستناء الباسقة ، وقد نبتت حول جذوعها الضخمة شجيرات الورد — آخذة لنفسها شكل أحواض مختلفة الالوان — والياسمين الأبيض العاطر يتسلق بعض جذوعها ، والقرنفل المزدهر فوق عيدانه المهمله ، والزنبق الابيض قد صفا لونه وتضوع شذاه ..

ولقد خبرت — منذ حداثتى — ميلا غريبا ، كان يدفعنى الى اغفال أرشادات أبى القيمة — فيما يتعلق بالالوان — وأنا فى بدء دراستى للرسم . وكنت أنساق لاغراء هذا الحس القوى بالرغم من أوامر أبى ، وأبتكر زهورا شاذة لا وجود لها . وكانت ألوانى أكثر شذوذا ، كأن أعطى الورد لونا بنفسجيا .. و (( الليلا )) لونا أحمر .. والياسمين لونا أخضر ! .. وكانت أحب ساعاتى لدى هى التى أمضيها فى خرق قانون الطبيعة بلا مبالاة للعرف المتبع ، وفقا لهواى !

وعاودنى هذا الشعور وأنا مغمضة العينين ، أصف للضرير الجالس بجوارى جنته . وبدون وعى منى ، انسقت لاغرائه القوى ، ورحت أصف الالوان المعقولة وغير المعقولة ، وأصور الطبيعة — نباتها وحيوانها وطيورها وصخورها — فى ألوان زاهية مرحة . وبالرغم من شذوذ وصفى ، فان نبرات صوتى كانت صادقة قوية مقنعة ، حتى أننى رحت أتلفت حولى — حين

فتحت عينى ـ غير مصدقة مطابقة ما رأيت للواقع .. أما هو ، فكان يستمع لى فى وجد أنساه نفسه ، حتى أيقظه صمتى من أحلامه ، وقال فى أثناء عودتنا الى المنزل : « ما أمهرك يانور فى رفع الانسان الى دنيا الاوهام ! .. لقد سبحت بخيالى فى جو حالم ، لاول مرة منذ أمد بعيد ! »

**( جبزه ) فى : ٣٠ سبتمبر**

• **استيقظت** هذا الصباح وكلى لوعة وحنين الى «نوران»، فاستجبت لحنينى ، وألقيت ثياب « نور » من يدى ـ اذ كنت أهم بارتدائها ـ وفتحت صوانى ، فانتقيت ثوبى الريفى ، رفيق هنائى ومرحى فى حديقة عشنا الجميل المحاط بخمائل « الليلا » الحبيبة .. وكان نسيجه مشجرا بالورد الاحمر ، وكل وردة لها ساق خضراء مورقة ، كأنها ما زالت على عودها تزهو بنضارتها .. أما صدره ، فكان محلى بشرائط مخملية سوداء ، أستطيع بزمها جعل الثوب لصق صدرى بالقدر الذى اريده . وبعد أن ارتديته ، انتعلت حذائى ، ورجلت شعرى محاولة أن أعيد له سيرته الاولى .. وبدون وعى منى ، نظرت الى الصورة الجميلة المعلقة، وقارنت بين صاحبتها وبين نفسى ..

**واكتشفت ـ لاول مرة ـ شبها كبيرا بيننا :** تجاعيد شعرها الاسود الاملس ، وشفتاها الغليظتان نوعا ما ، وحاجباها الكثيفان المنسحبان فى تقوس بديع ، وأهدابها الطويلة المنثنية الاطراف .. **هذه القسمات المتشابهة أفصحت عما بين صورتينا من شبه كبير . غير أننى لم أوت جمال البشرة الشفاف الوردى ، الذى منحه الله هذه السيدة جدلة أكيل « الليلا » . كما أننى لم أحظ بفتنة طابع الحسن الذى توسط ذقنها ، اذ انحرف طابع الحسن عندى عن الوسط قليلا ، ففقد فتنته !**

وبالرغم مما وجدته ولمسته من الشبه بيننا ، فاننى حين رددت بصرى الى المرآة ، بحثت عبثا من روعة الجمال الفاتن والجلال العلوى الآسر — اللذين اتسمت بهما الصورة — فلم أجدهما فى صورة وجهى ! .. ولا أنكر أن لنثرات فرشاة المصور وألوانه الهادئة الحالمة تأثيرا ، لانه أضفى عليها شبه غمام سماوى خفيف ، وكأنها طيف يتراءى من بين السحب .. من عالم الخلود ! .. ان جمالها يستحوذ على النفس ويسبح بها فى جو حالم ، بعيد عن الواقع .. وعيناها الناعستان ، وأهدابها الطويلة السوداء المسبلة ، تزيد هذ الحسن مفعولا .. فأين أنا من كل هذا الجمال الساحر ؟ !

وفقدت فجأة رغبتى فى ثياب الانوثة .. وضجرت من شوقى الذى كان يحرضنى على السير بها بين الاشجار ، والهواء يداعب ذيل ثوبى الرحب ويعبث بشعرى القصير ، وأنا أثب فوق الصخور وأتسلق المنحدرات الوعرة ! .. فلم تمض دقائق ، حتى دخل الفتى « نور » غرفة المريض فى زيه المعتاد ، وكأنه فتى لم يتجاوز السادسة عشرة !

ولم يكن يتوقع حضورى مبكرة ، فالتفت صوب الباب حين سمع صريره ، وتساءل : « أهذا أنت ياحبيب ؟ » . فأجابت والدته ، التى كانت تجلس قبالته : « بل انه نور ! » .. واذ ذاك هتف : « كيف حضر الآن ؟ .. ومن يأتينى بدفء شمس الصباح ، ويعطرنى بشذى الزهور ، وينعشنى بنسيم الغابة ؟ » . ولعله شعر بنظرات والدته الحيرى ، المتنقلة بينى وبينه ، فأردف : « لست أهذى يا أمى . واليك ما استغلق عليك فهمه : فى ذات صباح ، شعرت بالملل يستحوذ على ، وضقت ذرعا من رقدتى المملة فوق هذا المقعد ، فحبب الى نسيم الصباح الخروج الى الحديقة .. وسرت مع نور ، معتمدا على قوة ساقى ، مطمئنا لخطواتهما ، ولكنهما خذلتانى .. ومنذ ذلك الصباح ، عاودنى صداعى الخفيف ، فمنعنى

**من اعادة الكرة مرة أخرى . ولذلك أرسل نورا الى الغابة – فى كل صباح – ليأتينى بحرارة شمسها تدفىء أعماقى ، ويعطر جو غرفتى بشذا الزهور الذى يؤنس وحدتى ويزيل مللى ، ويحمل لى فى جعبته نسيم الغابة الذى يحرك روحى الساكنة الراكدة ويبث فيها الحياة أربعا وعشرين ساعة ! .. وقد حل ميعاد غذائها فماذا أفعل ؟ ! »**

ولم يغب عن ذهن والدته الذكية أنه ابتكر هذه الحيلة حتى لا يحرم سكرتيره الصغير من البقية الباقية من جو الصيف المدبر .. على انها لم تلبث أن انصرفت وهى تقول : « لاتنس يا نديم ان تسأل نورا عما اذا كان يوافق على ما أطلبه منه ! » .

واذ أغلقت الباب خلفها ، دفعت مقعدى الصغير أمام النافذة ، وجلست منتظرة .. حتى اذا طال بى الانتظار ، سألته : « ألا تود اخبارى بهذا الشىء المطلوب منى ؟ » . فتلكأ متذكيا فضولى ، ثم قال : « **أود أن أسألك – أولا – عما اذا كان يحزنك الاغتراب عن وطنك والرحيل الى أرض مجهولة نائية ، لو دعوتك الى السفر معى ! »**

– سؤالك غامض لا أفهمه .. أرجوك أن تفسره لى !

**– لى عم يقيم فى القاهرة ، وقد أقمته مشرفا على املاكى هناك .. وفى هذا الصباح ، تلقيت منه خطابا يطلب حضورى لاسباب تستدعى حضورى الشخصى ، وقد قرأت لى والدتى هذا الخطاب قبل حضورك ببرهة وجيزة !**

وتساءلت : « وبعد ؟ » . فقال : « وبعد ، ماذا ؟ .. لقد سألت نفسى – وأنا أستمع لقراءة والدتى – لو رضيت الاختلاط مرة أخرى بالناس ، فهل يقبل نور الظهور معى ؟ »

.. ألا ما أجمل هذه الفكرة ! لو أنها تحققت لغيرت من أسلوب حياتنا الآلى الممل ، ولبعثت المرح والسرور الى قلبينا اللذين ينبضان فى كلل وضيق . ولكن هذا محال ، فالامانى شىء ، والحقائق شىء آخر .. لان فى تحقيق هذه الامنية قضاء مبرما

على الفتى المزيف « نور » ! .. وكدت أتهرب من قبول طلبه لولا أن منعنى صدى صوته الخافت الحالم ، الذى تردد بين حنايا ضلوعى بحديث سابق : «ما أمهرك يانور فى رفع الانسان الى دنيا الاوهام .. لقد سبحت بخيالى لاول مرة منذ أمد بعيد ! » .. ووجدتنى أنساق لمشاعرى ، فلا أخيب ظنه .. واجبت : « من لى هنا ، حتى لا أسافر الى أقصى المعمورة ؟ »

وخيل الى أن الراحة والدعة انتشرتا على قسمات وجهه بعد اجابتى .. ولم نطرق الموضـوع بعد ذلك . وما لبثت ـ بعد قليل ـ أن تحينت فرصة مواتية ، وصعدت الى الطابق الاعلى لمقابلة السيدة الكبيرة . فوجدتها جالسة أمام قفص « الكناريا » ـ كعادتها ـ تستمع لتغريدها الشجى ، وتراقب خادمتها وهى تغير الرمل المفروش على الارض . وبعد أن انتقلنا الى غرفة مجاورة ، سألتها توا : « هل حدث مايستدعى سفركم الى القاهرة حقا ؟ »

ـ نعم .. وماذا فى ذلك ؟

وبعد برهة وجيزة تفاهمنا ، وأخبرتنى أن « نديم بك » رفض الرحيل مفضلا وحدته المضنية ، ولذلك رؤى أن نسافر هى بدلا عنه ، وان تصحب خادمتيها المسنتين . وحدد لسفرهن موعد بعد عدة أيام . وكان من جراء هذا القرار أن تقرر ترك فتاتين شابتين منفردتين فى الطابق الاعلى ، فسألتنى السيدة الكبيرة أن « أتردد من آن لآخر على الفتاتين وأراقب عنايتهما بعصافير « الكناريا » ، لانها لاتطمئن الى رعايتهما لعصافيرها ، وتخاف أن يحيق بهذه أى ضرر بسبب اهمالهما » .. ولهذا السبب طلبت من ابنها أن يسألنى عما اذا كنت أقبل ..

وذهلت السيدة مثلى من حديث ابنها المغاير للحقيقة ، ولم تستطع تعليله .. ترى هل غزا الشك أعماقه نحوى ، أو انه كان يستوثق من مدى رابطتى به ؟

**( جبزه ) فى : ٥ أكتوبر**

• بارحتنا السيدة الكبيرة فى صباح البارحة ، وبهذا غابت السيدة الوحيدة التى لا حرج عليها من الدخول علينا . . ومع اننى قليلا ماكنت أراها ، فاننى أشعر بوحشة وسكون ممضين بعد رحيلها ، وقد استحوذ على خوف فجائى حين رأيت حبيب أغا يرافقها وزميلتيها ، فقلت بلهفة : « هل يرافقهن حبيب أغا ؟ .. ألن يعود فى المساء ؟ »

وأجاب نديم بك ، وقد أدهشته لهفتى : **« وماذا يحدث اذا لم يعد ؟ »** . فأجبته محاولة ضبط عواطفى التى أفلت الرعب قيادها منى : « لا شيء ولكنى فكرت فيمن يساعدك على تغيير ملابسك اذا اتسخت ؟ »

**— هل يترفع الشخص الذى مرضنى بعين لم تغفل ، عن مد يد المساعده لى مرة واحدة ، الى أن يحضر حبيب أغا ؟**

وجاهدت فى أن يكون صوتى طبيعيا ، وأنا أقول : «أترفع؟ .. أبدا ! انما أخاف أن يضايقك جهلى بعاداتك ! » . على اننى لم أنجح فى كبت شعورى ، ووجدت نفسى أضحك بمرارة ، وأنا أقول حانقة : « من كاتب ، لممرض .. الى خادم خاص ، أخيرا .. طبعا ، يجب أن أؤدى عملا حتى أستحق مرتبى ! » . **وقد آلمه ردى أكثر مما كنت أقدر ، ولكننى أعتقد انه بدد الشك المبهم الذى بدأ يستيقظ فى أعماقه ، فرأيته يحنى رأسه دون أن ينطق بأى حرف ، مما تراءى على ملامحه . وما لبث أن قال : « طب نفسا يانور ! .. ان حبيب عائد قبل الغروب ! »**

ثم قال بعد قليل : « ولعله يتذكر ما طلبته منه .. لقد طلبت منه احضار شيء يساعدك على تمضية الوقت ويسليك ! » .. وكانت يده تداعب رأس « لهب » ورأسه منكس الى الارض فى وجوم وحزن . فسألته بخجل عما طلبه لى ، فقال دون أن يغير وضعه : « مجموعة من الصلصال الملون ! » ..

وكان ابى قد اعتادأن يحضر لى مثل هذه المجموعة فى طفولتى، ليلقننى مبادىء الرسم فوق مربعات خشبية صغيرة،تتوسط عصى أنفية أو عمودية صغيرة ، حسب الدرس. وكان يشترى هذه المجموعة الملونة فى شكل قوالب مربعة صغيرة ، ملفوفة فى ورق شفاف أبيض يظهر ألوانها المختلفة . وكنت أقف مبهوتة حيرى ، وأنا أرى أبى يخلق من الطين الصامت — فى سرعة ومهارة — فتاة عربية تحمل جرتها . بينما أظل مرتبكة الساعات الطوال فى تقليد تفاحة حمراء ، فلا تخرج الى عالم الوجود الا بعد أن أكون لوثت وجهى وساعدى بمختلف الالوان . وكثيرا ما كنت أمل الدرس وأصم أذنى عن ارشادات أبى وأنساق وراء عواطفى وأكور الصلصال على اختلاف ألوانه بين يدى الصغيرتين ، وألقى به أمام أبى .. ومع مرور الزمن، اتقنت فنى ، وأحببت الصلصال الملون ، وعرف أبى ذلك فكان يحضره لى كلما ذهب الى المدينة !

وكنت قد حدثت مريضى بهذه الذكرى القديمة — التى طوتها الايام — ذات مساء ، ولا بد أن حديثى مس أعماقه الحساسة ، حتى أنه لم ينس أن يكلف (( الاغا )) بأن يحضر لى مجموعة من (( الصلصال )) فى يوم رحيل والدنه .. ولقد اخجلت رقة عواطفه وجميل تفكيره وجدانى ، حتى أننى لم استطع شكره بكلمة ، بينما ظل صوته الحزين الملول المعاتب يردد صداه فى أعماقى ويصهر قلبى بلهب غير منظور ! .. وأسندت رأسى الى مصراع النافذة ، وأطلقت لافكارى عنانها ، فهامت روحى فى وادى الاحلام تبحث عن الماضى المندثر ، وتعيش بينه لحظات خاطفة . وكنت أسرح عينى فيما كان أمامى من مشاهد الطبيعة الحنون ، دون أن ارى شيئا منها ، اذ حجبت الرؤية عنها غمامة شفافة من العبرات، وراح صدرى يعلو ويهبط فى شدة ، دون أن يشعر بألمى انسان !

**( جبزه ) فى : ٩ اكتوبر**

**٥ أتممت** اليوم عمل تمثال بالصلصال .. حتى قاعدته الصغيرة طليتها باللون الاسود . واقتربت من السيد وقدمته اليه صامتة ، فمد أطراف أنامله يتحسسه برفق وحذر ..

ولعله كان يخاف أن يصيب التمثال تلف من أنامله التى كانت تحاول التعرف عليه . وبعد برهة ، لاحت على وجهه ابتسامة مشرقة ، وقال بصوت اظافر : « هذا رأس لهب .. لقد عرفته ! » .. **ثم حرك أنامله فى هوداة ولين ، ولكنه كف عن محاولته فجأة ،وألقى برأسه على مسند مقعده ، وكسا اليأس الحزين وجهه ، وعبرت نبرات صوته الخافتة المولة عن مرشكواه، وهو يردد الالفاظ بين شفتيه دون أن يتجاوزهما : « لست أرى شيئا يانور ! »**

وفى الحال ، ركعت بجواره ، وحملت قاعدة التمثال فوق كف يدى اليسرى ، وأمسكت اصبعه بيدى اليمنى .. ولم يعارض ، بل ان يده كانت لينة طيعة ، لا أثر للمقاومة فيها . وحركت أصبعه فى رفق ، وأنا أقول له : « ها هو ذا رأس لهب — كما قلت — وها هى ذى اليد الممسكة به . والآن نمر فوق الذراع .. أعرفت من يكون هذا ؟ .. ها هو ذا شعر رأسك ، ووجهك ، وعنقك .. ولقد لونت كل شىء بلونه الطبيعى . والآن ، ألم تر بعد ؟ » . فهتف : « شكرا يا نور ، اننى أرى كل شىء بوضــوح تام ! » . واذ تركت يده ، بحث باصبعه عن شىء فوق اللوحة الخشبية السوداء ، ثم قال : « وأين أنت يانور ؟ .. ألم تجلس نفسك أمامى فى التمثال ؟ » . فقلت : « كلا » . وسألنى : « اذن لماذا فكرت فى وضع لهب بجوارى ؟ »

**— لان شكله الجميل ، يضفى على التمثال رونقا وبهـاء فنيا ، ولكن وجهى القبيح لا يستحق مجهودا من يدى !**

وبالرغم من الحاحه، فانني رفضت ان أضيف شكلي للتمثال !

.. وأخذت أرنو اليه بنظرات عميقة ، ما كان ليرى ما فاضت به من حس .. نظرات حومت حوله — عابرة كالنسيم — تهمس له بحديث قلب بائس .. فلقد خفق قلبى له ، وبعث الدموع حارة الى عينى . وابتسمت فى مرارة ، بينما كانت يداى تفتتان عجينة الصلصال فى غيظ !

**( جبزه ) فى : ١٢ أكتوبر**

• **منذ** ايام ونحن نخرج الى الحديقة ، كلما بدا لنا الجو صحوا والسماء صافية ، فنسير بتؤدة فى ممراتها . وكثيرا ما نصل الى الباب الخلفى المؤدى للغابة ، فأعرض على السيد السير فيها ، ولكنه يرفض تجاوز الحديقة ، ويقول : « لن اذهب معك يانور ، لانك لا تطلعنى على وجه الغابة المريض الاصفر ، بل تكسو كل هذا الاصفرار بجمال مزيف يغرينى على الانصات لك ! » . وقد يستلقى أحيانا فى مقعده الطويل ، ويظل ساكنا ساعات طويلة ، دون أن ينبس بكلمة .. فلا ادرى اهو نائم ، ام انه يحلم فى يقظة !

لقد صالحته مع الحياة — منذأسبوع — وأزلت بقايا ماكان عنده من سوء التفاهم .. وفى كل مساء ، نجلس — كعادتنا — فيدخن لفافته الوحيدة بعد العشاء ، بينما أقرأ عليه الصحف اليومية ، فأسمعه صوت الحياة النابض فى كل شؤونها .. ولقد اعتدت أن أقرأ الجنايات الغرامية البالغ فى سردها — كما هى عادة الصحف — وأنا أراقبه اذ يستمع لى فى استسلام كامل ، بدون مبالاة . لا يعقد ما بين حاجبيه ولا تختلج أى عضلة فى قسمات وجهه . ويتلاشى صوتى ، وتنتهى القصة دون أن يحرك ساكنا ! .. ثم أنظر الى رأسه الهادىء ، واسائل نفسى والامل يداعب قلبى : اتراه قد نجا من مرضه ، ام ان هذه غفوة لن يلبث بعدها ان ينتكس !

**( جبزه ) فى : ١٥ أكتوبر**

◆ **أمسكت** باحدى الصحف ـ بعد العشاء ـ وسألته :
« هل ترحب بسماع قصة واقعية فى منتهى الغرابة ، قرأتها الآن مترجمة عن الصحف الانجليزية ؟ »
ـ قصة ؟ .. كلا ، فلست أحب القصص !.. وما القصص يانور ؟ .. **انها سلسلة أكاذيب ملفقة خادعة ، يحيطونها باطارات لامعة ومناظر مزركشة ، تغرى النشء الرطيب العود ، وتخدع روحه الفتية الساذجة ، فينساق وراء أقوالهم ، ويبحث فى دنياهم عن مثله الاعلى .. الذى صوروه له عبثا !** .. ثم ، أية فائدة تعود على النشء من هذه الآمال الحالمة البراقة ، التى تسمم أفكاره ، وتهدم حياته الفنية حين تصدمه حقيقة الحياة وتودى بزهرة شبابه الى الحضيض ، قبل أن يشم عطرها الذى لايقدر بثمن ؟
ـ قائل هذه الاقوال الآن ، الم يكتب لنا عكسها فى يوم مضى ؟ .. أنسيت حديثه عن الحب ، وهل نسيت ما خلق من شخصيات ؟
**ـ هذا الشخص مات منذ زمن بعيد يا نور ! .. اندثرت آثاره ، وطهرت أفكاره وسط لهب النار .. ياله من مسكين ، اننى أرثى له ! .. لقد كان مغفلا كبيرا !**
ـ واسمه ؟.. من المحتمل أنه اختفى من فوق الورق ، ولكن من المحتمل ـ كذلك ـ أن يكون منقوشا فوق بعض القلوب المرهفة الحس ، انى تعلمت منه معنى الحب الصادق .. أجمل عواطف الانسانية !
وضحك من قولى طويلا ثم قال : « أنت طفل يانور ، وطفل خيالى أكثر مما ينبغى يابنى ! .. ان اسمه مات ، ولم يعد يخفق له قلب انسان ، ولا يتحدث عنه لسان ! » .. وسادنا الصمت برهة ، صرفتها مفكرة فى فشلى فى تحقيق ما كنت أحاول الوصول اليه . ولم ألبث أن حولت دفة الحديث الى

هدفى مباشرة ، وقلت له : « أن القصة التى دعوتك للاصغاء اليها واقعية ، ولا أثر لخيال الروائى فيها ، لانها على لسان طبيب عالمى شهير فى الامراض العقلية ، يروى أغرب ماصادفه فى حياته العلمية .. **انها قصة انسان بائس ، أوهمته أعصابه المضطربة بأنه فعل شيئا لم يفعله .. فهذا الرجل يعتقد أنه قتل زوجته !** » .. وهنا أمسكت عن متابعة الحديث ، وراقبت ملامحه ، فاذا السكون لا يزال يسودها ، وكأنه لم يكن ينصت لى . ثم تابعت سرد قصتى التى اختلقتها اختلاقا : « .. ولقد أثار هذا الاعتقاد أعصابه ، فاندفع هائجا وسط تياره الجارف ، الى أن أدى به المطاف الى مستشفى الامراض العقلية !.. وكان هذا الانسان السيء الحظ عسكريا .. جاويشا أو صولا . وفى ليلة ما ، بارح داره ليؤدى عمله الليلى ، ولكنه شعر بمرض ، فطلب من أحد أقرانه أن يحل مكانه ، وعاد فجأة الى منزله فى منتصف الليل .. وكان السكون مسيطرا على جميع المنازل المجاورة .. »

وتريثت برهة لارى تأثير عبارة « عاد فجأة » ، ولكنى رايت السكون ناشرا وداعته على ملامحه ، حتى خيل الى — للحظة — أنه نائم ، فأطلت النظر اليه ، حتى تحققت من انصاته لى ، وان تعمد عدم المبالاة لحديثى ، اذ رايت يده تتشبث بمتكأ المقعد فى تقلص ظاهر ، كانسان يخاف الوقوع .. وواصلت حديثى قائلة : « **عاد فجأة .. وكانت عودته غير منتظرة من أهل منزله . وفتح باب منزله ، ودخل .. ويا ليته ما دخل ! .. فقد وجد زوجته نائمة بين أحضان أحد المقربين اليه ، فأصيب بصدمة هزت كيانه .. ولم تساعده أعصابه المتوترة على أحكام الهدف ، فأخطأ المقذوف النارى طريقه ، ولم يقتل العاهرة .. وأطلق رصاصة أخرى على صدغه الايمن ، ولكنها لم تصب منه مقتلا !** »

ورأيته يفتح قبضة يده المتقلصة وهو يجاهد جهاد

المستميت ليبدو غير مكترث .. وكان على أن أمضى فى سرد أكذوبتى من أجله ، وأن أزيل ظـلال الدماء التى تلقى على أعماقه ظلاما .. كان على أن أنقذه من عذاب نفسه وتأنيب ضميره ، ولذلك لم أتردد ، بل تابعت حديثى قائلة : « و .. ولكن انصدمة أودت بعقل المسكين ، فادخله أهله المستشفى . وكان يتهم نفسه فى كل ثانية ، ويصيح بأعلى صوته ـ كلما رأى شخصا مارا أمام غرفته ـ قائلا : « بارك الله فى يدى هذه ، الا تعلم أنها جندلت العاهرة وأزهقت أنفاسها القذرة ؟ ! .. لقد قتلت الخائنة .. قتلتها ! » . ورأى طبيبه المعالج أن من الخير أن تخفى عنه الحقيقة ـ مؤقتا ـ لعل شعور التشفى والانتقام يبعثان بعض السـلوى لنفسه الجريحة ، ويهدئان أعصابه الثائرة » .. وبالرغم مما كان نديم بك يصطنعه من عدم المبالاة ، فانه لم يستطع أن يقاوم فضوله ، وسألنى: « وما الحقيقة يا نور ؟ .. ألم يقتل الرجل زوجته ؟ » .

**ـ لقد خيل اليه أنه قتلها ، ورسخ هذا الاعتقاد فى خياله ، لانه رآها ملقاة تحت أقدامه ولا حراك بها ! .. ولكن البوليس تبين أنها كانت فى اغماءة لفرط الرعب ، ووجده هو جريحا ، وقد شاء القدر أن يمنحه حياة لارغبة له فيها !** وبعد أن شفيت جراحه ، قادوه الى المستشفى العقلى ليعالجوا جرحا لا أمل فى اندماله .. ويئس أهله وأطبـاؤه من شفائه ، فبقى فى المستشفى منسيا مدة طويلة ، الى أن حل بالمستشفى الطبيب راوى هذه الواقعة ، فأقبل يقرأ ملف كل مريض ، ثم يطلب مقابلته على حدة ، ويأمر له بالعلاج الذى يراه . ونجح نجاحا باهرا ، لانه كان طبيبا ماهرا ، فاستطاع أن يهب الحياة من جديد لبعض البائسين .. وكان من بينهم الصرن ، اذ شفاه بطريقة الايحاء والتلقين .. أليس عجيبا أن تأتى هذه الطريقة بثمرة ، فتخف وطأة الجنون المزمن بعد جلسات معدودة ؟ ! »

**ـ وامرأته ، الحية الرقطاء .. هل ظلت حية تسعى ؟**

فاجبته وقد ركزت قوة ارادتى فى نبرات صوتى وأرسلتها فى بطء وخفوت وقوة اقناع ، متوقفة عند كل كلمة قائلة : « لقد .. ماتت .. قتلت ـ فيما بعد ـ بيد .. الرجل الذى احبته ! » . وسادنا الصمت لحظة ، ثم بدده بقوله : « وهل من الممكن حدوث هذا ؟.. انه شيء غير معقول .. ألم يتيقن من موتها قبل القضاء على نفسه ؟ »

وأردت أن أملأ صدره بالشك الذى كنت أسعى الى بثه فى نفسه . فأجبته مرة أخرى بصوت خافت قوى ، مقنع ، محملا بشتى المعانى الخفية : « ومن اين له اليقين ؟ .. هل جس نبضها ؟ .. هل فتح عينيها ؟ ..هل كان فى حالة تسمح له بالتحقق من موتها ؟ » . فأجاب وقد نشط ذهنه فجأة ، وعقد ما بين حاجبيه فى حدة حاول أن يكبح جماحها : « ما هذا الهراء يا نور ؟ .. ان قصتك السخيفة جلبت النوم الى عينى ، فادع لى حبيبا ! »

ووجدت حبيبا أمام باب الغرفة ، ولعله كان ينصت للحديث الذى دار بيننا . فقلت له فى صوت خافت : « اذا سألك عن تلك الليلة ، فأخبره بحقيقة ما حدث ، فان مصلحته فى أن يعرفها ! » . فأجابنى بوجه حزين ، وقد أغرورقت عيناه بالدموع : « سأفعل ، ولعلك على حق .. ولكن ، ليتك لم تثيرى هذه الذكرى الآن ، لاننى كنت أدعو الله أن يمر موعد مأساته هذا العام بسلام ! .. ان ميعاد هذه الليلة المشئومة بعد خمس ليال ، وكان من المحتمل جدا أن يمر دون أن يتذكره ! .. يا للاسف ! لقد أسأت اليه يا نوران هانم من حيث لا تدرين ! »

( بشيكطاش ) فى : ١٤ ديسمبر

• بعد مرور شهرين من ابتعادى عن « هنك ! » ، امسك القلم لاول مرة ، وصوت حبيب لا ينفك يتردد فى ارجاء ذهنى :

« يا للأسف ! لقد أسأت اليه يا نوران هانم من حيث لا تدرين ! » .. وأجدنى أجيب قائلة ، وانا أنظر الى النبات المتسلق حافة النافذة وقد دب بأطرافه الذبول والاصفرار : « لم أسىء اليه .. وانما الى نفسى ! »

**حتى دفترى الازرق ـ الذى ضم بين صفحاته خلجات نفسى وحسراتها ، ومشاعر قلبى وهمومه ، وأثار عبراتى التى شوهت بقطراتها أكثر من صفحة منه ـ لم يعد أمامى ، فقد تركته وفررت ، فى ليلة من ليالى أكتوبر اللامعة النجوم .. ولا أدرى أين انتهى ماله ، وبين أيدى من وقع ؟ ..**

وأنا الآن فى غرفة رحبة ، كل ما فيها ينبىء برقة حال صاحبها ، وقد فرشت أرضها الخشبية بكليم مخطط ترك جوانبها عارية لصغر حجمه .. وبجوار الحائط، سرير حديدى أسود ، نشر عليه غطاء من الصوف الاحمر ، وبجانبه قمطر ( بوريه ) قديم أكل الدهر عليه وشرب، وأمامى حاجز ( برافان ) عتيق ، يخفى وراءه غرفة المائدة المكونة من صوان ـ يقوم بوظيفتى ( البوفيه ) و ( الكرار ) ـ ومنضدة مغطاة بمشمع أبيض، ومقعدين .. وفى ركن الغرفة مدفأة ينبعث منها أزيز النار، وعلى مقربة منها أريكة كبيرة تقوم مقام سرير آخر ، اذا استدعى الامر ذلك ! .. أسلاكها رخوة ، ومخملها ناحل لكثرة الاستعمال .. وللغرفة شرفة ذات ثلاث نوافذ ـ تطل على طريقين ـ وتقوم بينها أريكة مستديرة من الاسمنت ، بنيت بطريقة مريحة .. وعلى هذه الاريكة اجلس الآن ، ووراء ظهرى وسادات متعددة ، وقد أسندت جبهتى الى زجاج احدى نوافذها .. زجاج لصق بالورق فى أكثر من موضع .. اننى أحاول استراق النظر من بين فرجات الشيش المغلق ، فأرى أمامى ـ من ناحية ـ طريقا مسدودا ، ينتهى بباب كبير لدار من الدور القديمة جدا . وعلى جانبى الطريق منازل قاتمة اللون ، قبيحة الشكل ، ذات شرفات بارزة مغلقة الجوانب .

ومن الناحية الاخرى أرى طريقا موحلا ، ينتهى بميدان صغير ، تكدس خشب فى ساحته . والى اليمين أرى مقهى ذا واجهة زجاجية ، زجاجها قاتم اللون ، لكثرة ما تراكم عليه من الغبار والدخان ! .. وبين هذين الطريقين يقوم منزل خشبى صغير ، يتألف من طابقين ، كل منهما يتكون من غرفة رحبة جدا وأخرى صغيرة جدا ، لا تصلح الا لتكون مخزنا . وفى الطابق الثانى من هذا المنزل ، يسكن أستاذى حكمت بك ، وأنا أقاسمه غرفته - مذ بارحت المستشفى - لانى ما زلت ضعيفة وفى دور النقاهة . وها أنذى أحاول أن أستعيد بعض نشاطى القديم ، وأن أعود لطبيعتى !

وتملك هذا المنزل الصغير سيدة مسنة رقيقة الحال. تسكن طابقه الاول مع حفيدتها اليتيمة .. فتاة ذات جمال جذاب ، وجسم موفور الصحة ، ولا ينقصها سوى .. العقل ! فهى بلهاء ، أو شبه مجنونة ، وقد أصيبت بهذا النقص المؤلم عقب حمى خطيرة ألمت بها فى طفولتها .. ولكنها - مع ذلك - مولعة بالعزف على العود الى درجة الجنون ، وقد علمت أنه ما من قوة على الارض تستطيع انتزاع عودها من بين احضانها ، فهى تظل تعزف ، وتعزف ، الى أن تغيب عن الوجود من فرط التعب .. وها انذى أسمع أوتار عودها تردد نغمة واحدة لا تتغير .. تتكرر ، دون أن تنتهى !

. . . . . . . . . .

قرأت ما كتبت متعجبة ، اذ .. لمن كتبت هذا ؟ وما الذى حدث ؟ ولماذا أنا هنا ؟ .. أكنت أنا الراقدة فى غرفة يحوطها البياض الناصع ، تحف بى فتيات متشحات بالبياض كالملائكة ، وأسمع - على بعد - أصواتا تئن وتتأوه وتنادى ربها فى وجد مستعطف ؟ .. أأنا هذه الفتاة الضعيفة،ذات الاعماق الموحشة الجرداء ، وذات الذراع الواهية القوة ، التى تحرك القلم بصعوبة ! .. لقد تركت القلم وجعلت افكر

منذ ساعات بارح أستاذى الغرفة ، فى طريقه الى عمله ، بعد أن ربت رأسى فى حنان قائلا : « حذار من تيارات الهواء يا نوران ! .. لا تجتازى عتبة الغرفة ، واذا احتجت الى شىء ، فما عليك الا أن تدقى الارض بقدمك ، وسيلبى نداؤك حالا ! .. ولا تنتظرينى فى موعد الغداء ، بل اطلبى طعامك متى جعت ، وحافظى على نفسك ، لان النكسة أخطر من الحمى ذاتها ! » .. ثم بارح الغرفة وهو يسعل .

لقد أطلق الاطباء — فى المستشفى — على مرضى اسم « حمى مخية » . ولكننى لم أهتد بعد الى اسم لمرضى الاصلى ، الذى يؤلم أعماقى ويصهر قلبى !

الغرفة دافئة ، وأنا متدثرة بملابس ثقيلة ، ومع ذلك فاننى ارتجف بردا . ومن العجيب أننى أشعر — مع ذلك — بأن وجهى ويدى تلتهب من الحرارة .. ونهضت من مكانى ، فاقتربت من المدفأة ، وجلست على وسادة بالقرب منها — مسندة ظهرى الى الاريكة — ورحت أتأمل اللهب وهو يتصاعد من بين قضبان بابها الحديدى الصغير .. وكأنى بالايام والليالى تتراجع بى الى ليلة كانت حافلة بشتى الاحاسيس المتضاربة . أو ها هى ذى حوادث تلك الليلة تتتابع أمامى متراصة على لهب المدفأة الاحمر ، وقد حملنى خيالى الى ديار يحتمل أن أجد اسم علتى بين دروبها وروابيها .. وأمسكت بقلمى وكأنه مبضع جراح ماهر ، لابحث عن نبع الانين الذى لا يصمت بين حنايا صدرى ، وبدأت فى تشريح أعماقى التى تصرخ وتبكى وتطالب بالاحتفاظ بجرحها العميق — الذى تتقاطر دماؤه قطرة قطرة — لتسجل ما حدث فوق صفحاتى هذه .. وأنا مثل حيوان جريح اصيب برصاصة لا يعرف مقرها ، ولكنها تؤلمه ، فهو يركض بقوائمه ويعض أعضاءه بأسنانه ، باحثا عن نبع آلامه ليسكنه دون جدوى !

. . . . . . . . . . .

كان ذلك فى ليل ١٩ أكتوبر ، أى الليلة التى قال عنها « حبيب » انها ميعاد مأساة سيده .. وكان السيد قد سأل حبيبا عن الحقيقة – كما توقعت – فلم يمار هذا وأخبره بها كاملة . وقضى السيد اربعة أيام فى هدوء وسكينة ، الى أن تركته فى تلك الليلة – وهو مشرق المحيا – وآويت الى فراشى وأنا أحمد الله لان المحنة زالت عنه ، فاجتاز منطقة الخطر بسلام . بيد أننى لم ألبث أن استيقظت – فى منتصف الليل – فجأة ، على نقرات خفيفة فوق زجاج نافذتى ، فجلست فى فراشى أنصت مكذبة . ولكن النقرات تتابعت فى شدة ، وسمعت صوته ينادينى : « نور ! .. نور ! »

وقفزت من فراشى على عجل ، فألقيت على كتفى بمعطف وجدته ملقى على مقعدى الطويل ، وفتحت النافذة دون أن أوقد مصباحى .. ورأيت فى الحديقة ضوءا أحمر غير طبيعى ، بينما رفع « لهب » قائمتيه الاماميتين الى حافة النافذة متأهبا للقائى . أما « هو » ، فكان يضع يده على رأس الكلب كعادته ، وقد ارتدى ثوبا طويلا قاتم اللون ، خيل الى أنه أطال قامته المديدة . وقال لى بصوت غريب : « هيا معى يا نور ! .. هذه الليلة ليلتى ، وأود أن تشهد معى زينتها الباهرة ! .. بالله عليك لا ترفض ، لان سرورى سيتضاعف برفقتك ، وقد رفضت رفقة « حبيب » لانه يضايقنى هذا المساء ! » .

وسألته بدون أن أفهم شيئا : « أية زينة ؟ »

– ألا تعرف ما هى الزينة ؟ .. انها مشاعل تبعث البهجة والسرور الى القلوب البائسة يانور ، وتضىء بنورها الباهر الاعماق القاحلة وتعيدها للحياة .. انها مشاعل لتطهر الارض من آثار الماضى الدنس القذر ، وتعدم الاثر الحى الباقى من ليلة الموت ! .. لا تسألنى شيئا هذه الليلة ، ولا تحدثنى عن أى شىء ، ولتكن ابكم من أجلى ، مرة واحدة فى حياتك .. هيا اسرع ، واقفز من النافذة ، لئلا يفوتك أروع المناظر !

ومد لى يده ، ولكننى قفزت من النافذة بدون مساعدته . وسار فى المقدمة برفقة « لهب » .. وكانت خطواته مسرعة وغير متزنة ، وكاد يصطدم غير مرة فى الاشجار ، لولا يقظة حسه الدقيق المبهم . وكان يضحك ضحكات هستيرية غريبة الوقع ، وهو يقول لى : « نور ! .. سترى العجب .. شيئا لم تره فى حياتك ولن تراه ! » . وهنا ظهر « حبيب أغا » كالخيال السارى ، دون أن يحدث أى صوت .. ودنا منه محاولا أن يتأبط ساعده ، فاذا المريض يقفز بعيدا وقد أجفل للمباغتة . ولعله حنق على نفسه من ضعفها الظاهر ، فصب جام غضبه على المسكين الطيب القلب ، وصاح فيه : « من الذى ناداك ، ومن طلب مساعدتك ؟ .. دعنى وشأنى ! هيا اذهب ونم فى غرفتك ! » . ولم يعترض الخادم المسكين بكلمة ، بل سار نحو المنزل ، وقد همس فى أذنى اذ مر بى : « اللهم اللطف بنا ، مما يخبئه لنا القدر بين طيات هذه الليلة ! »

وأخذ الضوء الاحمر المبهم — الذى رأيته من نافذتى — يزداد احمرارا كلما تقدمنا ، مترائيا فى قبة السماء متكاثفا ، مرتفعا جهة المنزل الصغير الابيض . وما لبثنا أن عرجنا فى طريق هذا المنزل . وسمعت « لهب » يرسل نباحا طويلا مزعجا .. ولكن صوته لم يكن كل ما أزعجنى ، بل كان هناك صوت آخر .. صوت نار تولول وهى تلتهم ما يحيط بها .. وبعد خطوات ، رأيت المنزل الابيض الجميل يحترق ولا سبيل لانقاذه ! .. وكانت الطيور تندفع طائرة على غير هدى ، وقد افقدها الوجل كل تفكير ، وهى تصيح باستمرار ، وقد جعل الفزع أصواتها أشبه بالعويل المستمر . ثم رأيت اللهب الاحمر يخترق النوافذ المغلقة ، ويرتفع فى شدة هائلة نحو السماء ، وجوانب المنزل الصغير تتراقص متمايلة ذات اليمين وذات الشمال وكأنها ترقص رقصة الموت على نغمات قيثارة الشيطان ! .. وجمدت فى مكانى وتدعقد الخوف

لسانى ، ثم احكمت معطفى حول جسمى ليرد عليه بعض الاطمئنان .. وهو ؟ ! كان ينظر الى النار بعينين مشرقتين !.. وقال لى بعد أن ضحك ضحكته المريبة : « ما أروع هذا وما اجمله يانور ! .. ارأيت مثل هذه الزينة ؟ .. وهل شعرت بمثل هذه البهجة فى حياتك ؟ .. كانى بهذه النيران تضىء أغوار عينى المظلمتين ! »

وألقى بردائه الاسود الطويل على الارض، بينما كنت أرتجف من شدة البرد ، وقال : « حر كنار جهنم ! .. وهج النار يلفح وجهى !.. حقيقة أن النيران مطهرة ! .. انها تزيل قذارة الماضى الدنس من عالم الوجود : » . وراح يضحك بينما كان « لهب » ينبح ويعوى بصوت أقشعر له بدنى . وشعرت بتجمد أطرافى من وطأة البرد القارس ، فلم أتحمل ، وقلت له : « اننى أرتجف ، واريد العودة الى الداخل ! » . فصاح : « لا ، لن تعود ! .. خذ معطفى فتدثر به ! » .. واقترب منى جدا حتى كاد يلتصق بى . وكنت أسمع نفسه صاعدا هابطا فى صدره.ولم تعترض ، فأخذت معطفه من الموضع الذى ألقاه فيه ، فتدثرت به . وفى هذه اللحظة ، انهار جانب من المنزل ، واندفعت النيران عالية فى شدة مروعة ، أثارت مخاوفى ، فقلت له : « اننى خائف يا نديم بك .. ما العمل اذا سرت النيران الى المنزل الكبير ؟ »

ـ فكرة عقيمة يا بنى .. ان موقعه بعيد جدا عن هنا ، وحديقته جرداء قاحلة لا تصلح طعاما للنيران !

وتحول المنزل ـ فى هذه اللحظة ـ الى نار متأججة ، ملعلعة ، مخيفة ، كنار الجحيم .. وتحولت الريح نحونا محملة شظايا صغيرة مشتعلة ومسامير حديدية مصهورة ، أخذت تتساقط حولنا من كل جهة ، وكأن يدا خفية تقذفنا بها .. ورأيت وجهه ـ فى وهج اللهب الاحمر المتلاعب ـ مقنعا بقناع مخيف .. كانت عضلاته تختلج فى تقلصات مرعبة ، وهو



يحاول السيطرة على اعصابه الثائرة بقوة متلاشية !.. وسرت النيران نحو بعض أشجار السرو القريبة فأشعلتها ، وسرعان ما كانت جميع الاشجار المحيطة بالمنزل كمشاعل موقدة ، يتذبذب لهبها الاحمر تحت مداعبة الرياح ، ويرتفع وينخفض حسب قوتها .. واندفعت النيران تلتهم كل العوائق الفاصلة بيننا .. واذ رأيت اقترابها منا ، حركت لسانى العيى ، الذى أفقده الخوف فصاحته ، وقلت له : « ان النار تسرى نحونا فى شدة مروعة .. هيا بنا ! .. هيا ، لنعد ونطلب نجدة قبل ان تستفحل .. ! » . فقطع على حديثى ، وقبض على ذراعى بشدة قائلا : **« كلا ، كلا ! .. لن تنادى أحداً ! دعه يحترق الى أن يفنى .. امكث معى يا نور قليلا ، الى أن ترتوى نفسى العطشى وتهدأ ثائرتها ويسودها الاطمئنان المحرومة منه .. أكاد أرى هذه النيران الطاهرة ، وكأنى بلهبها الاحمر يضىء عينى المظلمتين ! »**

وفى هذه اللحظة قذفتنى يد القدر بقطعة خشب مشتعلة ، فجزعت من سرعتها وهى متجهة نحوى . وبوحى غريزى ، انتزعت ساعدى من قبضته بقوة غير عادية ، لاتفادى أن تصيبنى .. وظننى أحاول الهرب منه ، فحاول أن يقبض على ، ولكنى كنت قد ابتعدت عن مكانى قليلا ، فأصابت يده ـ باحثة فى الهواء ـ طرف معطفه ، فجذبه عنى ، وأنا أصيح لفرط

الهلع : « دعنى ! .. سنحترق ! » .. جرى كل هذا فى لحظة خاطفة كوميض البرق . وأظنه — على ما أتذكر — عرف مكانى من مصدر صوتى ، فاندفع نحوى بسرعة خاطفة ، وساعداه يتقدمانه . وشعرت بيديه فوق صدرى تماما ، فدفعته بكل قوتى .. واستطعت فى لحظة أن أضم معطفى الذى تهدل فى هذه الاثناء . ولكنى لم ألبث أن شعرت بساعديه تمتدان من ورائى فى سرعة خاطفة ، فتهبطان الى ما بعد كتفى ، وتهصران بقبضتيها القويتين نتوءى صدرى ، وصدته المتحشرج يردد : « نور ! .. أأنت نور ؟ .. ما هذا ؟ .. ما هذا ؟ »

ولا ادرى — بعد ذلك — ما الذى حدث ، لان راسى المرتبك لم يستطع استيعابه .. كانت النيران تلتهم كل شىء ، وتغذى نفسها بكل ما تصادفه ، وهى تندفع نحونا ، والسنتها الحمراء تغنى أناشيد الدمار ، ولهبها يصفر لحن الفناء ، والزبانية ترقص على نغماتها فى أتون الجحيم .. وليس بوسعى أن أصف شعورى ، ولا كيف تلقيت اهانات السد البذيئة ، وكلماته الجارحة ، لاننى كنت فاقدة الشعور ! .. على أن الذى أذكره هو البرودة التى أرجفت كيانى، بعد أن جف العرق الذى أغرق جسمى — من الخجل والخوف — وأنا أحاول التخلص منه بكل قواى ، وقد تمزق قميص نومى فى هذه المحاولات .. وسمعته يتمتم قائلا : « أمزيد من الخداع ؟ .. أأكاذيب جديدة ؟ ! متى تنتهى يا الهى ، متى تنتهى ؟ .. كفى ! كفى ! » .. ثم دفعنى بعيدا عنه بقسوة . ورأيته يخطو الى الامام خطوات مترنحة ، ثم تأوه بصوت مفزع وقد وضع كفيه على عينيه . ولم يلبث أن سقط على الارض ساكنا ، كجثة هامدة .. ويخيل الى أننى فى هذه اللحظة اقتربت منه ، ونظرت اليه ، فاذا الدم يسيل من جرح فى جبهته ، فيلوث تقاسيم وجهه ، بينما كان صدره ساكنا وكان قلبه اخلد الى راحته الابدية، وعيناه منفرجتان عن نظرة ثابتة جامدة !

هذه الحادثة الاخيرة ، اهى حقيقة واقعة أم هى من تصوير هذيان الحمى ؟ .. لست أملك الجزم بصحتها ، لان هذا المنظر كثيرا ما تمثل امامى ، وتكرر حتى اختلط على الامر ، والتبس على الجزم بصحته .. وها أنذى أجهد ذاكرتى لعلى أميز بقية معالم هذا الحلم الباهت المبهم . وبعد ذلك ، ماذا حدث ؟ .. ماذا حدث يا ربى ؟ .. ألم أرفع يدى عن هذا القلب الساكن وأعدو صارخة ، وكأن الشياطين تتعقبنى ؟ .. ألم اجر بكل قواى وسط الظلام — على غير هدى — أصطدم بالاشجار ، وأسقط بين الاحراش ، وتمزق الاشواك بدنى ، وانا لا أنفك أعدو بكل قوة .. الى اين ؟ ! .. لم أكن أدرى ، وانما كنت أسرع وتنشط قواى الواهية كلما تراءى لى وهج النيران ملعلعا فوق رؤوس الاشجار ، فيدفعنى شعورى المضطرب الى العدو بسرعة جنونية ، وكأن ورائى عدوا خفيا يطاردنى .. وكثيرا ما أفزعتنى الظلال فى الظلام واطبقت على بأشباحها المروعة، وجعلتنى أصيح واصرخ واغلق عينى دونها، وانا غنيمة سائغة بينها وبين اعصابى المتوترة الثائرة .. ما أمر هذه الذكرى !

كنت كانسان فقد القدرة على التفكير ، وفقد الارادة ، وشلت حواسه ، فقد تسلطت فكرة واحدة على هذه الحواس .. الفرار ! الفرار كيفما يكن ، والابتعاد عن هذا المكان . وكان يعترى قوتى المنهوكة بعض الكلل والضعف فأنكفىء على الارض كجثة لاحراك بها ، ولكنى كنت أعاود الانطلاق بعد وقت لا أدرى ان كان قد طال أوقصر ، ودون أن أعلم من أين كانت تأتينى هذه القوة الخارقة للعادة ! .. ولم يتجه فكرى أدنى اتجاه الى الجثة التى كانت ملقاة على قارعة الطريق ، فى احتياج لمساعدتى ، بل كنت اسيرة رغبة متسلطة ، تبغى الفرار بأى ثمن !

وليس بوسعى الآن ان اقدر الوقت الذى أمضيته فى هذه

المحنة القاسية .. لا ولست أتذكر متى هطلت الامطار وأنا ملقاة تحت ظل الاشجار ، وانما أتذكر أننى فتحت عينى على أشياء ساخنة تنتقل على وجهى وتلمسه .. ورأيت « برق » « وشهاب » - كلبى عمر الصغير - يلعقان وجهى بلسانيهما الخشنين الطويلين ، ليعبرا لى عن وفائهما وحبهما . وكان الفجر قد تبلج ، وأرسل ضوءه الحالم الخفيف يوقظ الكون بحنان من سباته ، ونسيم صباحه العليل ينعش الكائنات بهباته الساحرة .. وفطنت الى كل هذا بعد أن فتحت عينى فوجدت نفسى ملقاة تحت ظل سنديانة ، وكأننى موثقة الاكتاف ، لا أستطيع الحراك .. وبعد مجهود شاق ، تمكنت من النهوض ، وان هى الا دقائق ، حتى كنت أطرق باب منزل آل عمر . ولست أذكر ماذا قلت لهم ، وبماذا أجبت عن أسئلتهم . **وبعد قليل ذهب والد عمر فى طلب مركبة لى ، فجلست أنتظر أوبته أمام المدفأة التى أوقدتها الجدة العجوز ، أبكى بصوت حبيس مختنق لم تسمعه أذناى .. وكانت عبراتى تتساقط قطرة قطرة ، ولكن فى أعماقى ، فكأنها قطرات من ماء النار تكوى فؤادى !**

وبارحت الضيعة فى صحبة والد عمر ، فلم يتركنى الى ان تحرك القطار فى الساعة التاسعة والنصف ، بعد أن أمدنى بقليل من النقود .. وانزويت فى ركن مظلم من أركان الدرجة الثالثة ، محاولة اخفاء هيئتى عن نظرات الفضوليين التى كانت تلتهم بشراهة معطفى القذر وحذائى الملطخ بالاوحال ، وترمق فى شك شعرى المشعث .. وأخيرا ، وصلت دون أن أجد مخبأ أسند اليه رأسى المتعب الملتهب . وبذلت كل جهدى حتى اختفيت فى قاع « المعدية » التى تقل الوافدين على محطة حيدر باشا الى الضفة المقابلة .. حتى سائقو « التاكسى » لم أسلم من استخفافهم .. وبعد مجهود ، أقنعت أحدهم بطريقة عملية ، اذ أعطيته أجره مقدما ، فقبل أن يحملنى فى سيارته . وبعد قليل ، تجمعت قوتى المنهوكة ، وشعورى المخذول

وتركزت جميع احساساتى فى نظرتى الى الباب الذى هبط السائق ليطرقه.. ولكنى شعرت بقوتى تتلاشى ثانية حين رأيت صديق الايام السوداء المخلص يتقدم نحوى مسرعا ، فاتحا ذراعيه . وأتذكر اننى ألقيت بنفسى بينهما ، وأنا أبكى بكاء مرا ، كطفل عاد الى داره فجأة بعد أن ضل طريقه ويئس من العودة اليها ! .. وقلت له : « حمدا لله ! »

وتمر على مخيلتى - بعد ذلك - وقائع لا أتذكر بدء بعضها ونهاية بعضها ، اذ أن ذاكرتى مشوشة ككتاب ناقص أطارت الريح بعض صفحاته .. وكلما استعصى على فهم أمر ، أبادر بسؤال أستاذى قائلة : « هل مرضت بعد وصولى توا ؟ »

- بل أنك وصلت مريضة يا بنية ، ولا أزال فى حيرة ودهشة لاستطاعتك الوصول الى هنا وحرارتك مرتفعة الى تلك الدرجة .. وما أن لامس رأسك الوسادة حتى فقدت وعيك توا .

- أأنت الذى طلب متاعى من هناك ؟

- نعم .. أرسلت برقية ، فأحضره والد عمر .. أتتذكرين سؤالك عندما رأيت وجه الرجل يطل عليك من باب الغرفة ؟ .. لقد جلست فى فراشك ، ونظرت الى الرجل وسألته : « أخبرنى .. هل مات ؟ .. لا تكذب ، هل مات ؟ »

- لا أتذكر سؤالى هذا ، ولكن رده عالق بذهنى لم أنسه .. الم يقل يا أستاذى : « والله لم يمت ، ولكنه سافر » ؟

- نعم قال ذلك .

- وأين دفترى ؟ .. وأين خاتمى اللؤلؤى ؟ .. هل احتفظ بهما ؟ .. اننى لم أعثر عليهما بين حاجاتى .

- لا أدرى .. أنا الآخر لم أعثر عليهما يا نوران .

وبعد مرور يوم أو أكثر عاودت سؤاله مرة أخرى قائلة : « تلك الغرفة ذات الاثاث الابيض ، أكانت غرفة فى مستشفى ؟ .. لماذا نقلتنى الى هناك ؟ »

- كان من حسن حظك أن نفذت رغبة الطبيب ونقلتك الى

هنـاك .. من يدرى ما كان قد أصـــابك لو اننى عارضت وانصعت للحنان !

ـ وكم قضيت فى المستشفى ؟

ـ خمسة وعشرين يوما .

ـ ومن الذى كان يرعانى قبل ذهابى الى هناك ؟

ـ أتسالين عن الطبيب ؟ .. انه مفتش صحة ( بشيكطاش ) ، الدكتور خلوصى بك .. رجل ماهر فى فنه وقد حنكته التجارب أثناء عمره الطويل .. لقد أحبك كثيرا يا نوران ، وبلغ من عطفه أن كان يعودك فى اليوم مرات دون استدعائه !

ـ كلا ليس هذا ما أسأل عنه .. يخيل الى أن شخصا ما ، يلبس منظارا أسود ، كان يناديني بصوت أكاد أعرفه : « نور ! .. نور ! » . فمن كان هذا ؟

وأحنى صديقى قامته ، وكأنه كان يتحاشى النظر الى ، ثم قال : « انها خيالات صورتها لك الحمى يا بنيتى ! » .. ولكنى لم أستطع كبت فضولى ، فعدت أسأله ـ فى يوم آخر ـ وأنا أكاد أشعر باحمـرار وجنتى من خجلى : « هل كنت كثيرة الهذيان ؟ » . فهتف : « وى ! .. ما كان أكثر هذيانك .. لاسيما بالليل ! » . فسألته : « وماذا كنت أقول ؟ » . فقال : « كانت أكثر كلماتك مبهمة ، غير مفهومة يا نوران .. وكثيرا ما كنت ترددين هذا القول : النار تقترب ! النار ! .. سنحترق ! » . ثم نكس رأسه متحاشيا نظراتى الفاحصة . ولعله خاف أن اقرأ على وجهه ما كان يخفيه عنى بين جوانحه !

. . . . . . .

طرقت الارض بقدمى ، فرددت الارض الخشـبية صدى طرقاتى مضاعفة . وفى الحال رأيت « خالدة » ـ حفيـــدة صاحبة الدار ـ تدخل من الباب كالخيال السارى ، محتضنة عودها ، وكأنها تحتضن فلذة كبدها .. وجلست بجوارى على الارض فى سكون ، وهى تائهة فى خواطرها ، فتركتها فى عالمها

واخذت أتأمل شكلها . ما أجمل بشرتها الرقيقة الشفافة ! .. ولكن لونها الابيض الشاحب ، يميل للصفرة .. ولها أهداب طويلة مستقيمة مسبلة دائما ، فاذا تطلعت بعينيها الداكنتي الخضرة ، خيل الى أنهما فارغتان ، لا تعبران عن يقظة الحياة فيهما ، وكأنهما لا تبصران . وهي تجدل شعرها الاصفر الناعم على الطريقة الريفية .. ولقد ذكر لى أستاذى أنها كانت شديدة العطف على طول مرضى ، وهى التى قامت بأكبر عبء أثناء رقادى فى المنزل ، دون أن يخطر ببالها ان تسأل عمن أكون ، ومن أين هبطت عليهم .. بل انها أحبتنى حبا صادقا ، دون ان تعرف من أكون ، ودون أن تشعر بفضول يدفعها للمعرفة !

وأحاديثها دائما مبتورة ناقصة ، فاذا سألها المستمع ان تتم حديثها ، نظرت اليه فى بلاهة وذهول، وقد نسيت ماكانت تقول .. ان الصغيرة المسكينة تشعر بنقصها هذا ، وكثيرا ما رأيتها تعتمد رأسها بين كتفيها ، وتضغط عليه قائلة : « لماذا هو ثقيل هكذا ؟ .. ما هـــذا الدوار الذى لا ينتهى ؟ » : وأحيانا يومض الذكاء ومضة عابرة ، فيضىء عقلها المظلم . وفى هذه اللحظات ، تميز « خالدة » ، وتشعر ، وتقدر كل الامور بحس يفوق حس الانسان العادى ! .. ثم لا تلبث أن تعـود سيرتها الاولى .. وهى دائما متقلبة الاطوار ، فبينما تكلمنى برقة متناهية ، اذا بها تتحول فتحدثنى بكلمة وكأنها ترانى لاول مرة . وهي هكذا مع الجميع ، حتى مع جدتهـا ! .. الشىء الوحيد الذى نجا من تقلبات شعورها هو « العود » الاصم ، الذى عزف عن حبها الجارف ومل عشقها النارى ، فأعرض عنها فى قسوة ، ولم يهبها روحا موسيقية ولا نغمات وترية . ومن ثم فقد كانت تعزف أغنية واحدة تتكرر وتتكرر بدون وعى ، بشكل يورث الجنون للمكرهين على الاستماع اليها ! .. وكثيرا ما اغلقت الجـدة باب الطابق الارضى عليهـا ، حتى لا تصدع راسى من هذه النغمات المتكررة ، بعد ان تفشل جميع

الحيل فى صرف « خالدة » عن العزف !

ولقد حدث ـ بعد مرور يومين على خروجى من المستشفى ـ أن بارح أستاذى المنزل ليؤدى عمله فى ميعاده المعتاد ، وأرسل لى « خالدة » لتؤنس وحدتى فى غيابه .. وكانت جالسة هادئة ساكنة ، الى أن رأتنى أفتح عينى وأنظر اليها فقالت : « سأغنى لك أغنية جديدة .. يا أبلة ! » . ولم تنتظر موافقتى ، بل احتضنت عودها ، ورددت أغنية هذا مطلعها :

تعال يا حبيبى الغالى وجفف دمعى الجارى
وواسى قرحة القلب وخفف من ضنى حالى

وبعد أن كررت ما يشبه هذه الابيات ـ فى نغمة واحدة ـ قالت لى : « أتدرين يا أبلة لماذا غنيت لك هذه الاغنية ؟ .. لاننى قرأتها على شفتيك ! » . فنظرت اليها مستوضحة ، اذ لم أفهم مرمى كلامها ، فتابعت حديثها قائلة : « لكم ناديت الشخص الذى طالما ناديته فى مرضك ، لعله يسمع ندائى ويأتى من أجلك ! » .. وشجعتها ابتسامتى الكالحة فرددت هذه الاغنية ورأسها الجميل مائل على العود فى تراخ .

وها هى ذى تجلس الآن بجوارى على الارض ، محتضنة عودها ، وقد أخذت ريشتها تداعب الاوتار ، وتبعث نفس النغم فى صوت خافت حالم . ولا أدرى لماذا أثارت هذه الاغنية ـ ذات المعانى الساذجة ـ كوامن نفسى . وبدون أدنى تفكير ، سحبت العود من بين أحضانها فى رفق ، وأنا أقول لها : « لا تعزفى هذه الاغنية مرة أخرى .. فلست أحبها ! » . وتطلعت الى فى حيرة شديدة ، ولكنها لم تلبث أن أحنت رأسها قائلة : « ليكن ! » . ومنذ ذلك اليوم وأنا أحاول اقصاء هذا الصوت الذى سكن جوانحى وأخذ يردد ـ فى عناد ـ أغنية « خالدة » الساذجة ، ولكنى أخفقت فى طرده ، فهو ما زال يردد : « تعال يا حبيبى الغالى ! »

**( بشيكطاش ) فى : ١٧ ديسمبر**

• **اليوم** موعد اكتمال العام منذ وفاة والدى . وما كان أطوله من عام مرير ! .. والسماء اليوم فى حداد حالك كأعماقى، فلا شمس ولا ضوء ، وانما يكسو الضباب الاسود كل شيء ! .. ولقد ظن أستاذى — فى الصباح — انه قادر على أن ينسينى ذكرى هذا اليوم المشئوم ، فاصطنع المرح وهو يقص على احاديث فكهة ، بينما كنت أشعر أن قلبه يتوجع مثل قلبى تماما .. وقال لى، حين حل ميعاد خروجه : « ماريك يانوران ، لو أمضينا اليوم معا فى هناء وصفاء ، نصطلى دفء الموقد ، واستمع لحديثك العذب ، وأنقذ كيانى الضعيف من قسوة جو هذا اليوم ؟ .. لاسيما وان غيابى غير المنتظر سيكون مفاجأة سارة للاولاد ، لانهم سيتمتعون باللعب بكرات الثلج ! »

وكنت أشعر بحاجة شديدة الى الوحدة ، كى أخلع عن نفسى قناعها الزائف ، وأترك أحزانى تنساب فى مجراها كما تهوى نفسى الحزينة ، دون ما رقيب .. لذلك ألححت عليه حتى خرج . وها أنذى أجلس وحيدة أمام المدفأة ، وعيناى نصف مغلقتين ، وجسمى متراخ وقد فقد قدرته على الحركة، وكانه استنشق مخدرا . **وخيل الى أن روحى تنساب منه فى بطء، وتسبح بعيدا وسط الضباب ، يدفعها حنينها الى الاسراع ، وتصل فى لحظة — كوميض البرق — الى ضاحية ( بيك ) ، فتقف أمام منزل أبيض صغير تحوطه شجيرات « الليلا » الذابلة ، ثم تخترق جدرانه وتدخل احدى غرفه التى أضفى الموت عليها برودة بغيضة وأفقدها بهجتها السابقة !** .. وها هى ذى تحوم حول سرير من خشب الجوز ، رقد فيه رجل يحتضر ، وما زالت يده النحيلة تمسح بحنان وشفقة على راس فتاته — الراكعة بجوار فراشه ، وقد أخفت وجهها

بين ذراعيها ــ وهي تذرف دمعها في سكون ! .. ويجهد المريض نفسه ، ويرفع رأسه للمرة الاخيرة ليتزود لرحلته الابدية بنظرة من ابنته ، وفي عينيه اعتذار صامت، كأنه يذنب اذ يموت ! .. ثم يقول وكأنه لا يفكر في نفسه ، وانما يقصر تفكيره عليها هي : « لا تخافي يانوران .. أنا بخير ! »

وها أنذي بعد مرور عام من وفاته وحيدة في الحياة، بدون نصير يقيني تقلبات الدهر القاسية ، أبكي وانشج وكياني يهتز ويرتجف ، وأعماقي تردد شعورها قائلة : « انني خائفة يا أبت ! .. خائفة !»

ولست أدري ما الذي أخافني.. أهو الموت،أم هي الحياة !!

**( بشيكطاش ) في : ٢٢ ديسمبر**

• **تساقط** البرد طول ليلة الامس ، ولو لم أر لونه الابيض اللامع فوق أسطح المنازل المقابلة لما شعرت بنزوله .. وفي جهات أخرى ، غطى بوشاحه الابيض كل شيء : الطرق ، والمسالك ، والمنازل .. حتى فروع الاشجار وحد ألوانها المختلفة ، وكساها بلونه الناصع الجميل . ولكنه لم يستطع أن يمحو سواد شارعنا الموحل .. والايام تمر ــ في هذه الغرفة نصف المظلمة ــ مملة كئيبة ، توحي للنفس بالحزن . وكثيرا ما تعجلت حلول الظلام حتى أنجو من ضوء النهار القاتم، المحروم من أشعة الشمس .. وأحيانا أتدثر بملابس ثقيلة ، وأنزل الى مسكن صاحبة المنزل ، لعلي أجد عندها شيئا جديدا يسر عيني .. **فلقد ضقت ذرعا بكل ما تحويه هذه الغرفة ، ومللت النظر الى كل شيء فيها .. حتى الكتب التي أحضرها لي أستاذي لتؤنس وحدتي، لم اعد أطيق تصفحها ، لانها أصبحت أكبر عدو لي .. اذ ما ان أفتح أحدها ، حتى تصادفني كلمات صغيرة ساذجة تذكرني بديار بعيدة، وتغريني**

بان أعود اليها بخيالى .. وبدون ارادة منى ، أجدنى أسيرة شراكها ، تسيرنى كما تشاء ، وتهوى تارة بين الأحراش والغابات ، وتارة وسط ساحة مستديرة عبقة بشذى زهور (( التيليو )) ، مظللة بأغصان أشجاره الوارفة ! .. وهكذا أظل أسيرة الماضى وقتا ما ، الى أن أعود الى نفسى ، وأجد أن هذه الرحلة الخيالية قد أدمت قلبى المسكين . ولهذا السبب قاطعت هذه الكتب ، بعد أن كانت لها المنزلة الاولى فى نفسى !

**( بشيكطاش ) فى : ٢٥ ديسمبر**

• سالت أستاذى فى هذا المساء : (( أتتذكر عملية الحساب العجيبة ، التى قمنا بحلها معا على قارعة الطريق فى ( أياس باشا ) ؟ .. لقد حافظت على وعدى ، وكنت مقترة على نفسى لدرجة الحرمان ، واقتصدت مرتبى الضخم .. وكنت كلما رايت ازدياد الاصفار ، أشعر بأن الشقة التى بينى وبين أملى الوحيد فى الحياة تنكمش ، وبأن عشى الجميل ــ المحوط بزهور (( الليلا )) ــ يقترب .. ولكن مصاريف علاجى قضت على هذا الامل الوليد فى مهده ، أليس كذلك يا أستاذى ؟ )) .

فاعتدل فى جلسته ، وأصلح من وضع منظاره ، ثم أخرج من جيبه دفترا صغيرا ، وراح يتلو على الدفعات التى كنت أرسلها اليه بالبريد ، أثناء اقامتى فى ( الجبزه ) . ثم قدم لى بيانا عما صرفه أثناء مرضى ، وقال : (( لم يبق لك يانوران الا مايقرب من مائتى ليرة )) . وعرفت بعد هذا الحديث القصير عظم تضحيته المادية من أجلى ، وانها لكبيرة .. كبيرة جدا بالنسبة لرقة حاله ، فاغرورقت عيناى بالدموع ، معبرة له عما أكنه !

وبعد وقت طويل ــ صرفته فى النظر الى خطوط الكليم الافقية ــ قلت لاستاذى : (( سأبدأ الجهاد مرة أخرى ، بعد أن أسترد صحتى . وسأدخر من جديد كل مرتبى ، لعلى

**انال امنيتي قبل ان افارق هذه الحياة ! »** . فلاذ بالصمت ، بينما اردفت ، وانا أبتسم بمرارة : « ترى أيكفى عمرى للوصول الى عشى الجميل ؟ »

**( بشيكطاش ) فى : ٢٧ ديسمبر**

• **حضرت** اليوم خالدة ، وقالت لى وهى تنظر الى ماورائى ، تتأمل الأفق البعيد ، وكأنها لاتراني : « لقد حضرت جاراتنا عندنا ، وهن يرغبن فى رؤيتك يا أبلة ! » . فسألتها : « من هن ؟ » . واجابت : « عائلة الحاج فاضل الثرى الذى ربح ورقة يانصيب فى العام الماضى ! » . ولقد علمت فيما بعد أن هذا الثراء ــ الذى هز مشاعر خالدة ــ لم يكن سوى ألف ليرة ، ربحها الرجل عن طريق اليانصيب . وكانت الاسرة تتألف من ربها المسن وقرينته ونجلهما الكبير ــ الذى يعمل كسائق سيارة ــ وقرينته ، ونجلهما الصغير الذى يعمل كاتبا فى احدى الشركات .

ونزلت الى الطابق الارضى مكرهة لارحب بهن . وبعد تمهيدات التعارف الاولى ، الباردة ــ التى ابتدأت بالسؤال عن الصحة وأحوال الجو ــ تدرج الحديث الى أسئلة فضولية ، مهدت لها السيدة الكبيرة هكذا . **« أن حكمت بك ليس عمك .. أليس كذلك ؟ وكم عمرك ؟ وما اسم المدرسة التى تعلمت فيها ؟ .. أتعرفين لغة أجنبية ؟ »** .. وبين الفترات ــ التى كانت تعقب كل سؤال ــ كنت أرى الشابة الصغيرة تسر لها بكلمات ، ولعلها كانت تذكرها بسؤال سهت عنه . وما لبثت الشابة ان التفتت الى ، وقالت وهى تبتسم : « ألا تعرفين يا نوران هانم الصلة الوثيقة التى بين والدى محمود أفندى وبين والدك الباشا ؟ »

**والدى الباشا ؟ ! .. لم أفهم شيئا لاول وهلة ، ولم افطن**

الى أن الباشا المقصود هو جدى لامى - الذى لم أر وجهه أبدا - الا بعد أن قالت : (( كان أبى يذهب كثيرا لزيارته فى ( أيامى باشا ) ! )) .. وكان لكلمة الباشا رنين غريب ، وهى تنبعث من بين شفتى هذه الشابة !.. وتابعت حديثها بسرعة ، ولعلها خافت أن ينقطع بعد أن أجهدت نفسها فى وصله ، فقالت : (( وخالتاك المحترمتان ، ألم تعوداك اثناء مرضك ؟ ))

وأردت أن أضع حدا لهذا الحديث السخيف ، فأجبت قائلة : (( اننى لم أقابل خالتى منذ طفولتى ، لبعض أسباب خاصة ، أدت الى خلافهما مع والدى ! )) . فنظرت السيدة الصغيرة الى السيدة الكبيرة ، وهزتا رأسيهما هزة العارفين ببواطن الامور . وأبانت لى نظراتهما أنهما على علم بالماضى المندثر فى حقب الزمن . وكما قدرت فى نفسى ، تبين لى من حركاتهما أن عدم اتصالى بالقصر و (( الباشا )) قد خيب ظنهما ، وقوض أملهما . وبعد ذهابهما حدثتنى صاحبة المنزل عن أسرة الحاج فاضل ، وأشادت بمديحها وعظم شأنها المادى والادبى ، وأطنبت فى وصف ولدها الثانى ، وأثنت على رقى آدابه وعلو مركزه فى الهيئة الاجتماعية ، اذ أن مرتبه كان مائة ليرة ! .. وقالت خالدة فجأة ، وكانت واقفة بجوار النافذة تراقب المارة وتنصت لحديثنا : (( لسوف يمر فى الطريق بعد ساعة ! )) .. ونظرت الى ونور الذكاء المفاجىء يتألق فى عينيها ويضىء أعماقهما الساكنة ، فلم أتمالك أن همست فى أذن الجدة بأمنية جالت بخاطرى : (( ليته يطلب يد خالدة ! ))

وفى الحال امتدت يد العجوز الى علبة الدخان ، وقالت ونظراتها تحدق فى الفضاء : (( أنى للمسكينة هذا الحظ ؟ .. ان ساجد بك يطلب فتاة متعلمة ، جميلة ، لها المام بلغة أجنبية ، مثلك يا نوران هانم ! )) . ثم نظرت الى وجهى وابتسمت ابتسامة كلها معان خفية !

**( بشيكطاش ) فى : ٢٩ ديسمبر**

• **الامطار** تنهمر بشدة ، وبدون انقطاع . وقد أصبح شارعنا فى حالة يرثى لها .. وفى تمام الساعة الرابعة مساء ، يعود أستاذى من عمله مقرورا من برد الطريق ، وأكون قد أعددت عشاءنا على المائدة ، فأقدم له الحساء ساخنا جدا حتى يدفىء أطرافه .. وبعد العشاء أساعده فى تصحيح



كراسات الطلبة . وقد أخذت الكراسات المتراكمة امامه — هذا المساء — وقلت له : « أتركها لى فأنا فى راحة تامة طوال اليوم .. اليك فنجان «التيليو» فتناوله على مهل ، وسأرجع اليك اذا التبس على شيء ! » . ولم يعارض ، بل استلقى على الاريكة فى تراخ ، والنعاس يغالبه . وجلست عن بعد أراجع كراسات الطلبة ذات الخطوط المتغايرة والاشكال المختلفة . ونسيت نفسى وأنا أتذكر ألاعيبهم الشيطانية التى سمعتها من أستاذى .. وكنت أردد ملاحظاتى على كل منهم قائلة : «رقم ١١٨ ، سعد .. أليس هو الذى بضع الثلج على أعناق أقرانه، على حين غرة منهم ؟ .. ارى أن عقله اليوم غير مشغول بكرات الثلج ، لانه لم يغلط غير ثلاث غلطات ! .. ورقم ٦٨، رفيق .. أهو الطفل الاحول الذى يسخر منه اخوانه يا أستاذى ؟ مرحى ، مرحى ! انه لم يغلط ولا غلطة ! »

**وبعد قليل ، أمسكت يدى بكراسة نظيفة ، وعلقت نظراتى**

**باسم صاحبها لا تتحول عنه . وسألت أستاذى عنه : (( من هذا ؟ .. أهو طالب مستجد عندكم ؟ .. أننى لم أسمع منك اسمه قبل اليوم )) . ففتح جفنيه بجهد ، وأجاب متسائلا : (( ما اسمه ؟ )) . قلت : (( انه رقم ١٢ .. نديم ! )). وأحمد الله اذ أنه لم ينتبه الى الرجفة التى اعترت صوتى وأنا ألفظ هذا الاسم ، بل قال بدون مبالاة : (( آه ، نديم ! .. لقد كان مريضا منذ وقت طويل ولم يحضر الا أمس ! ))**

وسادنا الصمت . وما لبث الاستاذ أن أصلح من وضع الحاجز (البرافان) أمام مرقده ، وقال وهو يتثاءب : ((سوف انام يانوران ، فلا ترهقى بصرك تحت ضوء المصباح بلا داع ، لاننى سأتصفح هذه الكراسات مرة أخرى فى الصباح الباكر، على أية حال .. فهيا يابنيتى الى فراشك ! )) .. ولكنى مكثت فى مجلسى مدة طويلة .. طويلة جدا ، قضيتها سابحة فى بحر الفكر العميق ، وخيالى يتلاعب بى كما تتلاعب الامواج بعود جاف فوق سطحها .. تارة يجتاز بى حدود المستحيل، وأخرى يغرينى بحلو الامانى . وما لبثت ــ أخيرا ــ ان تهيأت للنوم ، بعد أن ألقيت بخشب الوقود فى الموقد ، وتدثرت بملابس ثقيلة ، ثم فتحت النافذة لاجدد هواء الغرفة .. وسرى هواء الليل الى صدرى باردا منعشا ، فاستنشقته فى شراهة ، عله يزيح الثقل الجاثم فى أعماقى . ولكن هذا الثقل جاثم يأبى أن يتزحزح .. **حتى الليلة التى تمر دون أن أنساق وراء أوهامى وذكريات حياتى الماضية (( هناك )) ، لا تخلو من فزع يقض نومى ، ويتمثل فى رؤيا تتكرر بعد منتصف الليل .. طرقات أصابع على النافذة تبدأ خفيفة أولا ، ثم تتعاقب فى شدة .. وصوت ينادى : (( نور ! نور ! )) .. فأهب واقفة أرتعد من الفزع، ولا أستطيع بعد ذلك الاستغراق فى النوم..** بل وابتعد عن فراشى خائفة، كأنه هو السبب فيما يعترينى. وأحمل غطائي في هدوء ،وأجلس فوق الاريكة المبنية بالاسمنت

بين أبواب الشرفة ، وألصق وجهى بزجاجها بالتوالى ،محاولة رؤية وجه السماء . وأنحنى ، وألوى عنقى فى جميع الاوضاع، وكأني بالسماء تشيح بوجهها عنا مترفعة عن النظر الى هذه الطرق الضيقة ذات المساكن القاتمة .. وأحيانا أرى قسما صغيرا أزرق من السماء ، يتلألأ فيه نجم أو نجمان . وأحيانا اخرى أرى سوادا حالكا يسوده الضباب .

وفى هذا الوقت من كل مساء ، تسود الطريق وحشة ، ويغلق المقهى أبوابه ، ويسود السكون المطلق ، ولا يبقى ساهرا سوى مصباح الشارع — الذى لا ينجو من مداعبات الهواء اذ ينفذ من بين زجاجه — وخفير الحى الذى يبدد السكون بسعاله ، بين حين وآخر . وعلى هذا السعال ، انتبهت من احلامى الليلة ، فوجدتنى مازلت ملصقة وجهى بزجاج النافذة البارد ، فدلكته بكفى ليسترد الدفء والحرارة .. وشعرت بقطرات الالم المرة — تتقاطر ، قطرة فقطرة ، فى أعماقى — وبحسرة مضنية من الوحدة يضيق بها صدرى .. وبعد قليل وجدت نفسى أردد فى غير وعى منى : « انك لم تسيئى اليه .. وانما أسأت الى نفسك يانوران ! »

**( بشيكطاش ) فى : ٣٠ ديسمبر**

• **دخلت** « خالدة » عندى — منذ قليل — والحزن يلوح على محياها الجميل . وكنت أشتغل فى حبك الملفحة الصوف التى سأهديها لاستاذى فى عيد رأس السنة .. وجلست الفتاة على الارض ، وتمسحت بساقى كالقطيطة الصغيرة ، وهى تنادينى فى تردد وخجل : « أبلة .. أبلة ! » . **ولاول مرة سمعت فى نبرات صوتها هذه النبرة المعبرة عن شىء ، فتركت ما فى يدى ورفعت رأسها المنحنى الى فوق ، ونظرت الى وجهها .. كانت أهدابها مبللة ، وقطرات الدموع ما زالت على**

وجنتيها . فهتفت : «من الذى أبكاك ياخالدة ؟ . . أهى جدتك؟» . ولم تجب عن سؤالى، ولكنها هزت رأسها بالنفى، ونظرت الى . ورأيت أن لمعة الذكاء ـ التى أضاءت عقلها لحظة ـ تداختفت . وبعد قليل أمسكت رأسها وضغطته بين كفيها ، وقالت بسذاجة : « كم من الوقت يلزمنى لاتعلم كل ما تعرفين ، لو نجحت فى رفع هذا الثقل الرازح فوق رأسى ؟ » . فسألتها : « وما الذى تودين معرفته ؟ » . فهزت كتفيها وهى تجيب : « لست أدرى ، ولكنى أود أن أتعلم كل الاشياء التى يقولون انك تعرفينها ! »

وضحكت وأنا أداعبها ، قائلة : « وهل يطلب الانسان شيئا لا يعرف كنهه يا خالدة ؟ » . فاضطربت وارتج عليها ، وقالت : « أنا .. اننى .. أعرف ما أطلب ! » . ثم تابعت حديثها بسرعة ، ولعلها كانت تخاف أن يشرد عن ذهنها : « وانى لاود أن أكون مثلك تماما .. فتاة متعلمة ! » . **وبهذه العبارة الصغيرة ، باحت لى بسر قلبها العاشق دون أن تدرى ، فسألتها قائلة : « وماذا تفعلين بعد أن تكونى فتاة متعلمة ؟ » . فأجابت بصفاء وسذاجة ، ويدها تشير الى منزل جارنا المقابل ، وكأننى على علم بكل احساسات قلبها المبهمة : « أنال اعجابه ! »**

يا للمسكينة أن المرض الذى أخل بشعورها وشوش حافظتها ، لم يسر الى قلبها ، الذى ظل أمينا على سر الانوثة والحب .. ورأيت ومضة الذكاء العابرة تضىء أعماق عينيها الخابيتين من جديد ، وقد ولدتها أحاسيس قلبها العاشق ، عند ذكر جارنا الشاب الذى يشترط فى عروسه أن تكون فتاة متعلمة . ولاح ظل من يأس خفى على وجهها ، وهى تسألنى : « انك لن تقبلى الزواج منه يا أبلة .. أليس كذلك ؟ » ، فأجبتها ضاحكة :

**ـ أمجنونة أنت ؟ ! .. لا يخطرن على بالك شىء مثل هذا ، فلن أتزوج منه ولا من سواه !**

ولاحت الطمأنينة على قسماتها المضطربة الوجلة ، واكتست بشرتها المصفرة بلون وردى جميل ، وحدقت بعينيها فى لهب المدفأة الاحمر المتصاعد ، وقالت بسرعة ـ وفى لهجة غريبة ـ وكأنها تحاول تذكر شيء غاب عنها أمره : « أى نعم أنك لن تتزوجي منه .. لقد قلت لهن ذلك ، ولكنهن لم يعرن قولى ادنى أهتمام .. لو تعرفين فخرهن واعجابهن بك ! .. لقد قلن لجدتى أنك أمل ولدهن المنشود . فأنت متعلمة ، راقية ، ملمة بلغة أجنبية . فضلا عن أنك ممشوقة القد ، جميلة الوجه ، سوداء الشعر والعينين .. ومن عائلة كبيرة معروفة ! » ..

**ثم نظرت الى بعجز طفل غرير لا يفقه ما يقول ، واردفت : « سأصبغ شعرى أسود! .. ولكن ما العمل فى لون عينى ؟ .. وليت هذا كل شيء ، فلا بد لى من أن ألم بكل ما تعرفين !». ثم ضحكت بجنون !**

وربت شعرها بحنان ، وقبلت وجهها ، ثم قلت لها : « اصدقينى .. هل تحدثت اليه ؟ »

واهتزت أهدابها الطويلة ، وقالت بخجل العذراء الريفية الساذجة : « ما حدثته ، والله العظيم ، أبدا ! .. ولكن .. ولكن .. ! » . وغصت بريقها مرارا ، واسبلت عينيها ، واستطردت : « لقد أريته نفسى مرة او اثنتين ! »

**ـ اذن كيف أحببت شخصا لم تتحدثى معه يا خالدة ؟**

ولعلها لم توجه لنفسها هذا السؤال بتاتا ، لانها نظرت الى متحيرة ، ثم قالت : « لست أدرى »

**ـ ومنذ متى تشعرين بهذا الحس نحوه ؟**

وبعين الحيرة أجابت : « لست أدرى ! » . ثم عاودت الحديث ، دون أن ترى موجبا يدعوها لايضاح ظروفه : « لقد اعتاد كل أطفال الحى أن يشاكسونى ويشدوا شعرى ويصيحوا ورائى أينما ذهبت : « العبيطة ! .. العبيطة ! » . وكثيرا ما انقذنى من بين أيديهم .. وكان يربت على شعرى

بيده ويعطف على ! » . وأمسكت فجأة عن الحديث ، وهي تضحك ضحكتها الجنونية .. بينما اكتشفت خلال عباراتها الساذجة ، سر قلبها الصغير !

**( بشيكطاش ) في : اول يناير**

• **الليلة** ليلة عيد راس السنة الميلادية ، وقد مضت دون ان تلمس المنازل الساكنة ـ في هذا الحي ـ بعصاها السحرية فتحيل سكونها الى مرح فتي ، كما أحالته في أماكن أخرى .. فما حفل أحد من أهل الحي بها ، بل استقبلها الجميع وقد أظلهم سلطان الكرى كعهده في كل ليلة .. **وفي هذه اللحظة التي يولد فيها عام جديد ـ بين الثغور الباسمة والاصوات المعبرة عن أقصى هناء الاعماق ـ سمعت نباح كلب في الخارج ، يشكو قسوة الصقيع .. وصفير حارس المنطقة ، بينما داعب الهواء ضوء مصباح الشارع .. ولا شيء غير هذا !**

وكان صديقي الكهل قد أقبل على الغرفة ـ في أول المساء ـ وساعده ينوء بثقل ما يحمله . فلما تخفف من حمله ، اقترب من المدفأة وهو يحرك كتفيه من شدة البرد ، وقال لي وانا أدلك ظهره : « أتذكرين يا نوران ليلة العيد الماضي ، وكيف امضيناها في بكاء ونواح ، أمام الفراش الشاغر ؟ ! .. انظري كيف مرت علينا السنة ؟ .. يقولون أن من يبتسم لها تبتسم له ، ولذلك فلا دموع ولا حزن الليلة ، بل لننتظر منتصف الليل وقلبانا عامران بالفرح ، والابتسامة المرحة تضيء ثغرينا ، حتى نظل هكذا ـ في هناء وحبور ـ الى العام المقبل باذن الله !» .. وجلسنا الى مائدة العشاء متقابلين كالعادة ، حتى اذا فرغنا منه ، أخرج من احدى الربطات أحب الفواكه الي ، وأخذ يقص علي نوادر لطيفة ليدخل السرور على قلبي . ولاحظت أنه يبالغ في سرد نوادر شبابه ـ الذي مر هادئا ـ فيخلع عليه

لونا ماجنا جذابا ، ليبدد الجو القاتم المحيط بنا ، ويغتصب من ثغرى ابتسمات .. وفى لحظة ، خلع قناع مرحه الزائف وقال بوجوم :

ـ ان لليلة عيد رأس السنة ذكرى لم انسها أبدا منذ كنت صبيا فى العاشرة من عمرى .. انك رأيت والدتى يا نوران ، ولكنك لم تريها الا طريحة الفراش .. ليتك رأيتها وهى فى أوج شبابها الفاتن ، اذن لعرفت مدى ماضحت به من اجلى من صبا وراحة ومال وصحة .. ولكن حبك لها خليق بأن يفتر اذا سمعت أنها السبب فى حرمانى من تكوين أسرة وتذوق حنان الابوة .. أما أنا ، فما ضقت أبدا بعزوبتى ، لان حنان أمى عوضنى عن كل حنان، ولاننى كنت أزداد تقديرا لتضحيتها كلما تقدمت بى السن . فلقد توفى والدى وهى فى عز صباها ، ولكنها أصمت أذنيها عن نداء شبابها الريان .. وأعرضت عن راغبى الزواج منها ـ وهى فى أشد الحاجة لسند يشد أزرها تجاه تقلبات الحياة القاسية ـ اشفاقا على من الحياة فى كنف زوج الام ! .. ولقد اعتمدت على نفسها بكل شجاعة ، واتخذت الحياكة لها مهنة ، وأسرفت فى تبديد نور عينيها ـ وهى تقوم بعملها الشاق تحت ضوء المصباح طوال الليالى ـ لتكفل لى طيب العيش وتجعل منى رجلا متعلما . ولهذا فاننى لم آسف على شىء ضحيت به من أجلها !

« واليوم تعاودنى ذكرى ليلة مرت بى وأنا فى مرحلة التعليم الابتدائى .. ذكرى لم أنسها ، لليلة كنت مريضا فيها، وقد اصبت بحمى لا أتذكر الآن نوعها .. وكنت كلما تنبهت من نومى المضطرب ، أرى رأس أمى الجميل المتعب ، منحنيا فوق آلة الخياطة ، وهى تخيط شيئا أبيض ، ويدها البضة الجميلة تدير عجلة الآلة فى اسراع ! .. وكانت هذه الليلة هى ليلة عيد رأس السنة عند الاجانب ، وكنا معشر الاتراك لاندرى ـ فى ذلك الحين ـ عن أمرها لا كثيرا ولا قليلا .. وكان لنا

جيران من الاروام هم أول من أشـــعرنا بجمال هذا العيد . ولكن ، لنلزم موضوعنا فلا نحيد عنه ! .. قلت أننى كنت كلما تنبهت رأيت رأس أمى المتعب منحنيا تحت ضوء مصباحنا الضعيف .. ولا أدرى ماذا حدث فجعلنى اقفز من فراشى فجأة ، وألقى بنفسى على صدرها ، فعانقتها وأنا أجهش بالبكاء . وأسندت وجهى الملتهب الى كتفها ، وقلت لها وغصة بكائى تقاطع حديثى الساذج : (( **أمى ! .. عندما أكبر سأكسب مالا كثيرا ، وأسكنك قصرا جميلا وألبسك حريرا لامعا ، مثل الذى تلبسه حرم الباشا القاطن فى الميدان !** )) ..

(( وبعد هذا الحديث هدأت روعى بقبلاتها وحنانها . وبالرغم من اصرارها ، فاننى لم اقبل العودة الى الفراش ، وجلست بجوارها أدير لها عجلة آلة الخياطة فى عناد ، وأنا أقاوم ضعف جسمى الشديد .. وفجأة سمعنا ضحكات مرحة تشق سكون الليل البهيم ، فأنصتنا برهة ، ولم تلبث أمى أن احتوتنى بين ذراعيها ، وأسندت رأسى الملتهب الى صـــدرها ، وقالت : (( أتسمع يا حكمت ؟ .. ان المدام تحتفل بليلة عيد الميلاد ! )) .. ثم حملتنى الى فراشى ، وقالت : (( هيا يا حكمت .. نم ، وسأغنى لك أغنية طفولتك ، التى لم تكن لتنام قبل سماعها ، لعلها تجلب النوم الى عينيك ! )) . **وأخذت تترنم بأغانى النوم القديمة ، وهى تداعب شعر رأسى بحنان ، وأنا أغفو .. وكانت دموعها تسيل متتابعة فوق وجنتيها الذابلتين ! واستغرقت فى النوم وأنا أشعر بتساقط بعض قطراتها الساخنة فوق وجهى بين وقت وآخر ، وصوتها الحنون يملأ وجدانى !** .. وهكذا يا نوران ، ما أن تحل ليلة الميلاد ، حتى تتجسم هذه الذكرى بين حنايا نفسى ، وأسمع ـ طوال الوقت ـ هذا الحـــديث المؤثر ، وصوت غنائها الشجى يملأ أعماقى ويهز مشاعرى ! ))

وكان يحنى قامته مخفيا عنى وجهه ، وهو يروى لى الذكرى التى لم ينسها . ثم رفع رأسه وشبح ابتسامة باهتة ترتسم

على ثغره ، وقال بلهفة لما رأى ابتلال وجنتي : « لا ، لا ! .. ماذا قلت ؟ .. لا دموع ولا حزن الليلة ! .. أي شيطان دفعني لان أقص عليك هذه الذكرى الحزينة ؟ .. هيا امسحى هذه الدموع ، وابتسمي ! »

**ـ أتريد أن نمثل السعادة ، لنخدع نفسينا يا أستاذى ، بينما يبكى قلبانا ؟**

فقال وهو يتفرس في وجهي : « قلبك يبكى ؟ ! .. ولماذا ؟ »

**ـ أنت أدرى الناس لماذا .. فمنذ فقدت والدى وعشى ، وأنا لم أبتسم للحياة ، ولا هي ابتسمت لى !**

ـ لم يعد هذا السبب يقنعني ، بعد أن رأيتك بعيني هذه تبتسمين للحياة من أعماقك ، في مكان ما ! .. لا تحاولى اخفاء شعورك عني .. عبثا تحاولين! أما زلت تفكرين فيه يا طفلتى ؟

**ـ أنت تعرف أننى لا أتعلق بأوهام الاطفال .. اننى ابغضه .. أنفر منه !**

وتساءل : « وما السبب ؟ » . فترددت قليلا ثم أجبت : « انه ليس سببا واحدا ، بل عدة أسباب .. أولا : لانه أقصانى عن غايتى المنشودة وجعلنى أبتدىء طريق الجهاد من جديد بعد .. » . ولكنه بتر حديثى قائلا : **« أنك تخدعين نفسك يا نوران .. وما بغضك اياه ، الا لانه لم يقدر شعور قلبك الفياض نحوه ! .. أأقول لك ما تخفينه في أعمق أغوار قلبك يا نوران ؟ .. أأقول لك ما ردده وجـدانك مئات المرات أثناء مرضك ؟ »**

ولعل ثورة نفسى العاصفة قد ارتسمت جلية على وجهى ، لانه قال بسرعة وبلهفة : « انما أمزح معك ، فلا تصدقى حرفا مما قلت يا نوران ! .. وما دمت واثقة من نفسك ، فلم يبق لى ما أقوله في هذا .. ولنقفل باب هذا البحث ! »

وجاهد بكل قواه في طرد النعاس عن عينيه ، الى أن دقت الساعة النصف بعد العاشرة ، فاستلقي على الاريكة وهو

يقول : « لن أنام يا نوران وسأضطجع ، لان الجلوس فى وضع واحد أتعبني .. وسنستقبل العام الجديد سويا ، ونفتح هديتك معا ! » . ولكنه سرعان ما غرق فى النوم .. وجلست وحيدة أحدق فى نيران المدفأة ، وأفكر فى كل ما سمعته وفى كل ما قلته ، وقد أقمت ضميري قاضـيا عادلا بيني وبين نفسي ، ليحلل أقوالى كلمة كلمة : أكنت أخادع نفسي حقا ؟.. أكنت أصـم أذنى عن أنين قلبى ؟ .. لست أدرى ، ولكن صوته ! .. كان صوت نديم بك يملأ بنبراته أعماقى ، ومازلت أسمعه فى كل آن ومكان ، وكثيرا ما عللت هذا الامر لنفسى قائلة : **« ان سبب تعلقك به هو شذوذه وغرابته ، والاسرار التى تكتنفه ، والغموض الذى يعيش فيه .. وكيف لا تتعلقين به وأنت الفتاة الخيالية التى تنساق - منذ طفولتها - وراء كل غريب شاذ ؟ .. ان الجو الغامض المحيط به جذبك اليه أكثر مما ينبغي ، فسبح خيالك فى دنيا الاوهام ، وجعل منك بطلة رواية تمثيلية أخرجتها أنت ، ومثلتها أنت ، ورأيتها أنت .. وما علم بها انسان سواك ! .. لقد شبه لك خيالك المرهف وجه الضرير المسكين بوجه المسيح الشهيد ، ونفسه بنفس المسيح السامية التى تتحمل العذاب والالم فى صبر جميل ، وقد كللت هامته بهالة من نور قدسى ! »**

وعادت نفسى تحدثني : « لقد نظـرت الى الواقع بمنظار زائف خدعك ، وكنت راضية عن هذا الخداع ، لانه أشعرك بسعادة كنت تفتقدينها .. وما أدراك بأنك كنت كفيلة - لو استمرت هذه التمثيلية - بأن تكشفى بنفسك طرفها الخفى المضحك ؟ .. ولكنها لم تسـتمر ، وانقطعت فجأة .. ان خيالك المخرج قد نجح كل النجاح فى الدور الذى أسـنده اليك .. الدور الذى يشق عليـك جدا أن تمحى أثره من نفسك ، وها أنتذى أسيرته ، وقد فشلت فى انقاذ حواسك من الانسياق وراء هذا الخيال العنيـد ، وكأني بك ما زلت

للآن تقومين بدورك على مسرح ( الجبزه ) بمهارة .. الا انفضى عنك - يا نوران - هذه الذكرى ، فان الخيال لم يغد - يوما - انسانا ، وأنت أحوج الناس الآن لقوتك حتى تقومى بأود نفسك ! .. أين قوة ارادتك الصلبة ، وماذا فعلت بعزمك القوى يا نوران ؟ .. وما هذا اليأس المقوض للحياة ؟ .. لا تتخلفى عن تحقيق أعز أمانيك ، من أجل خيال عابر .. اذكريه كما تذكرين قصة قرأتها ثم ألقيت بالكتاب فى ركن قصى ، واستقبلى الحياة العملية بوجه مشرق باسم ، واعملى باجتهاد وبسرعة ، فلم يعد فى هذه الحياة موضع لقدم انسان خامل ! »

وبعد أن أقنعنى ضميرى العادل بمثل هذه النظريات المتعددة ، استقر رأيى على الخروج من المنزل لزيارة قبر أبى ، حتى أسترد عزمى القوى وأشق طريق العمل الموصل للأمل .. ويكفينى أن أرى عشى الجميل عن بعد - وهو غارق فى زهور « الليلا » - حتى أنتعش وأتخلص من هذا الخمول المضنى .

وفى هذه اللحظة انبعثت دقات الساعة الاثنتا عشرة ، معلنة مولد عام جديد .. ولم يوقظ صوتها صديقى الكهل من نومه العميق ، فاقتربت منه ودثرته بغطائه الصوفى بحنان ، ثم بدأت فى حل رباط اللفة الكبيرة التى تشبه علبة مربعة فى شكلها .. آه ، انه حاكى ذو غلاف احمر ! . وما أن مست أناملى غلافه ، حتى طار بى خيالى الى مكان بعيد ، يشع من جوانبه ضوء أخضر حالم ، وسمعت صوتا متسائلا عكر السكون المستتب فيه قائلا : « أين أنت يا نور ؟ » .. كنت - اذ ذاك - أحمل حاكيا يشبه هذا ! .. وأمسكت بالاسطوانات التى كانت داخل الجهاز الجديد ، واقتربت من المصباح لاقرأ أسماءها . ولم ألبث أن صحت قائلة : « يا الهى ! .. أممكن هذا ؟ انها قطعة شوبير الخالدة « فلات ماجور » .. أهى محض مصادفة ؟ .. ولكن من الصعب جدا أن أعتقد أن المصادفة هى التى أوحت اليه بانتخاب هذه القطعة بالذات ! »

**.. فقد كان أستاذى لا يستسيغ الموسيقى الغربية .**

شعرت بدوار ، وازدادت خفقات قلبى ، وتحركت أناملى بدون ارادة منى تمسح الكلمات الصغيرة المكتوبة على أولى « الاسطوانات » ، وقد خيل الى أن نظرى خدعنى .. وأخذت أنغام اللحن الخالد تملأ أذنى – ويردد صداها أعماقى – وقد بدأ صوت الكمان خافتا حالما ، ثم اختلط مع أصوات الآلات الاخرى ، فى نغم ساحر أخاذ .. ولم ألبث أن سمعت صوتا خشنا يعلو بطبقاته عليها صائحا : « أسكت هذا يا نور ! » .. وفزعت . فارتجفت يدى .. وأفقت من هذا الخيال على صوت ارتطام « الاسطوانة » – التى كانت بين يدى – بالارض وتهشمها ! .. واستيقظ أستاذى على صوت تهشمها ، فلم أفكر فى شكره على هديته ، بل سألته : « أأنت الذى اختار هذه ؟ » .. وتطلع الى بعينين مثقلتين بالنعاس ، وأجاب فى حيرة : « أيها ؟ .. أرينى ؟ » .. وامتدت يده نحو أشلاء « الاسطوانة » المحطمة ، وقال دون أن ينظر الى : « ما أسرعك فى كسرها يا نوران ، وقد خصتها الفتاة الطيبة بالثناء العاطر ، وقالت لى أنها احدى القطع الخالدة لاشهر عازفى الالمان ! »

**– ومن تكون هذه الفتاة الطيبة يا أستاذى ؟**

وأجاب ونظراته عالقه بقطع الاسطوانة المكسورة : « عاملة المتجر .. اذا لم تكن « الاسطوانة » قد أعجبتك ، فالفتاة هى الملومة ، لاننى – كما تعرفين – لا أفهم فى هذه الموسيقى ! » . وتذكرت فجأة ما غاب عن بالى ، فقلت : « لم تعجبنى ؟ ! .. انها أحب قطعة موسيقية لدى ، ولكنى فى دهشة من احضارك هذه « الاسطوانة » بالذات ، دون اسطوانات شوبير ! »

– وما وجه الغرابة فى ذلك ؟

– ان قصتها طويلة جدا ، وسأخبرك بها فى فرصة أخرى .. والآن أخبرنى ، أى ملاك أوحى اليك بهذه الهدية البديعة ؟

فأجاب بصوت متردد تشوبه غنة كاذبة ، ميزتها فى الحال :

« أفكان لابد لى من أن أكون عرافا ، لاكشف تبرمك بالوحدة ؟ .. لقد فكرت فى هذه الهدية لما رأيتك زاهدة فى قراءة الكتب »

**ـ كأني بفناتك الطيبة عرافة كشفت ما فى خبايا نفسى ، وأرسلت الي هذه النغمات الفتانة كزهر الربيع ، وقد اختارتها كما لو كنت على علم بشغفي بها .. ان هذا عجيب حقا ! !**

وضحك كثيرا ثم قال : « لا بد أنها فتاة مرهفة الحس ، غارقة لاذنيها فى الخيال ، مثلك يا نوران ! » . وذكر أنهأعرب للعاملة عن رغبتهفى موسيقى حزينة توافق مشـــاعر ابنته الميالة للأسى ، فتجعلها تسبح فى الفضاء اللانهائى ، لتنسىبعض همومها ! .. واذ انتهى من حديثه ، أجلسته أمامى ، وملأت الحاكى بعد أن وضعت احدى « الاسطوانتين » الاخريين .. ولستأدرى كيفشكت الابرة سبابتى، فتفصدتنقطةدمحمراء، فقلت : « أنظر ! .. لقد بدأت ســنتك الجديدة بأكذوبة ، فكانت فالا سيئا على اصبعى ! »

**ولم أنتظر رده ، لانني كنت أتمنى ان يكون حدسيصحيحا ، فخشيت أن يقوض حلمي الجميل بكلمة ويهدم الاحتمالات المترددة ، التى استيقظت فى أعماقى ، وانعشت روحى الخاملة بشراب الامل المسكر** .. وفى هــذه الليلة نمت نوما هنيئا ، تحوطه الامانى ، ويدى تحت الوســادة تلمس بحنان علبه صغيرة مربعة الشكل ، أحضرها أستاذى مع الحاكى .. وكانت أعماقى تردد بسرور احتمالاتها قائلة : « أنه يخفى عنى أمورا ! .. من المستحيل أن يكون هذا من تدبير المصادفة ! »

**« فى غروب الشمس » :**

• **خرج** أستاذى مبكرا كعادته ، بالرغم من عطلة المدارس. وبعد قليل ، حضرت خالدة ـ كعادتها ـ لتنظف الحجرة ، فتركتها لعملها وتدثرت بمعطف سميك ، ونزلت عند جدتها ، فجلست بجوار المدفأة أستمع لثرثرتها ، وقد راحت تكيل

الثناء المستطاب والمديح العاطر لـ « الافندى الصغير » وعائلته المحترمة الثرية ، الي أن أنقذتني عودة خالدة ، فرجعت الى مسكننا ، والى الخلوة التى كنت أتوق اليها . فأغلقت باب غرفتى ، وأخذت بحرص العلبة الصغيرة ـ من تحت وسادتى ـ وجلست أمام المدفأة ، ففضضت غلافها ببطء . . كانت زجاجة عطر كما حدست ، وكان اسمها المكتوب على رقعة مزدانة بزهور « الليلا » المتباينة الالوان : **« فى يوم . . تحت ظلال الليلا » !** . . يا له من اسم مبتكر لترويج العطور الحديثة ! . .

ولكن ، لماذا حرك أشجاني ، وجعلنى أنظر الى رسم زهور « الليلا » ، وعيناى مفعمتان بالعبرات ؟ . . ورحت أتمتم : « فى يوم . . تحت ظلال الليلا ! » . . وبينما كنت أفكر فى أن استاذى كان أبعد الناس عن معرفة هذه الانواع من الهدايا ، نزعت سدادة الزجاجة دون أدنى تفكير منى ، فانتشر العطر الحالم فجأة ، وروى أعماقى القاحلة بشذاه ! . . وشعرت بكيانى يرتجف ، كغصن ضعيف هبت عليه الرياح ! . . وأغلقت عينى ، وحاولت أن أتمثل رؤى طفولتى وأنا أمرح فوق ربى ( بيك ) ، ورائحة « الليلا » تعطر الجو . . **ولا أدرى كيف اختفت هذه الرؤى ، وسمعت صوتا خشنا آلم نفسي ، وتمثلت لى يد صاحبه تطوح باناء مملوء بزهورى الحبيبة : « لك أن تضع ما يروق لك من زهور فى غرفتك الخاصة ، وليس هنا ! »**

آه يا الهى ! . . لقد ضقت ذرعا بهذه الديار وصاحبها ، فكلما تخيلت أبى وعشى الجميل ـ المختفى وسط زهور الليلا البنفسجية ـ تراءت لى ليلة حمراء متأججة اللهب . . الا رفقا بى يا الهى ، وارحمنى من هذا الخيال العنيد الذى يسير وفق هواه ، ويحملنى الى ديار أنا زاهدة فيها ! . . وفتحت النافذة والباب ، لاجدد هواء الغرفة ، وغسلت يدى لاتخلص من الشذى الذى يوحى لخيالى بالعناد ، **ولكننى ظللت أتنفس شذى « الليلا » المضوع بين حنايا صدرى . .**

وأمام عيني صورة لا تتغير .. صورة طريق طويل تحف به « الليلا » على الجانبين ، وقد تعانقت أطرافها عناقا حارا .. وصوت يهمس فى سمعى ويكرر : «فى يوم ... !» . لماذا لعب هذا الاسم ـ الذى ابتدعه خيال أحد تجار العطور ـ بعواطفى ، وقلب أوضاع منطقى ، وساقنى الى ديار الاوهام كما تساق الشاة الى المذبح دون ارادة ؟ ! .. واستبدت عواطفى بكيانى المسكين ، حتى أننى لم أفكر فى رداءة الجو ، وغادرت المنزل لا ألوى على شيء ، فى طريقى الى ( بيك ) !

ولو لم أكن متذكرة كل أوصاف شجرة السرو الكبيرة ـ التى ينام تحتها أبى الحبيب ـ لما تعرفت على مقره . أفيغير مرور عام واحد كل شيء هنا ، حتى لاكاد أضل عن مقر رفات أعز مخلوق لدى ؟ ! .. الا ما أقسى الحياة ! .. ورحت أناجى أبى .. حدثته طويلا ـ ولا أدرى بماذا حدثته ! ـ الى أن شعرت بساقى تتصلبان لفرط البرودة ، فبارحت القبر ، واجتزت المكان الذى كنا نجتمع فيه عصر كل يوم لرسم لوحاتنا .. وسرت وأنا فى غفلة من أمرى ، تقودنى غريزتى نحو هدفها دون وعى منى .. وكنت أنظر الى مايحيط بى ، وأنا أكاد أنكر ما أرى .. فان الشتاء القارس ، وتقلبات الطقس ، وأقدام المارة غيرت معالم مكاننا المختار وأتلفته .. اين الازهار البرية اليانعة ، والطبيعة الباسمة ، والخضرة المنبسطة الى مدى النظر ؟ .. لقد وارى الشتاء كل هذا الجمال الفاتن ! .. وما لبث أن لاح لى عشى الجميل بعد انحناءة الطريق ، فضغطت بقوة على فكى ، وكدت اختنق بزفراتى المتدافعة فى حلقى ، وخارت قوى ساقى ، فأسندت ظهرى الى أقرب شجرة وانتظرت .. ما الذى كنت أنتظره ؟ .. يخيل الى أننى كنت أنتظر أن تفتح احدى النوافذ المغلقة ، ويطل رأس أبى المتوج بتاج الوقار الابيض ، ليناديني قائلا : « نوران .. نوران ! أين انت ؟ .. أسرعى الى الداخل ،

**لئلا تصابى بالبرد ! »**

وعدت من حيث اتيت وانا أجر قدمي جرا فوق الارض الموحلة . ولم ألتفت يمينا ولا شمالا ، وكأنما لايوجد فى الدنيا ما يستحق من راسى عناء الالتفات . وألقيت بنفسى فى أول سيارة صادفتها . وقبل أن تتحرك السيارة ، مرت بجوارها عربة نقل محملة بقدور ( فناطيس ) مليئة بماء عذب . وما ان لمحنى الحوذي الكهل ،حتى أسرع الى مرحبا .. ذلك كان « رجب أغا » السقاء . ولكم سعدت بتحيته ، فلقد كان هو الشخص الوحيد الذى بدد هذه الوحشة الاليمة ! ..وابتسم ابتسامة عريضة ، أظهرت أسنانه المصفرة الصدئة . وبعد ان سأل عن صحتي وأحوالى ، قال : « **أسمعت يا سيدتي بأن منزلكم بيع مرة ثانية منذ ايام ؟ .. انه الآن خال ، فى انتظار المشترى الجديد ! .. لقد سمعت من الحارس أنه لن يحل به قبل الصيف ! »**

وحدقت عيناى فى مياه البحر ، أبحث عن أملى البعيد .. المختفى فى عباب القدر ، وسألته بصوت خافت : « ترى بكم اشتراه ؟ » . فأجاب : « سمعت انه دفع لليهودى ستة الاف ليرة نقدا » . وانتابنى دوار مفاجىء .. ورأيت ارقاماًمختلفة الالوان والاحجام تتواثب أمامى ، بينما كان عقلي يردد : «ستة الاف .. ستة الاف » ، ويكرر هذا العدد فى جنون ، دون كلل أو ملل ، وكأنه ارتبط به برباط محكم .. فأنا أعرف أن



عشي الجميل كان لقمة سائغة ، ابتلعها اليهودى المرابى دون مضغ .. فلقد انتزع البيت منا مقابل ثلاثة الاف ليرة عجزنا عن تسديدها ، وها هو ذا الان يبيعه بضعف الدين !

* * *

**جلس** أستاذى على طرف الفراش بجوارى ، ويده تداعب جبهتى الملتهبة .. وراح يبين لى عاقبة سوء تصرفى ، وعاتبنى كما يعاتب طفلة فى العاشرة من عمرها ! .. واستمعت لحديثه دون أدنى اعتراض ، حتى اذا ختمه ، أخذت يديه بين يدى وقلت له : « أنك على حق ، فان الخروج دون مشـورتك ، وفى يوم ردىء الجو ، ذنب كبير أطلب من أجله عفوك ، ولكن .. **تأكد يا أسـتاذى أن درجة حرارتى لم ترتفع من رداءة الجو ، أو من تعب الطريق ، وانما رفعتها كلمة صغيرة فوجئت بسماعها فكان لها أثر سىء ، أفقدنى القبس الواهى من الأمل ، الذى كان ينير حياتى ! »**

ثم رويت له ماحدث بالتفصيل . وفى النهاية ، قلت والدموع تنساب من عينى : « تصور !.. لقد بيع بستة الاف ليرة !.. ترى كم سنة تلزمنى لادخار هذا المبلغ ؟ » .. ولمست حنانه الفياض وعطفه الابوى ، وهو يحدثنى حديثا طويلا ، لم أحاول فهم مغزاه ، ولكن صـوته ـ المشابه لصوت أبى ـ أعاد الى قلبى المضنى اطمئنانه ، والى روحى الشاردة الثقة بالحياة : « ثقى تمام الثقة بأنك لن تكونى بمفردك فى هذا الجهاد ، بل سأكون بجوارك أشد أزرك ، وسترين أننا سننجح فى جهادنا ، وننقذ البيت من أيدى الغرباء فى أقرب وقت .. ومن الغـد سأعطى دروسا خصوصية للاولاد ! » .. ولم أتمالك نفسى فضحكت ، وأغرقت فى الضحك فسـألنى : « ماذا يضحكك يانوران ؟ »

**ـ يضحكنى منظر « نوران » وهى تسير فى دروب حديقة**

عشها الجميل ، وقد امسكت عصا بيدها تتقى بها عثرات ساقيها المرتجفتين ، ورفعت يدها الاخرى لتتقى نظرها الضعيف وهج شمس الصباح ، وقد تهدل شعرها الابيض على كتفيها ..

ورحت اضحك فى انفعال ، وانا اتصور كم من السنين يتطلبها ادخار الثمن !

**( بشيكطاش ) فى : ١٥ يناير**

• **منذ** خمسة عشر يوما وصديقى الكهل فى رحلة للصيد ، ولكنه للآن لم ينجح فى اصطياد عمل سمين – ولا أعجف – لى ! .. وهو لا ينفك يقول لى ، مصطنعا المرح : « ان مع العسر يسرا يافتاتى ، وعلينا أن نطرق الابواب تباعا .. ففى ابواب الرزق متسع للجميع ! »

وكان راسى – طوال هذه المدة – مشغولا بافكار خيالية لكسب العمل .. أفكار أتعبتنى وجعلتنى أغادر المسكن بالامس لاتخلص منها . فسرت فى طريق ( بيه أوغلو ) على غير هدى ، أنظر هنا وهناك دون مقصد .. وقد لفت نظرى من آن لآخر اعلانات السينما المصورة المعلقة على واجهاتها . تجتذب الانظار بألوان زاهية لاحظت أنها لا تمت لفن الرسم بأى صلة .. **وخطرت ببالى فكرة لم تعن لى من قبل ، فسألت نفسى : ((ترى أين تصنع هذه الاعلانات ؟ ومن الذى يقوم باعدادها؟)). ودفعتنى هذه الفكرة الطارئة الى دخول أول دار للسينما صادفتنى** . ورأيت حائط البهو الكبير مكسوا بلوحة كبيرة جدا ، تعلن عن « الفيلم » القادم ، وتمثل حياة الصحراء ، وقد ظهر فيها فارس بدوى يمتطى صهوة فرس ، وأمامه فتاة مليحة تحاول الافلات منه ، ووراءهما جميع غفير يعقبون الفارس متوعدين ! .. وقارنت بين خيل العرب البديعة

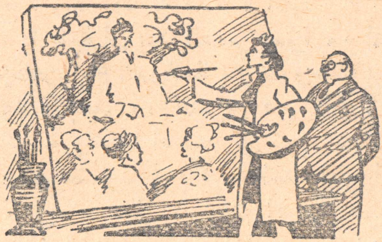
والجواد الذى ظهر فى الصورة وكأنه حصان خشبى مما يلهو به الاطفال ! .. واين قامة ابن البادية وتناسق أعضائه ، من هذا الرأس الكبير والساقين القصيرتين؟ !

وبعد حديث قصير مع الشاب الواقف بجوار الباب ، كنت أخطو الى غرفة مدير الدار وصاحبها .. وما كان أعظم شبهها بغرفة « فريحة » ! فأينما نظرت وقع بصرى على صور أشهر الممثلين .. والى يسار الباب ، كان ثمة مكتب فخم ، انحنى عليه رجل بدين الجسم ، أحمر الوجه ، يؤشر على أوراق .. وأمامه فتاة شقراء تجيب عن أسئلته باللغة الالمانية . ولما شعرا بدخولى ، رفع الرجل رأسه وقال دون أن يترك لى فرصة للكلام : « انتظرى قليلا ! » . حتى اذا فرغ من عمله ، نظر الى متسائلا ، فضغطت على حقيبة يدى بكل قواى ، وكأننى أستمد منها قوة ، وقلت : « **اننى كريمة الرسام المعروف « فريدون بك »** . **وقد كنت سائرة فى الطريق ، فاستلفتت لوحاتكم المصورة نظرى ، وخطر لى أن أسألكم عما اذا كنتم فى حاجة لرسام فنى يجيد الرسم !** » . فقال الرجل : « لست أمانع فى قبولك اذا أظهرت مقدرة فى القيام بهذا العمل ! » . وسحب احدى المجموعات المصورة التى كانت امامه ، وأشار الى صورة غلافها قائلا : « فنحن سنعرض بعد أسبوعين هذا الفيلم ، ونريد الاعلان عنه بكافة الطرق ، لانه أجمل وأقوى دور قام به « توبر » .. ونحن نفكر فى تكبير نسختين من هذا المنظر ، احداهما للبهو كالعادة ، والاخرى سنضعها على ناصية الطريق ! »

وتناولت المجموعة فتأملت صورة غلافها فى انعام .. كان « توبر » يجلس على عرش ذهبى مرصع باليواقيت ، وهو يمثل « امبراطور الصين » ، وحول عرشه فتيات صينيات راكعات فى خشوع ، متطلعات اليه بعيون سوداء . فقلت له فورا ، وأنا اشير بيدى نحو صورة « نورماشيرر » المعلقة فوق

راسه : « سأكبر المنظر فى حجم هذه الصـورة ، واحضره حالا ! » . ولا أدرى هل خامره الشك فى مقدرتى ، أو انه لم يطمئن الى جوابى ، اذ قال : « هـذا الحجم كبير من اجل تجربة ، وسيكون تعبك بلا ثمرة ! » . فابتسمت قائلة : « بل أنه أفضل ! »

وفى أثناء عودتى ، اشتريت كل ما يلزم للعمل . وما ان وصلت الى المنزل ، حتى أعددت أدوات الرسم .. ادوات أبى الحبيب ، التى أنقذها أستاذى من المزاد البغيض . ونظرت — بعينين دامعتين وقلب واجف — الى آثار يديه التى ظلت ثابتة ، بالرغم من رحيله . وأمسكت بفرشـاته ، وناديتـه هامسة : « ساعدنى يا أبى ، وامسك بيدى لانجح ! »



( بشيكطاش ) فى : ٢٥ يناير

• أتممت الرسم بنجاح ، طبقا للاصل . وقد آثر أستاذى أن يحمله بنفسه الى مدير دار السينما ، ليتحدث اليه بنفسه .. وعندما خلوت الى نفسى ، حرت فيما أفعل ، فناديت « خالدة » .. وجلست تراقبنى وأنا اخطط ما عن لى تصويره على الورق من زهور يانعة وفراش هائم .. وبين وقت وآخر ، كنت أترك فرشـاتى لاملأ الحاكي ليكرر لى

النغمات عينها التى كانت تهز مشاعرى . وفجأة قالت « خالدة » ، وكأن صدرها ضاق بما يكتمه : « ألم تسمعى ما قاله الحاج فاضل لحكمت بك يا أبلة ؟ » .. ولم أفقه ما تعنى ولكنى قلت : « لا يا خالدة .. وماذا قال ؟ »

**ـ طلب يدك لابنه .. ولكن حكمت بك قال له أنك مخطوبة !**

وضحكت ثم سألتها : « أحقا قال أننى مخطوبه ؟ .. مدهش! » . فتساءلت : « ألم يكن صادقا يا أبلة ؟ » . وتريثت برهة أفكر ، ثم قلت : « انما أبدى هذا العذر حفظا لكرامة جاره يا خالدة ! »

وفى تمام الساعة الرابعة دخل استاذى وبشاشة وجهه تنبئنى بما يحمله لى من انباء سارة تعمد أن لا يقولها فورا . وبعد أن ارتاح ، وأعددت له قدح « التيليو » الساخن ، قال : **« ألم اقل لك يا بنية أن بعد العسر يسرا .. لقد رأيت فى دار السينما صديقا من أيام الدراسة ، وقد رحب بى والبشر يضىء قسمات وجهه المجعد .. أتدرين من كان ؟ .. كان والد مديرك يا فتاتى . وهكذا أصبح كل شىء سهلا بعد هذا اللقاء العجيب .. وهو ينتظرك فى باكورة الغد يا نوران ! »** . فقبلت يده امتنانا . وبعد قليل تذكرت أقوال خالدة ، فقلت له ضاحكة : « بلغنى أن الحاج فاضل طلب يدى لنجله ! » . فتساءل : « من الذى أبلغك هذا الخبر ؟ »

**ـ خالدة .. ألا تعرف أن هذا الخبر هو الشىء الوحيد الذى تهتز له أوتار قلبها المسكين ؟ .. ان كتمانك هذا الامر عنى أثار دهشتى .**

ـ وما فائدة معرفتك اياه ؟.. اكنت تنوين قبوله ؟ .. اننى لم أوله نظرة جدية ، لاننى أعرف جوابك !

وتضرجت وجنتاى ، وأنا أسأله متلعثمة : « ولماذا قلت انني مخطوبة ؟ » . فنظر الي من فوق عدستي منظاره ، وقال

متحابيا : « ان كنت تخشين العنس ، ففى وسعى أن اكذب اقوالى يا نوران ! »

**( بشيكطاش ) فى : ١٥ فبراير**

• **اصبحت** أبارح المنزل فى الصباح مع أستاذى ، الى دار السينما .. ولا أدرى لماذا أتذكر « فريحة » فى هذه الايام .. هل يكون ذلك لكثرة رؤيتى قصرها الفخم من نافذة غرفة عملى ، أم هو احساس باطنى من الاحاسيس الالهية المجهولة التى كثيرا ما تنبىء المرء بالشيء قبل حدوثه ؟ .. لا أدرى . ولكنى شعرت بالامس بملل من عملى المتواصل ، وأغرتنى الشمس الساطعة بالسير تحت أشعتها .. وفى أثناء سيرى ، شعرت بيد تقبض على معصمى ، وصوت رقيق يقول : « هاللو !.. هالو ! »

ورأيت فريحة تبتسم لى ، وقد أخفت قدها الريان تحت معطف من الفرو الابيض الثمين .. وفى لحظات وجيزة أسمعتنى أشياء جمة .. قالت : **« انك نحفت جدا يانوران ، وقد ازددت شبها بدولوريس ديل ريو .. الشعر الاسود اللامع ، والبشرة الخمرية الفاتنة ! .. اين كنت ، وماذا فعلت طول هذا الوقت الطويل ؟ .. يا لك من فتاة ! .. حتى مجرد السؤال عنا ، لم تجودى به .. يا لك من متكبرة ! .. برافو ، برافو دارلنج ! »**

واكتفت باجاباتى المقتضبة ولم تر ما يدعوها لاستيضاح أحوالى ، وكان تعليقها على مرضى الطويل أن قالت : « أوه ، لا بأس عليك ! .. ولكنى مع ذلك أقول : حمدا للمرض ، فقد أنحفك ، فزادتك النحافة حسنا ! » . وأطلقت ضحكتها الرنانة ، وبدأت تثرثر كعادتها : « ما أحسبك تتصورين ما حدث فى الفترة التى افترقنا فيها عنك .. « ياسيدنا الشيخ »!

.. لقد حدثت أشياء وأشياء .. تشاجرنا مع خالتي الكبرى، وكانت موقعة حربية ، ليتك رأيتها !.. ولقد سافرت أمي الى ( فيشي ) عملا بنصيحة الدكتور ، وفي رفقتها أبي.. وأنا الآن أقطن في احدى العمارات « المودرن » ، وقد عاد أخي عدنان من أوروبا .. آه ، لو رويت لك كل شيء بالتفصيل ، لاقتضى ذلك مني اياما بطولها . ولكني لن أدعك تفلتين من يدي مهما اعتذرت ! .. سنزور الآن « شابونجاكيز » ، ثم « جاويدة » الخياطة ، ثم نذهب الى المنزل ! »

**ــ ساصحبك الى أن ينتهي عملك مع الخياطة فقط ، لاني لم أخبر أستاذي ، وأخشى أن يقلقه تأخري عن موعدي المعتاد ، ولكني أعدك بزيارة قريبة جدا ، لنعوض ما فاتنا ونطفيء أشواقنا !**

ــ يا شيخة ! .. أخبري أستاذك بالتليفون !

**ــ من اين يكون لمنزل ــ في أحد أزقة بشيكطاش الموحلة ــ تليفون يا صغيرتي ؟**

ثم ضحكت .. وحسما للجدال الذي ثار بيننا ، قبلت دعوتها أن أتناول الغداء معها باكر .. ومضت تثرثر اثناء سيرنا : « انني لم أصل الى ( استامبول ) الا منذ شهر واحد، ولو كان الامر بيدي لما عدت اليها أبدا ! .. الا ما أجمل حياة التنقل من بلد الى آخر يا نوران ، ولكني عدت لان زوجي مقيد بعمله هنا ! » .. وبلغنا متجر « شابونجاكيز » للزهور .. ورأيت فريحة تأمر العامل ، وتتحدث مع العاملة ــ مهرجة ضاحكة كعادتها ــ وهي توصيها بزيادة الاعتناء والمحافظة على ما انتقته . ثم خرجت .. **وتأملت وجهها الذي أوتي فتنة جمال الاطفال البريء ، وقلت لها بعد أن تابعنا سيرنا مرة أخرى : « أنك لم تخبريني عن الشيء الوحيد الهام الذي شغل بالي دائما .. أسعيدة أنت يا فريحة ؟ »** .. فسألتني : « مثل ماذا ؟ »

**ـ أقصد .. هل تحبين زوجك ؟**

فنظرت الى نظرة غريبة ، وقالت : « ســؤالك الاول ، لا يتسق مع الثاني ! » .. وشــعرت بنظراتى القلقة تتفحص وجهها ، فضغطت على ساعدي وقالت : « فيما بعد يا نوران .. ستعرفين كل شيء عندما تحضرين عندى ! » . وعلى أثر هذا الحديث القصير ، انطفأت شعلة المرح التى كانت تضيء أعماقها وتنشر البشر على محياها ، وسادها سكون وتفكير .. ترى متى أرى روحها مجردة من هذه الانفعالات المصطنعة ، وأميز بين عواطفها الحقيقية وعواطفها المتكلفة ؟ !

وبعد قليل كناأمام باب خياطتها .. « جاويدة » . وانفتح الباب ، واستقبلتنا فتاة رقيقة ، ابتسمت مرحبة ، ثم قادتنا الى غرفة الاستقبال . وسرعان ما أقبلت علينا سيدة شابة ، جميلة المحيا ، لطيفــة الحديث ، اســتقبلت فريحة مهللة مرحبة ، وقبلتها قبلات مشتاقة .. وفهمت من ســياق حديثهما أنها « جاويدة » صــاحبة دار الازياء .. وراحت فريحة تحدثها ، وكأنى بها تود أن تسرد كل ما رأته فى البلدان التى زارتها .. وما لبثنا أن اندمجتا فى حديث « الموذة » وآخر تطوراتها ، وباريس وآخر أزيائها .. ووجدته حديثا مملا ، فجلست بجوار احدى المناضــد العامرة بنماذج الازياء ، أتصفح المجموعات المنتشرة عليها . وبعد وقت لا أدرى أطال أم قصر ، طرق سمعى صوت « جاويدة هانم » تقول : **« من المؤسف أن لا يتجه واحد من رسامينا بريشــته نحو هذا العمل المنتج ! »**

ولم تدع فريحة فرصة التفاخر هذه تمر دون أن تستغلها ، فسمعتها ترفع فنى الى السماء ، وتضــع على جبينى تاج المجد ، وتجعل منى شخصية بارزة فى المجتمع ، يعتد برأيها فى فن التصوير . وكانت تشير نحو شخصى المسكين وتكرر « ماكوزين » ، أى ابنة خالتى ، ثم تكيل المدح والثناء بغير

حساب ، فما لبثت « جاويدة هانم » أن قالت لى : **« ألم تفكرى فى استغلال مواهبك فى هذا العمل الناجح ، ولك من أنوثتك ما يكفل لك التفوق فى مضماره ؟ .. أن احساسك سوف يقودك دون شك نحو الكمال ، لو كانت قدرة الابتكار والتخيل قوية عندك .. آه ، لكم أنا آسفة لجهلي فن الرسم ، والا لخلقت بريشتي أزياء مدهشة أغرى الكثيرات بارتدائها ، دون اللجوء الى الازياء الاوروبية التى تكلفنى كثيرا ، ولا تفى بالغرض المطلوب ! »**

وشعرت فريحة بارتياحى لحديثها فقالت : « ادرسا هذا الامر معا ، أما أنا فسأنصرف ! .. لاتنسى موعدنا يا نوران ! »

وبعد خروجها ، انتقلنا الى غرفة المكتب المجاورة .. وهناك ، أرتنى « جاويدة » نماذج ملونة على ورق شفاف ، وقالت : **« من المحتمل أنك لم تهتمى بتطورات الازياء قبل الآن .. هذا لا يهم ، وهذه النماذج الحديثة تبين لك كل ما فاتك أمره ، وفى بدء العمل ، ستعملين تحت ارشادى ، الى أن تكتسبى الخبرة المنشودة .. وبمساعدتك ، ساستطيع أن أخرج الى الوجود النماذج الانيقة التى مللت اختزانها فى راسى ! »**

وراحت تبين لى تطورات المودة وخطواتها الاساسية عمليا ، وأنا أنصت اليها .. وفى النهاية قالت : « سيكون أساس التعامل بيننا حسب قيمة النموذج ، على أن يكون الحد الادنى خمس ليرات ، والحد الاقصى عشرا » . وافترقنا على أن نلتقى فى الساعة الخامسة من بعد ظهر غد .

وفى الليل ، رأيت فيما يرى النائم فتيات جميلات يعرضن على أثوابهن الفاخرة ، وفى يد كل منهن مروحة من ريش النعام المصبوغ بألوان زاهية . وكانت افواجهن تسير أمامى دون انقطاع ، الى أن استيقظت من نومى !

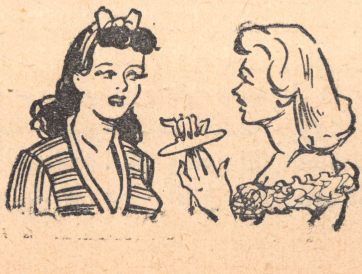
**وفى هذا الصباح ، وقفت أمام المرآة مدة أطول من عادتى . وترددت برهة وأنا أنتقى الثوب الذى سأرتديه ، ولعل روحى**

**تشبعت من جو (( المودة )) دون ان افطن .. وكان على ان اعمل فى اعلان الفيلم المضحك ، فحيل الى ان (( هاردى )) ابتسم وانتشى من شذى (( الليلا )) المتضوع فى ثنايا شعرى ! ..**

وبارحت عملى عند الظهر ، فذهبت الى منزل (( فريحة )) . ويغلب على ظنى أن الخادمة كانت على علم بمقدمى ، لانها قادتنى توا الى غرفة نوم سيدتها . وقفت برهة بجوار الباب اتأمل مبهورة الانفاس جمال تنسيق هذه الغرفة .. انها أشبه ما تكون بعلبة الحلوى ( الملبس ) المبطنة بالحرير اللامع ! .. وسريرها الكبير الفخم أقرب ما يكون الى عرش ملكه محبة للرفاهية ! .. والمرايا تلمع فى كل مكان، ومنضدة الزينة تحمل الكثير من زجاجات العطر الثمين لمتفاوتة الاحجام .. !

وفيما أنا كذلك ، انشق الحائط المقابل، وخرجت (( فريحة )) - من باب الحلم الخفى - فى رداء وردى جميل ، لم أعرف تماما أهو ثوب للسهرة أم ثوب للحجرة ، وبين أناملها فرجون (( المانيكير )) ، وهى منهمكة فى صبغ أظافرها .. كانت أشد فتنــة منها فى أى وقت مضى ، وقد اختفت براءة الطفولة وسذاجة الصبا من قسماتها ، وأضفت روعة الانوثة الناضجة على وجهها سحرا غامضا وفتنة مبهمة .. !

**وانقشع الجمال الغامض الذى يجتذب النظر ويثير الحيرة، وتلك الفتنة الساخرة التى تشع من عينيها العميقتى الغور ،**



**وهى تتحدث حديثها المصطنع وتحرك يديها حركاتها المتكلفة، وعادت الى سافرة .. وباحت لى بسر قلبها دون مقدمات، اذ قالت :** « صادفت زيارات خيرى لنا تدهور أعمال أبى . وأنا - كما تعلمين - لا أطيق أن أضحى بكمالياتى ورفاهيتى، اللتين تعودتهما منذ الصغر .. لذلك قبلت فى الحال عرضه، حين طلب يدى من والدى .. لم أفكر فى شكله ولا فى سنه، وانما كنت أمنى نفسى بتحقيق كل طلباتها، وكنت أشعر بهناءة وطمأنينة لزواجى من رجل ثرى، يستطيع أن يحقق كل رغباتى ! .. ولقد ظننت أنه يعبدنى لجمالى وصباى، فأنا أصغره بخمسة عشر عاما أو أكثر . وخيل الى أننى سأكون معبودته التى يسجد تحت قدميها، مرتلا صلوات الحب فى السحر والاصيل .. يرى الحياة بعينيها، ويتحدث بفمها ويلبى اشارتها .. ولكن ظنى خاب - للاسف - وتبينت أنه ما تزوجنى الا ليزهو بى أمام المجتمع، وكأننى تحفة بديعة يضمها الى مجموعته ويعرضها على زائريه ! .. **انه رجل ساقط يا نوران .. ساقط، وسافل ! .. لك أن تصفيه بأقبح النعوت، فهو بها خليق !.. وقد رأيت سقوطه بعينى رأسى هاتين، اذ فاجأته يقبل خادم الفندق - فى الحمام - قبل مرور شهر العسل !**

« وكان الشرف يحتم على أن أنفصل عنه فى هذا الوقت، ولكنى تغاضيت وأغمضت عينى، خشية أن أفقد هذه الحياة التى أحبها، والرفاهية التى أرفل فيها .. وتكررت حوادثه فى كل مكان نزلنا فيه، بشكل مفضوح . ولكنى - مع كل ذلك - لم أحرك ساكنا . **ويقولون يا نوران ان الانسان حين يسقط أول مرة، يسهل عليه السقوط مرات .. وهذا حق. لاننى بعد مدة قصيرة كنت أخدعه بدورى .. خدعته مرة، ثم مرات، ثم دائما ! .. ونحن الآن نحافظ على المظاهر أمام الناس، ويعتقد كل من يرانا فى المجتمعات أننا أسعد زوجين.**

**ولكن الحقيقة يا نوران اننا غريبان يعيشان تحت سقف نزل واحد ، يعرف كل منا مخازى صاحبه ويتعامى عنها ! .. »**
ثم أطلقت ضحكات هيستيرية غريبة ، فقلت وانا منكسة الرأس : « لقد جنيت على نفسك يا فريحة ! »

**ـ يا شيخة ! .. ومع ذلك فأنا سعيدة جدا !**

ـ سعيدة ؟! اسعيدة أنت وسط هذه الكوميديا القذرة ؟..

ورمقتنى بنظرات ساهمة لم أرتح اليها ، ثم بدأت فى سرد قصة حبها .. وارتج عليها وهي تصارحنى بأن عشيقها الشاب ما هو الا شريك زوجها ! .. فقلت لها وقد اشتدت حيرتى : **« ولم كل هذا الخداع ؟ .. انفصلى عن زوجك ، واقترنى بحبيبك ! »**

فنظرت الى مشفقة بجهلي بمثل هذه الامور وقالت : « مستحيل يا نوران ، لان أية ضجة من هذا النوع ، تقضى على أعمالنا الناجحة ، وتورثنى المرارة اللاذعة فى النهاية .. لا سيما أن زوجى هو صاحب الحصة الكبرى فى العمل ! » .
وأدركت من نظراتها أنها غارقة الى أذنيها فى هذا الحب الآثم ومغرمة بشريك زوجها الى حد الجنون ! .. ورثيت لهذه المخلوقة التى تشعر بالسعادة فى هذا الجو الدنس ، وتطمئن لسير حياتها المزدوجة هذه ، وتهين كرامة أنوثتها ، فترتضى زلات زوجها راضية ، من اجل الجاه والمال ! .. ولعل تقززى تراءى على قسمات وجهى لانها قالت :

ـ لا تقارنى بينى وبينك يا نوران ، فانت فتاة شاذة .. عقلك وذكاؤك فى عمل دائم ! .. من المستحيل أن تفهمى مشاعرى وتدركى احساسات قلبى ، طالما ظلت عواطفك راكدة ، وقلبك مغلق دون التيار الكهربائى الذى يضاعف وجيبه

وفى هذه اللحظة دخلت الخادم فذكرت لسيدتها أن « ابنك » تحدث تليفونيا ، ليرجوها ألا تنتظره للغداء ، لان بعض الامور الهامة تستدعي بقاءه .. فما لبثنا أن جلسنا الى المائدة

متقابلتين .. وسرحت نظرها فى كل شىء يحيط بنا بحنان الام اذ ترمق وليدها ، وقالت : « لقد ابتعنا كل هذا من فيينا ! » .. وكان كل شىء ينبىء عن ذوقها السليم ، وينم عن الثراء والترف الذى يرفل فيه أصحاب هذا العش الغالى ، المحروم من الوفاء والشرف !

وحضر شقيقها عدنان بك ونحن نرتشف قهوتنا فى غرفة الاستقبال . ولم أكن قد رأيت ابن خالتى هذا منذ عشر سنوات ، ومع ذلك فقد شعرت كأننى لم افترق عنه الا منذ وقت قصير ، اذ وجدته طبقا للصورة التى رسمتها له فى خيالى .. حتى فى طريقة كلامه وحركاته ! .. كانت ملامحه قريبة الشبه من ملامح « فريحة » ، ولكن بشرته كانت أنضر ! .. وكان طويل القامة ، عريض الكتفين بشكل يلفت النظر لكثرة القطن الذى حشى به كتفا سترته ! .. أما عيناه فكانتا داكنتى الزرقة ، تحيط بهما اهداب سوداء منثنية الاطراف . وكان يعلو فمه شاربان ذكرانى ببعض السيدات اللائى يسرفن فى « ترفيع » حواجبهن ! .. اما شعره فكان أسود لامع ، أقرب الى الطول منه الى القصر ، وقد انسدل على قفاه ، على الطريقة الباريسية ! .. وتشوب حديثه لكنة اجنبية مصطنعة ، كحركاته المتكلفة المضحكة ، التى فكرتنى بأفلام الصور المتحركة .. وقد سمعت من فريحة انه عاد من فرنسا اخصائيا فى أشياء كثيرة غريبة ، لا تمت بصلة الى الهندسة التى سافر ليتبحر فى دراستها !

ومددت له يدى مرحبة .. وبدلا من السلام المألوف ، رفع يدى الى فمه وقبلها . ثم انحنى بحركة تمثيلية . وحدثنى فكان مبالغا جدا فى مجاملته ، حتى انه لم ينس أن يعرب لى عن شعوره وعظيم اعجابه باعلان سينما « م ... » الرائع ! .. وكان طيلة حديثه يتأمل صورته فى المرآة المقابلة له ، من طرف خفى . وذكر فى لحظات كل شىء يعرفه ، عدا عمله

ومركزه فى الحياة .. ذكر ما سمعه فى النادى ، وحظ « فلان » المدهش فى القمار ، والسيارة « اللنكولن » البديعة التى ظهرت حديثا ، وآخر أخبار كرة القدم ، واسم الفائز فى مسابقات التزحلق على الجليد فى سويسرا !.. وكدت اتثاءب لفرط الملل . وفجأة ، رايت « فريحة » تنصت لحديثه وقد دب النشاط فى أوصالها الخاملة ، اذ قال : « هل علمت أن « باللو مكسيم » سيكون حفلة تنكرية ! » . فاعتدلت وقالت: « أحقا ؟ .. فكرة مدهشة .. أليس موعده ٢٩ فبراير ؟ »

وشاع السرور على قسمات وجهها الفاتن ، وشفت مقلتاها اللامعتان عن ابتهاجها ، وهى تتساءل عن التفاصيل الهامة وفى هذه اللحظة رن جرس التليفون ، فبارحت « فريحة » مكانها لتلبى نداءه . ولم اسمع حديثها ، لان عدنان بك شغلنى عنه بحديثه عن هذه السهرة الهامة ، وهو يلحف على فى حضورها .. ولكنى لم ألبث أن سمعت فريحة تقول : « انها هنا ! » . وأشارت بيدها ، ومدت لى مسماع التليفون . وكانت المتكلمة « جاويدة هانم » ، كما حدست وقد شابت حديثها حماسة بعثتها أخبار « الباللو » التى وصلتها هى الاخرى بدون شك ، فقالت : « أرجو أن تحضرى حالا لاشرح لك النماذج التى لم يفكر فى بعثها للحياة انسان قبل الآن .. اننى أريد أزياء فذة غريبة ، بعضها من العصر التركى القديم ، وأخرى من بطون القصص العالمية الخالدة ! »

واستجابة لالحاح عدنان بك ، قبلت ان يقلنى فى سيارته « الاسبور » .. وسرعان ما كانت السيارة تسابق بنا الرياح ، وقد شغلت بالتفكير فى بعض الازياء التى ورد ذكرها فى الاساطير .. وقال ابن خالتى اذ فطن الى صمتى وانشغالى : « أحسبك مشغولة فى اختيار الزى الذى تظهرين به فى الحفلة .. الم تستقرى على رأى بعد ؟ » . فأجبت بابتسامة ، على سبيل المجاملة ، لاننى لم اشعر بميل للحديث .

وكنا قد وصلنا فأسرع بالنزول ، وامسك بباب السيارة ، واعقب على حديثى وهو يحدق فى وجهى بنظرات غريبة لم اتمكن من نهم مغزاها : « نحن اليوم فى ١٥ فبراير ، والمرقص فى ٢٩ منه ، وأعتقد أنك ستغيرين رأيك وتحضرين ! » . فقلت وأنا أكبح غيظى : « لن يحدث هذا يا عدنان بك ! »

* * *

اقتربت الساعة من نصف الليل ، واستاذى نائم فى فراشه وراء الحاجز الفاصل بيننا ، كالمعتاد .. وأنا لا أزال جالسة أمام المنضدة ، أكتب كل ما صادفنى فى يومى ، مجتهدة الا انسى دقيقة من دقائقه .. ولا أدرى لماذا أنا مضطربة الوجدان ، مشمئزة مما صادفنى ! .. لعل حياة « فريحة » المزدوجة سببت لى كل هذا الاضطراب والخوف من شىء مبهم .. كطفل أذنب ، وأسلم قلبه الصغير للخوف والفزع ، فى انتظار العقاب المنتظر ! .. يا لله من هذه الحياة المنافقة الكاذبة ! .. لقد رحت ـ عقب عودتى ـ أفكر فى هذا العالم الغريب الذى عشت فيه طوال يومى ! .. ولمحت « خالدة » وهى تدخل الغرفة ، وتجلس ساكنة أمام المدفأة ، تعبث بأوتار عودها ، فلم اكلمها ، ولا هى أنبست ببنت شفة ..

**( بشيكطاش ) فى : ٢٢ فبراير**

• **انقضى** أسبوع وما زلت أضحك كلما فكرت فى عميلات « جاويدة هانم » .. لقد وفقت فى اظهار محاسن قاماتهن الرشيقة ، فيما ابتكرت لهن من أزياء للحفلة الراقصة . ولكن ، اى نجاح ! .. لقد قضيت الليالى عاكفة على لوحات كليوباترا ، وتيودورا ، وديانا ، أقتبس ، وأبتكر ، وارسم .. **ولكن العميلات كن يهوين بخيالى الى الحضيض بآرائهن وأجسامهن .**

وذات صباح ، حضرت شابة سمينة ، ذات عينين

خضراوين ، وشعر أصفر ، سمعت أنها قرينة احد كبار التجار الاثرياء .. ولست أدرى من أوعز اليها بأن تريد زى « كليوباترا » ، فحاولت « جاويدة هانم » اقناعها باختيار زى غيره ، ولكنها أصرت على التشبث به ، حتى أخبرناها بأن سواها قد اختارته ، وقد تم صنعه لها .. وأخيراً رضيت بشهر زاد عن كليوباترا بديلا ، بعد أن نال منا الاجهاد مناله .. وبعد أن مرغنا كليوباترا المسكينة فى الاوحال ، ورفعنا من قدر شهر زاد الى أعلى عليين ! .. وراقت لها حبات اللؤلؤ المنظوم فى حلقات مستديرة حول العمامة الصغيرة ، وأعجبت بالسروال الشرقى اللامع ، وصداره الصغير المقصب

وبينما كنت منهمكة ــ مساء أمس ــ فى تلوين بعض النماذج التى أعددتها ، وقد نام أستاذى ، أقبلت « خالدة » فى هدوء ، والتصقت بى ، وراحت تتأمل فى فضول ثوبا واسع الذيل ، مرتفع الصدر ، من طراز « بومبادور » . ثم سألتنى قائلة : **« ألم تفرغى بعد من هذه الصور ، يا أبلة ؟ .. ترى ماذا كنا نلبس لو ذهبنا مثلهن الى ذلك المكان ؟ »**

وفى الحال تراءى أمامى ابن خالتى ، وما بدا عليه من ايمان بضعفى ازاء رغبات الشباب ، ومن اقتناع من اننى لا بد سأنتهى الى حضور الحفلة الراقصة برغم رفضى .. وتذكرت ميل « فريحة » الى الاخذ برأيه ، ومجاهرتها به كلما زارتنى فى « الاستوديو » ، فضحكت قائلة : « هل سرت اليك ــ أنت الاخرى ــ عدوى الذهاب الى المرقص يا خالدة ؟ » . فقالت : « الذهاب الى أين ؟ .. لست اعرف عن هذا المكان شيئا ، ولكنك شوقتنى بحديثك عن كل صورة رسمتها .. هلا رسمت صورة لى يا أبلة ؟ »

فنظرت الى وجهها الشاحب ، وشعرها الاصفر ، وجديلتيها المنسدلتين على كتفيها ، وقلت لها : « بكل سرور يا خالدة .. سأرسم لك صورة غدا ! » . ولم يخطر ببالى



انها استوعبت ما قصصته عليها من أساطير عن الشخصيات التى كنت أقتبس عنها الازياء .. ولكنهـا تطلعت الى فى فضول ، متسائلة : « وأنا .. من اكون يا أبلة ؟ »

**ـ فتاة طاهرة ، جارت عليها الدنيا بغير وجه حق،ففارقتها وفى قلبها حسرة ، ولكنها الآن قديسة !**

ـ قديسة ؟ ! .. وما قصتها ؟

وكان الملل قد سرى الى لكثرة العمل، وخدر التعب تفكيرى، فلم أقص عليهاقصةالشخصية التى اخترتها لها،بل اقتضبتها قائلة : **« فتاة ساذجة أحبت ! .. أحبت بكل قلبها ، وأخلصت الاخلاص كله لعواطفها ، ولكن ودها النادر لم يقابل اهله ، فاشتد بها اليأس . وذات يوم ، أرادت روحها الطاهرة النقية أن تتحرر من سجنها وتنطلق مع الهواء ، بعيـدة عن ادران الحياة ، فأوعزت اليها أن تفعل .. وقد فعلت ! »** .. **فعادت الفتاة تسأل مزيدا يشفي فضولها : : ماذا فعلت ؟ » . فقلت :** « ألقت بنفسها فى بحيرة عميقة الغور .. وفى اليوم الثانى وجدوا جسمها الجميل متوسدا زهور « النيفيا » البيضاء ، على شاطىء البحيرة ، وكأنه نائم يحلم بالسعادة المفقودة ، وقد أضفي السلام الابدى عليه رواء سـماويا أخاذ . اما روحها ، فقد انطلقت تسبح فى الاجواء العليا ، سعيدة هانئة ، **لانها نالت رحمة الله الواسعة جزاء اخلاصها النادر ! »**

واغرورقت عيناها بدموع ساذجة . بينما اردفت : (( هكذا يا خالدة .. لو اننا كنا ذاهبتين ، لالبستك زى هذه القديسة الطاهرة ، وهو ثوب ابيض فضفاض .. ولاسدلت شعرك الذهبى الطويل هذا وراء ظهرك .. وأنا من أكون ؟ )).

واستعرضت - فى لحظة - جميع الشخصيات التى بعثتها من مراقدها امام خيالى ، وقلت : (( هملت )) !

ولا ادري ما الذى دفعنى لان أنتخب هذا الزى الرجالى .. اهى بقية من حنين - تخلفت بين حنايا صدري - لشخصيتى القديمة ؟

. . . . . . . .

ولم أخرج ظهر اليوم للغذاء وللراحة من عناء العمل كالمعتاد ، بل جلست الى مكتبى الصغير فى « الاستوديو » الهو بقلمى وريشتى .. وبعد قليل وضح شكل « هملت » على الورق ، فى بزته المخملية السوداء .. وفى أثناء ذلك سمعت جلبة ، فتح على أثرها الباب ، وأعلننى الخادم بحضور « فريحة » و « عدنان » . وسرعان ما دخلا يتمازحان ، وقالا انهما جاءا ليأخذانى معهما للغذاء . وكنت قد أخفيت الصورة تحت الاوراق ، دون أن يخطر ببالى أن فريحة لاحظت حركتى .. وعلى حين غرة منى ، خطفت الصورة بسرعة البرق وهى تضحك عابثة . وصفقت بيديها سرورا ، حين رأت ملامحى جلية واضحة فى وجه هملت وقالت : « مرحى ! .. انظر ياعدنان ! .. ألم أقل انها آتية ! » .. وحركت يدها متوعدة، وهى تقول ضاحكة : « ويل لك منى أيتها الشيطانة الصغيرة ؟ .. اذن فقد كنت تعبثين بى طوال الوقت ، وتخفين سرك بمهارة ، لتفاجئينا بظهورك هناك ! » . وقال عدنان بك ، ونظراته عالقة بالصورة : « وأنا . ألم اقل أن للشباب أحكاما !»

ولم احتمل هزرهما أكثر من ذلك ، فثارت عواطفى المكبوتة دفعة واحدة ، وانطلقت الكلمات من فمي يسابق بعضها

بعضا فى حدة وحنق اذهلت الخليعين : **« انما رسمت هذه الصورة من أجل فتاة يتيمة مريضة فى المنزل ، وليس من اجل الذهاب الى مرقصكم .. ماذا تظنان بى ؟ ! »**

وعندما فرغت من تناول عشائى الليلة ، نتحت حقيبتى الصغيرة ، واخرجت منها الصورتين اللتين وعدت بهما « خالدة » . وناولت أستاذى صورة « هملت » وانا أقول له : « لو اننى كنت طائشة لذهبت انا الاخرى معهم فى هذا الزى ! » .. وعقبت قولى بضحكات كثيرة ، لا ادرى كيف انطلقت .. ولا لماذا انطلقت !

**( بشيكطاش ) فى : ٢٩ فبراير**

• **احضرت** معى الليلة جميع الصور التى استغنى عنها فى دار الازياء .. وما ان تناولنا العشاء ، حتى توارى أستاذى وراء الحاجز فأبدل ملابسه ، ثم نادانى : « تعالى يا نوران فدلكى ظهرى قليلا ! .. هل أوشك أن أمرض ؟ .. لست ادرى لماذا ارتجف ؟ » .. وبعد أن بعثت الدفء حارا فى أعضائه المقرورة ، قبل وجنتى بحنان ، ونظر الى وجهى فاحصا مدققا ، ثم قال : « لماذا انت حزينة هذا المساء ياطفلتى ؟ .. آسفة على انك لم تذهبى الى المرقص ؟ » . فقلت : « ان ما تراه من وجومى راجع الى شدة التعب .. واعجب مافى الامر أننى لم أشعر بأية رغبة فى النوم ، ولو لم تكن « خالدة » معى لما تركتك تنام هكذا مبكرا ! »

وبعد قليل ، كان تنفسه المنتظم يدل على استغراقه فى النوم .. وكانت « خالدة » تجلس بجوارى تتصفح الصور الكاريكاتورية ، واحدة واحدة ، على ضوء المدفأة الذى كان يضفى على الغرفة جوا شاعريا جميلا بضوئه الاحمر المتلاعب، بعد أن أطفأنا المصباح .. **وتمثلت لى الشخصيات المرسومة - والمستمدة من الاساطير - وسط اللهب المتارجح ، فجذبت**

خيالى وراءها حيث بعثت من جديد .. فى المرقص الذى يشع الضوء فى جنباته ، وأصوات المرح والضحكات الناعمة الرنانة تختلط بنغمات الموسيقى الحالمة ! ..

وتمثلت نفسى بين هذا الجمع فى زى (( هملت )) ، وملامحى اقرب ما تكون شبها بنور منها الى نوران ، أتمايل مثلهم مع نغمات الموسيقى بين ذراعى انسان مغلق العينين، شاحب ! وأفقت على طرقات متوالية ، افزعت خالدة ، وجعلتها تقفز من مكانها دون وعى منها ، وتهبط لترى الطارق .

وسمعت صوت سيارة تتأهب للمسير ، ولكن الوقت الذى اضعته فى فتح النافذة ، كان كافيا لان يجعلها تبتعد فلم أر الا نورها الخلفى الاحمر ، وهو يختفى ويظهر فى طريقنا الملتوى .. ورأيت نور مصباح (( خالدة )) ينبسط فوق أرض الشارع ، فيبدد بعض ظلمته ، ثم أغلق الباب ، فارتدت الى الشارع حلكته .. وما لبثت (( خالدة )) أن أقبلت وبين يديها علبة من الورق المقوى ،كبيرة الحجم وقالت : (( لقد فتحت نافذة السلم الصغيرة - قبل أن أهبط - فأبصرت شخصا ينزل من سيارة ، ويضع هذا العلبة أمام بابنا ، ثم قفل راجعا بسرعة دون أن يرفع وجهه الى فوق ! ))

واستيقظ أستاذى على جلبتنا ، فقال بصوت يغالبه النعاس : (( ماذا حدث ؟ )) . وكنت لا أزال حيرى ، فى دهشة من حالنا التى تشبه فصلا من رواية مثيرة ! .. ولاحت على قسمات أستاذى - وهو يتقدم نحو العلبة - ابتسامة غريبة لم الاحظها فى حينها ، ولكنى تذكرتها فيما بعد . وحمل العلبة فوضعها فوق فراشى، واخذ يحل رباطها وهو يردد : ((ماهذا؟ .. هل أمطرتنا السماء علبا مغلقة ؟ )) . وما ان نزع غطاء العلبة ، حتى تبينت - فى لمحة واحدة - ثوب (( هملت )) المخملية السوداء ، دون أن أمد لها يدا . وقلت له وأنا أضحك ضحكات متوترة عصبية : (( ألم تعرف ماهذا بعد يا أستاذى ؟

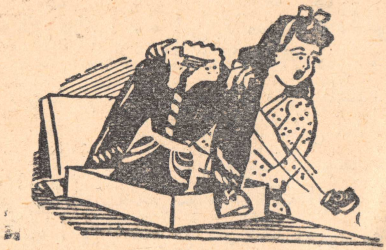
.. هذه صدقة فريحة وعدنان ، التى جادت بها اريحيتهما !
.. انظر! هاهو ذا اسم « جاويدة » مطبوع على غطاء العلبة !»

فأجاب أستاذي وهو يفرك عينيه من النعاس : « صدقة من فريحة وعدنان .. ما هذا التعبير ، وهما أقرب الناس اليك ؟ .. هبى الامر كذلك ، فماذا لو أنهما قصدا ادخال السرور عليك ؟.. لا تكونى طفلة عنيدة ، واقبلى دعوتهما ! » .. وعجبت لامره ، وقلت له : « أية حسرة ، بعد ان تبلج لى الدافع الذي كان يحدو بهما الى تحتيم حضورى الى هذا المرقص.. اننى فى غنى عن احسانهما – ولله الحمد – وسأرد أيهما صدقتهما غدا ! »

ثم القيت العلبة فى أحد الاركان واطفأت المصباح واستلقيت على فراشي ، غير منصتة لالحاح أستاذى !

. . . . . . .

اقتربت الساعة من الخامسة ، وبدأ نور الفجر ينبثق ، وأنا جالسة فى فراشي – يغطى كتفى المقرورتين شال من الصوف الابيض – أسجل خواطرى ، وأفكر فى كل ما مر ؛ فتبينت بعدالتفكير المضنى أنه لم يكن بوسع « فريحة » أن تستوعب رسم هملت بدقائقه فى ذهنها بمجرد نظرة عابرة ، وشرحه لجاويدة .. وتذكرت – فى هذه اللحظة – بسمة أستاذى المحملة بالمعانى الخفية ، فأثارت ريبتى وشكوكى ! .. وبارحت فراشي بحذر ، وفتحت غطاء العلبة بهدوء ، ورفعت رداء « هملت » لاقارن بينه وبين النموذج ، فسقط من بين طياته شيء ، ما أن لمحته عيناى حتى شعرت بدوار . ولو لم أستند الى الحائط بسرعة ، لانكفأت على وجهى لشدة المفاجأة .. وبعد قليل ، مددت يدى المرتجفة نحو العلبة المخملية الصغيرة الحمراء – التى سقطت من طيات الرداء الاسود – وردد الهواء فى سمعى صدى صوت أم حزينة ، انبعث من مكان سحيق ، يقول : « لقد انقذت نديم يانوران ،



وكنت له ملاكا حارسا .. اضأت حياته بقبس أمل طوته الايام وأذوته الزوابع ، وأضفيت على روحه الثائرة بهدوء والسكينة بحنانك الفياض ، هذا دين ثمين لا يقدر ! .. ولا يخطرن ببالك أننى أقدم لك هذا الخاتم وفاء لبعض هذا الدين ! .. لا ، وانما ليذكرك بأم عجوز دعت - وتدعو وستدعو - لك دائما من كل قلبها لتنالى حقك من السعادة والهناء ! »

وفتحت العلبة ، فاذا الخاتم اللؤلؤى يطالعنى بعينه **السوداء .. وفى تلك اللحظة ، تبلجت لى الحقيقة ناصعة كالصباح المشرق .. بهذا البرهان الساطع الملموس ، تحققت مما كنت أشعر به ولا أفهمه ، ولما كنت احس به ولا أراه .. وعرفت الظلال الخفية التى تأثرت خطواتى أينما سرت ، واحاطتنى برعايتها أينما تنقلت !**

وانكفأت على وسادتى حتى أكتم صيحات الهناء المتدفقة فى قوة جائحة .. وبكيت ! .. بكيت لفرط السعادة !

**( بشيكطاش ) فى : ٥ مارس**

• لم أمسك القلم بعد ذلك الصباح الذى بدد بنوره ظلام الدنيا ، والذى أضاء فيه الامل ظلمة اعماقى .. فما كان بوسعى أن أكتب كيف ولد أملى ، وكيف مات بعد ولادته بساعات ! .. اننى أفكر الآن فيما كنت انتظره ، وفيما كنت

**أرجوه ! .. يا الهى ، ما أشد حقدى على نفسى الضعيفة ، لانسياقها وراء الاوهام ! .. اين كانت عزة نفسى ؟ ..**

انني أبغض هذا الحاكى ذا الغلاف الاحمر ، وأبغض عطر « الليلا » .. يالهما من خادعين ، أغريانى بالمسير وراء سراب خادع ، واثارا فى قلبى شكوكا حركت آمالى ! .. هذه الشكوك المستترة ـ التى منت قلبى بآمال خفية ـ وهذه الظلال المبهمة التى كانت ترعانى أينما سرت ، عرفت اليوم صاحبها ..

**وهذا ما حدث :** فى الصباح بارحت المنزل مبكرة ـ دون ان أفاتح أستاذى فى شىء ـ وذهبت الى منزل « جاويدة » ، يدفعنى الامل ويحثنى على الاسراع .. وقالت الخادمة ونظراتها تشف عن حيرتها من مجيئى : « أنسيت أن اليوم هو الاحد يا آنسة نوران ؟ .. ان سيدتى نائمة لانها أمضت سهرة الامس فى المرقص كما تعلمين ! »

وانتظرت الساعات الطوال ، الى أن استيقظت أخيرا ..

وقابلتها بسيل من الاسئلة أربك تفكيرها ، فقالت : «رويدا، رويدا ! .. دعينى أفكر يا آنسة نوران ! .. أى نعم ، لقد صنعت زى « هملت » ، طبقا لنموذج من ريشتك كما خيل الى .. انتظرى برهة ، فالرسم هنا وسأطلعك عليه ! » .

**وكان الرسم من ريشتى حقا .. عين الرسم الذى أعطيته لخالدة ، فمن الذى أخذه منها واحضره الى هنا ؟ ! ..**

وقضت كلمات « جاويدة » على الآمال التى كانت تداعب مشاعرى ، اذ قالت : « لقد أحضرت الى هذا النموذج سيدة مسنة مشلولة الذراع ، لا أدرى أهى مصرية أم تركية ، لاننى سمعتها تتحدث باللغة العربية مع تابعتها ، التى كانت تساعدها أثناء سيرها .. ولقد قالت لى : **« أريد زيا مطابقا لهذا النموذج ، فى خمسة أيام ، على أن يكون مناسبا لقوام نوران هانم التى تعمل عندك ! .. انه لها ، ولكننى اود اخفاء الامر عنها ، ليكون مفاجأة ! » .. ودفعت الاجر مقدما .. »**

ولم انصت لمزيد ، اذ شـعرت بظلام دامس يطارد النور فى أعماقى ، فأخذ نور الامل يخفت .. الى أن انطفأ !

وتطلعت عينـاى الى الماضى البعيـد وقلت لنفسى : « ان **الطيف الخفى الذى رعانى عن بعد ، لم يكن غير أم مدينـة ، توفى بعض دينها القديم .. فحسب ! »**

وفى المساء ، خاطبت أستاذى على مائدة العشـاء قائلة : « لن تستطيع ـ بعد اليوم ـ اخفاء أعمالك عني ، فلقد عرفت من الذى أخذ النموذج من « خالدة » ، وعرفت لمن أعطاه ! » .. وأشرت بيدى الى الحاكى ذى الغلاف الاحمر اشارة مبهمة ، وتابعت حديثى قائلة : « وتفتحت عينـاى .. وفهمت كل شيء ! » .. ولعل المرارة التى شابت صوتى الخافت جعلته يتطلع الى بحنان ، وقد أشعرته بخيبة الامل التى منيت بها من جراء السراب الخادع الذى تعلقت به . فهز رأسه هزات متوالية .. وشعرت انه كان يود أن يقول لى شيئا ، ثم عدل .. وما لبث أن ابتسم قائلا : « ومع كل ذلك يانوران ، فأنت لم تفهمى بعد شيئا ! » .. ولم يزد ، ولا أنا سألت مزيدا !

وفى هذه الليلة ، نمت لاول مرة كانسان يائس فقد كل أمل له فى الحياة .. وفى أثناء نومى ، كان الامل الحبيس يهمس لى بأدلة جديدة ، ويحاول أن يقنعنى بصحتها . واستغرقت فى النوم وكلمة أستاذى تتردد فى ذهنى ، فأتساءل : « أحقـا اننى لم أفهم بعد شيئا .. رغم كل ذلك ؟ »

**( بشيكطاش ) فى : ٢٣ مارس**

• لم أخط حرفا واحدا منذ عشرين يوما ..

بعد ليلة المرقص ، ساد مصنع الخياطة الكساد الذى يعقب العمل المتواصل عادة ، كما أن ادارة السينما اصبحت تعيد عرض أفلامها السابقة بسبب انتهاء موسم العرض الشتوى .. واعتراني خمول عجيب من قلة العمل ، جعلني لا أبارح

المنزل أياما متوالية . فصرت أجلس الساعات الطوال أمام النافذة ، أراقب المارين فى طريقنا الموحل ، وأترقب الدخان المندفع من باب المقهى كلما فتح .. أتراني كنت أبصر كل شيء مر أمام ناظرى ؟ .. لا أدرى ، لان عينى كانتا تراقبان فقط .. أما روحى فكانت تسبح فى أفق بعيد جدا عن هنا ! .. وتيقنت اخيرا أن سطورى التى كتبتها قبل عشرين يوما ، ووصفت فيها نفسى بانسان بائس ، لم تكن تعبر عن حقيقة شعورى ، لانني بالرغم من كل شيء ما زلت أنتظر المجهول.. لماذا أنتظر ؟ .. وما أمنيتى من هذا الانتظار ؟ لست أدرى كذلك ، ولكنى اشعر باندفاع جارف لانتظار شيء ما ، وكلمات استاذى ذات المعانى الخفية ، كنزا يمد روحى بالابتسام والرجاء .. وكثيرا ما رددتها لنفسى قائلة : « ومع كل ذلك يانوران ، فأنت لم تفهمى بعد شيئا ! » .. وكنت أعمد الى الحاكي ـ أحيانا ـ فأستمع فى وجد لنبرات الموسيقى الرخيمة الحالمة ، التى تحملنى مع تموجاتها الى مكان بعيد عن هنا كل البعد . وكثيرا ما كنت أسمع صوتا حنونا يهمس قائلا : « لسنا نملك لانفسنا شيئا يانور ! »

( بشيكطاش ) فى : ٢٥ مارس

• **تلقيت** بسرور دعوة من « جاويدة » ، مساء أمس .. وشعرت بنشاط يدب فى أطرافى بعد هذا الخمول الطويل ، فبارحت الفراش مبكرة ـ صباح اليوم ـ استعدادا للخروج. ورأيت استاذى يتلكأ على غير عادته، ويمكث فى ثيابه المنزلية. وما لبث ان قال : « لن أذهب اليوم الى المدرسة يانوران ـ فقد سمحت نفسى بأجازة ! .. اننى مدعو الى عرس ! »

وتابع حديثه دون أن أسأله : « أعرفت من هو العريس السعيد ؟ .. انه جارنا الشاب .. وعروسه فتاة سمراء

جميلة مثلك ، أرانى صورتها الحاج فاضل ! » .. اذن فهذا هو السبب الذى أطار النوم من عينى « خالدة » الصغيرة ، والزمها صمتا حزينا منذ اسابيع .. وهتفت فى خوف مباغت ليس له ما يبرره : « اياك أن تتنبىء خالدة ! » . فقال : « أما زلت تولين هذه الفتاة البلهاء كل هذا الاهتمام ؟ .. يا لله من خيالك الروائى الخصب يانوران ! .. انه يصورها شهيدة من شهداء الغرام ، مع أن مثل هذه الامور لا تخطر بذهنها المعتل ، وهى تعيش فى عالمها الغريب ! »

وبحثت عنها قبل خروجى .. ولم يستغرق بحثى عنها طويلا ، فقد وجدتها فى المطبخ ، جالسة فى أحد اركانه ووجهها متجه الى الحائط ، وقد انهمكت فى اشعال « الكانون » . فاقتربت منها دون أن تشعر .. ولعلها فوجئت بيدى وهى تربت شعرها الذهبى بحنان ، لانها ارتجفت من لمستى ، واطلقت ضحكة مرعبة ، ارتجفت منها . وقالت جدتها بحدة : « ألم أقل لك ستين مرة ان لا تضحكى هكذا ؟ .. لا أدرى ماذا دهاها يانوران هانم ، فهى تضحك هكذا منذ المساء ! »

ولم تأبه « خالدة » لتأنيب جدتها ، بل مست يدى بطرف ريشة عودها ، وقالت : « ليتك تسمحين لى بأن ارافقك اليوم ! » .. فنظرت الى عينيها الفارغتين ، لعلى أفهم ماتريده . ولكنهما كانتا خابيتى الذكاء . فقلت لها : « اليوم ؟ .. مستحيل ياخالدة ، لان الجو ممطر . ولكنى أعدك بأن أصطحبك عندما يصحو الجو ! » .. فصفقت بيدها كالاطفال

. . . . . . .

**ووجدت** « جاويدة » جالسة الى مكتبها تكتب ، فما أن رأتنى حتى تركت قلمها ، واتجهت نحوى مرحبة معاتبة : « ما هذا الوفاء ؟ ! .. لو لم ابحث عنك ، لما رأيتك .. حتى فريحة تشكو منك مر الشكوى ! » . وتحولت تتحدث عن

السبب الذى استدعتنى من أجله : « أتعرفين ممثلة الفرقة القومية الاولى ، فريحة فرين؟.. لقد أعجبت جدا بالازياء التى وضعت تصميمها ، وطلبت مقابلتك لتستأنس برايك فى زى قديم ستظهر به على خشبة المسرح ، فأرجو أن تنتظرى الحظة ، وسأطلبها تليفونيا ! »

**وبعد وقت قصير ، رأيت الممثلة الاولى تجتاز عتبة الغرفة .. يا لله من سحر أضواء المسرح الخادعة ! .. لقد كنت لا أعرفها ، اذ كنت أتصورها ذات جمال فتان ـ كما رايتها مرارا على خشبة المسرح ـ فاذا بى اراها وهى بعيدة عن انوار المسرح الساحرة ، وبعيدة عن الوان المكياج الخادعة ، امرأة ذات جمال متوسط ، وان لم تخل من فتنة ورقة ارتاحت لها عواطفى من أول نظرة ! ..** وبعد أن أثنت على الازياء التى رأتها فى المرقص ، قالت : « لم أعتمد على انسان قبل اليوم فى انتخاب أزيائى ، ولكنى أريد مساعدتك بعد أن رأيت تصميماتك التى تدل على الخبرة والاطلاع يانوران هانم .. سنعرض مسرحية جديدة فى ١٥ ابريل ، قبل قيامنا برحلتنا السنوية . وسأظهر ـ فى الفصل الثانى ـ فى دور مومياء مصرية . لذلك أود أن يكون ثوبى مطابقا لزى أميرة فرعونية ممن نراهن فى التوابيت ! »

وفيما كنت منهمكة فى الرسم ـ بمجرد عودتى ـ اقبلت « خالدة » كسيرة الخاطر ، وقد بدا وجهها أشد شحوبا من المعتاد . وكانت نظراتها تتحاشانى فى حزن عميق !

وجلست فى مكانها المعتاد ، ولفت ذراعيها حول ركبتيها ، وارخت أهدابها الطويلة مصوبة نظراتها نحو الارض .. ترى فيما كانت تفكر ، وما الذى شغل بالها ؟ .. لست أدرى ، ولكنى انهمكت فى العمل ، فلم اشعر بها وهى تبارح الغرفة ، الا حين ناديتها مرارا فلم أسمع جوابها . واقتربت من النافذة المطلة على الردهة السفلى ، وناديت مرة اخرى . فاجابتنى

جدتها قائلة : « انها لم تعد بعد ، فهل أرسلتها بعيدا يا ابنتى ؟ »

**ـ الى أين ذهبت ؟ .. اننى لم أكلفها بأى شىء !**

وفى هذه اللحظة طرق الباب ، فذهبت السيدة لتفتحه ، بينما نزلت بضع درجات لاستطيع رؤية الطارق .. واذا خالدة تدخل حتى اذا أغلقت الباب وراءها ، خلعت حذائيها المبتلين . وسمعتها تجيب عن أسئلة جدتها المتعددة ضاحكة : « هكذا أخدعك ! .. لماذا لم تسمحى لى بالخروج ، حين أبديت رغبتى فى زيارة مرشدة ؟ » .. وفى هدوء صعدت عائدة الى مكانى قبل أن تلمحانى . وبعد قليل ، حضرت « خالدة » .. وبماذا أصف لونها الغريب ؟ .. لست ادرى أكان أخضر قاتما ، أم أصفر شاحبا ، أم مزيجا من اللونين ! .. وادهشنى ان ارى عينيها محمرتين من كثرة البكاء ، وأنا التى سمعتها منذ برهة تضحك . ومدت لى يدها بعلبة من الورق الابيض المفضض ، وقد زين غطاؤها بزهرات الليمون ، رمز السعادة

**وقالت وعيناها مغرورقتان بالعبرات : « اليك حلوى العرس .. تذوقيها ! » . واسقطت العلبة . ثم جلست على الارض امامى ، وأخفت رأسها المريض بين ركبتى ، وأخذ كتفاها يهتزان بشدة من تأثير ضحكها .. وكانت المسكينة تطلق ضحكات عصبية مستمرة ، أمر وقعا من البكاء .** فرفعت رأسها المتعب وسألتها ، وأنا اربت وجنتيها بحنان : « أين كنت يا خالدة ؟ » . فأبرقت عيناها الفارغتان بومضة ذكاء ومعرفة ـ رأيتها قبل اليوم ـ وأجابتنى وشفتاها تنتفضان :

ـ ألم تعرفى بعد أين كنت يا أبلة ؟ .. كنت فى عقد قرانه !

قالت كل ذلك فى صوت حزين ، وعبراتها تتساقط متتابعة على خديها ، وهى تكتم آلام قلبها المبرحة فى صبر عجيب ، ثم تابعت حديثها قائلة : **« ليرعه الله ويسعده فى كل أيام حياته ! .. ماذا يفعل بفتاة مثلى مريضة جاهلة ، وهو الشاب الكامل المتعلم ؟ .. له كل الحق فيما فعل ! »**

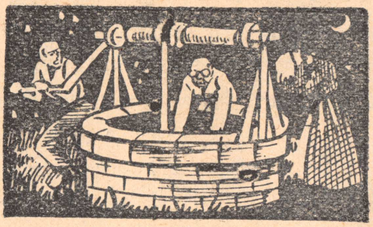
وقبلتها بحنان ، وحدثتها طويلا لاروح عنهـا . فما لبثت نفسها أن هدأت . وقالت لى وهى تمسـح وجههـا المبلل بالدموع ، وقسماتها تعبر عن خوفها من شىء تجهله : « شىء فى أعماقى يوجعنى .. ورأسى يدور ، فكأن الدنيا تدور بى .. هذا عارض سيزول بعد قليل ، اليس كذلك يا أبلة ؟ » .. ولست أدرى لماذا لم أعد أطمئن لنظرات عينيها . وأخافتنى رجفات شفتيها التى عبرت عن أشياء خطيرة ! وفجأة بارحت الغرفة مسرعة . ولكنها عادت بعد قليل تحمل أشغالها اليدوية ، فراحت تعرض على كل قطعة منها قائلة : « هذه للوسادات ، وهذه لغطاء السرير .. وهذه لم تتم بعد ، ولكن فى امكانك وضعها فى ملاءة السرير من طرف واحـد ! » . فقاطعتها مستفسرة فى عجب : « من ؟ ! .. أنا ؟ » . فأومضت عيناها كالشمعة حين تحتضر . وقالت : « **ولمن اذن؟.. انها لعرسك ..لعرسك أنت !** »

ثم كورت قطع « الدانتيلا » بغضب ، والقت بها نحوى فى حنق وغيظ ، وكأنها هى التى تنكرت لعهدها ، وحطمت أمانى قلبها ، ثم خرجت من الغرفة .. وبعد قليل سمعتها تردد أغنيتها المحبوبة : « تعال يا حبيبى تعال ! » . ولكنها لم تتمها .. وسمعتها تطلق ضحكات جنونية متتابعة !

**( بشيكطاش ) فى : ٣٠ مارس**

• **أمسكت** القلم – بعد مرور خمسة أيام – لاكتب . ولقد أردت قراءة سطورى السابقة فلم أستطع ، لان عبراتى حالت بينى وبينها . وخيل الى أننى لا أزال أسمع صوت « خالدة » يردد الاغنية المرحة ، دون ملل أو تعب .

فى هذه الليلة المشئومة ، مكثت خالدة بجوارى تراقبنى وأنا أضع « الرتوش » الاخيـرة لنموذج « فريحـة هانم » الفرعونى . وكانت تحدثنى باستمرارا ، حديثا غير متناسق ،



ولكن جملها الناقصة كانت مفهومة . وقد سرني جدا تخلصها من الصمت المؤلم الذى احتواها الايام الماضية .. فلما كانت الساعة العاشرة ، نام أستاذى . ولكن خالدة لم تتركنى ، بل راحت تساعدنى فى كل ما كنت أهم بعمله ، حتى أنها فتحت لى النافذة لتهوية الغرفة قبل نومى ، ثم دثرت جسمى بالغطاء جيدا . وقالت : « النجوم تلمع فى كبد السماء ، وهذا دليل على أن الجو سيكون صحوا ، ولن تهطل الامطار غدا ! » . وكان صوتها هادئا ، فلم يثر فى نفسى اية ريبة .. وابتسمت اذ أدركت أنها تذكرنى بوعدى ، وقلت وأنا أداعب جديلتيها المتدليتين على جانبيها : « اننى لم أنس وعدى يا خالدة ، وساصطحبك غدا – ان شاء الله – الى السينما .. هيا يا « قديسة » ، اذهبى ونامى ! »

واهتزت نبرات صوتها قليلا ، وهى تجيبنى : « ان شاء الله يا أبلة ! » . وانصرفت !

وفى فجر هذه الليلة صحوت على أصوات خيل الى – أولا – اننى أسمعها فى منامى ، حتى اذا تخلصت من الخمول المتحكم فى أعصابى – من جراء جرعة الدواء المنوم الذى تعودت تعاطيه منذ مرضى الاخير – انتبهت الى أن باب غرفتنا كان منفرجا ، والمصباح الساهر الصغير يبدد بضوئه الباهت جزءا من ظلام الغرفة . ونظرت الى فراش أستاذى ، فوجدته

شاغرا ، والاغطية ملقاة على الارض .. وظلت الاصوات الغريبة المبهمة تسرى الى سمعى ، فقفزت من فراشى فى الحال، وارتديت معطفى وقلبى يضطرب موجسا بين حنايا صدرى ، وقد أدرك بغريزته الحساسة النكبة التى حلت بالدار الآمنة ، قبل أن يتصورها عقلى !

وهبطت درجات السلم وانا نصف نائمة ، واتجهت نحو مصدر الاصوات .. وقبل ان أتساءل عن معنى الانين المنبعث من السيدة العجوز ، وجدت نفسى فى المطبخ .. وكان استاذى والحارس — الذى عرفته فيما بعد — وشخصان غريبان ملتفين حول حافة البئر ، يشدون بقبضاتهم حبالا غليظة وسلاسل حديدية . وكانت السيدة العجوز تحوم حولهم مولولة صائحة : « ابنتى ، يا حبيبتى ! » ، وتمسك أنفاسها قليلا وكأنها تنتظر ردا على ندائها ! .. وما أن أبصرتنى واقفة بجوار الباب دون حراك ، حتى اندفعت نحوى وأمسكت بيدى قائلة : « قولى انه لم يصل اليها بعد فوات الفرصة ! .. قولى بالله انها لم تمت ، وانه سينقذها ! » . ثم أجهشت بالبكاء .

وفى هذه اللحظة ، سمعت صوتا خشنا ينبعث من داخل البئر ، وهو يقول : « ادلوا المصباح قليلا! » .. وكانت السيدة فى حالة يأس مؤلمة ، وقد راحت تمزق ثيابها وشعرها .. ولاول مرة فى حياتى صاح أستاذى فى وجهى بصوت جاف قائلا : « ابتعدى عن هنا يا نوران .. وخذى السيدة معك الى .. ! » . وبتر كلماته فجأة ، اذ سمعنا صوتا آتيا من الاعماق ينادى هيلا .. هوب ! » .. فنشطت الجماعة على أثر هذا النداء وسحبت الحبال الغليظة بقبضاتها القوية . وبالرغم منى تقهقرت الى الوراء ، من هول الموقف . وامسكت بالمرأة المسكينة ، التى كانت تناضل لتبقى فى مكانها .. وبعد قليل ظهرت راس رجل وسط فم البئر ، وعلى كتفه « خالدة » الصغيرة . وقال وهو يضعها على الارض : « لقد وصلنا بعد

الاوان ، للأسف ! »

وحينئذ سكنت السيدة دفعة واحدة ـ وكأنها تحولت الى تمثال صامت لا يحس ولا يتحرك ـ من هول الصدمة . وانتهزت فرصة انشغل أستاذى فيها ـ اذ كان يطلب من الحارس استدعاء طبيب الحى ، سعيا وراء أمل كاذب ـ واقتربت من الصغيرة لاراها عن قرب .. كانت متوسدة الارض كفراشة جريحة ، وجبينها الناصع ملوث بالدم .. ولعل راسها ارتطم بقاع البئر الصلب أثناء سقوطها !.. ونظرت اليها بكل جوارحى .. **كان وجهها ساكنا مطمئنا ، وعيناها مغلقتين ، وكأنها نائمة تحلم .. وثوبها الابيض الطويل المبلل ملتصق بقوامها المتناسق البديع ، وقد انسدل شعرها الاصفر الطويل حول وجهها وعلى جانبها .. ولعل شفتيها المنفرجتين قليلا كانتا تبتهلان الى ربها وترجوان عفه وغفرانه ، فى آخر لحظات حياتها .. ولم ينقص الموت من جمال صباها، بل انه اضفى عليه جمالا طاهرا كجمال القديسات !**

وفى يوم الخميس التالى ، استقبل جارنا الشاب عروسه ، واجلسها فى « كوشة » مزينة بالورد الابيض ، وفتح ابواب داره على مصراعيها لاستقبال المدعوين ، وقد زين واجهتها بمصابيح الكهرباء الملونة والاعلام الحمراء .. أمام عينى منزلنا الحزين ، الذى أظله الموت بظلال قاتمة كئيبة ! .. هكذا هى الدنيا !

**( بشيكطاش ) فى : ١٠ ابريل**

● **ذهبت** منذ يومين لزيارة « جاويدة » .. وبعد ان اعادت على سمعى ثناء واعجاب « فريحة هانم » ـ الممثلة ـ بالزى الفرعونى ، قالت : « اننى سأغلق مصنعى فى نهاية هذا الشهر ، ثم أقوم برحلتى السنوية الى باريس ، لعلى استطيع

احضار أزياء انيقة للربيع .. على أننى اريد منك خدمة أخيرة ، يا آنسة نوران ... أنت تعرفين أن بين أيدينا جهاز عروس شابة ، نجتهد فى اتمامه ، ولا تزال تنقصنا ثلاثة أثواب : اثنان « تواليت » لبعد الظهر ، والثالث ثوب العرس الابيض .. واود أن تبتكرى لنا ثلاثة نماذج لهذه الثياب ، تكون فريدة فى أناقتها ، حتى تنال رضــاء العروس واعجاب الناس .. **لو استطاعت الحضــور الآن لترى قوامها بنفسك ، لكان هذا احسن .. انتظرى ريثما أسألها تليفونيا عما اذا كانت تستطيع الحضور ، او انها لا تزال متوعكة ! »** . وغابت عن الحجـرة قليلا . وعندما عادت أخيرا ، سمعتهـا تقول : « يا للشــابة المسـكينة ! » .. انها لم تبرح فراشها بعد ، وقـد قالت والدتها : « كلمـا اسرعنا فى الاســتعداد للزفاف ، أسرع المرض بالابتعـاد ! » .. لذلك أرجو أن تبتـدئى فى عملك ، حتى أعد كل شىء فى وقته ! .. اننا بحاجة ـ كما قلت لك ـ الى ثوبين لبعد الظهر وثوب العرس الابيض ، وسأتركها لذوقك وأنا واثقة من فنك وابداعك فى التجديد .. والثوبان الاولان ، أحدهما من « الستان » الاسود ، والثانى من التل البنفسجى ، ولن يليق لهذا النسـيج غير الزى الفضـفاض ، ذى الذيل المنقوش والخصر الضيق .. ومن رأيى ان نضع على كتفه الايسر « فيونكة » من شريط من « الستان » بنفس اللون ، أو حزمـة من الزهور .. ولكن ، أتوجد زهور طبيعيـة بهذا اللون ؟ » ..

فاجبتها بكل روحى : « **الليلا !** » . ومطت شفتيها قائلة : « أن زهور الليلا أشبه بعناقيد العنب ، فهى لا تصلح لتكون باقة .. لو كان الثوب أزرق ، لكان فى الامكان وضع حزمة من زهور المينا الزرقاء اللطيفة على كتفه ! » . فقلت : « **لا تشغلى بالك ، ففى امكانى ان اجد لزهور « الليلا » مكانا مناسبا دائما !** »

ـ حسنا ، ارسميها بسرعة ، وارسليها مع اى انسان ، لانني أود أن أستشير العروس ، لامضي في العمل !

. . . . . . .

كنت أعمل في المساء كالمعتاد ، واذا بي أترك الفرشاة لحظة ، وقد علق بصري بمكان « خالدة » الخـــالي .. المكان الذي اعتادت الجلوس فيه تراقبني في سكون .. واغرورقت عيناي بالعبرات ، وغرقت في تفكير عميـــق ، فلم أشـــعر باقتراب أستاذي مني ، الا بعد أن سمعت سؤاله : « لمن هذا يا نوران ؟»

**ـ لشابة مغرمة مثلي بلون الليلا البنفسجية .. انها عروس! .. اسعدها الله !**

وتحولت عن العمل ، ورحت الح عليه بالرجاء في أن ننتقل من المنزل الذي خلع عليه الموت كآبة لم تعد نفسي تحتملها ! وفي الصباح الباكر ، علق أستاذي بيده لوحة « للايجار » المألوفة ، الى واجهة المنزل !

**( بشيكطاش ) في : ١٧ ابريل**

• **ذهبت** اليوم الى « جاويدة » لارى ما تم في أمر النماذج الاخيرة .. ووجـــدت « جاويدة » في أحد أيامها الحـــافلة بالعمـــــل ، فهي تأمر ، وتطلب ، وتســـير ، وتعمـــل ، وتتحدث .. وحين رأتني ، خصتني ببعض وقتها الثمين ، قائلة : « الم أقل لك أن ذوقك لا يضــــارع ؟ ! .. لقدحازت نماذجك الاعجاب ، وتم صنعها .. انتظري لحظة ! » . ثم ضغطت زر الجرس ، وأمرت فتاة باحضار الثوب البنفسجي ، فأحضرته وهي ممسكة به من كتفيـــه .. وقالت جاويدة : « أنيق ، أليس كذلك ؟ .. سأتصل بصاحبته تليفونيا ، فربما طلبت منك عمل شيء آخر ! »

**وتركتني بمفردي مع الثوب البنفســـجي .. كان لونه الجذاب ـ وهو على أحد المقاعد ـ اشبه بكومة متجمعة من**

زهور « الليلا » البنفسجية ، فلم استطع مقاومة شعورى واقتربت نحوه تدفعنى غريزتى الاصيلة الى لمسه .. وبعد أن لمسته ، رفعته من مكانه ، والصقته بجسمى . ثم اقتربت من المرآة لارى صورتى .. وحركت رأسى يمينا وشمالا ، لاتمكن من رؤية قوامى وهو فى هذا الثوب الانيق . وابتسمت فى زهو اعجابا بحزمة « الليلا » الفاتنة التى كانت تتأرجح على الكتف ، وتستلقى زهراتها على الصدر .. وعلى حين غرة ، رايت صورة « جاويدة » فى المرآة ، تتطلع مثلى فى اعجاب .. وقالت : « ما أجملك ، وما أجمل الثوب عليك ! .. كأنه صنع خصيصا لك ! »

وسمعتها تقول وأنا أضـع الثوب فى مكانه الاول : « انك تعرفين مدى ما أوليت هذا الجهاز من عناية . لذلك أريد منك نموذجا آخر لثوب الزفاف ، حتى يكون آية فى الفتنة . ولن أكلفك بطلبات بعد هذا ، لان باخرتى ستتحرك فى أول مارس!.. بل اننى لن ابدى لك رأيا بشأن ثوب الزفاف هذا ، وسأتركه تماما لذوقك الفريد... وان أردت نصيحة منى ، فاننى الفت نظرك الى ثوب زفاف البرنسيس ( ب ) .. انه نادر المثال ، وتجدينه فى أحد أعداد مجلة « فوج » او مجلة « فمينا » ، ولا ما نع عندى مطلقا من أن تأخذى مجموعتى المجلتين ، فربما أوحيتا اليك بفكرة .. ولا تنسى أن النموذج مطلوب فى يوم الخميس المقبل ، وستحضر العروس لرؤيته ! »

**مارس فى يوم ما :**

• فى أعماقى عواطف مختلفة متضاربة ، أزمعت الافلات من قيادتى — وأنا أكتب هذه السطور — فأحاول اقناعها بالهدوء لئلا ترغمنى على كتابة شىء أريد أن أرجىء كتابته الآن ، وأنا أعلل نفسى الثائرة بالامل قائلة : « لقد وصلت الى نهاية دفترك يا نوران ، فاصبرى قليلا . لقد اوشكت أسطورة

حياتك ـ التى بدات تسـطيرها فى يوم عاصف ، وفى منزل حزين باك ـ أن تنتهى ، فتغلبى على عواطفك الثائرة ، وداومى الكتابة كأنك مجرد راوية تروين احدى القصص الخيالية ، تخاف أن تسبق الحوادث فتفقد القصة بهجتها ! .. **واكتبى كل ما حدث بعد أن تغمضى عينيك ، لئلا ترى البحـر الممتد امامها على مدى النظر ، والاشجار الباسقة الوارفة الاغصان ، والخضرة اليانعة ، والازهار الجميلة المزدهرة فى كل مكان ! »** .

لقد استيقظت من نومى فى صباح يوم الخميس ـ الذى واعدت فيه جاويدة ـ وأناسعيدة هانئة وكأن نسيم السحر فرق برقته همومى المتراكمة فى أعماقى ، وأسبغ عليها رضاء ودعه .. ووجـدتنى أردد ـ منـذ فتحت عينى ـ فى ذلك الصـباح احدى أغانى الربيع ، بصوت خافت ، جـزل ، طروب .. أغنية كان مطلعها : « **عنـدما تفتـح الليـلا ، تذكرى .. ! »** . ممن سـمعتها ، ومتى حفظتها ؟ .. لا أدرى ، ولعلى سمعتها أثناء عملى فى السينما !

وبعد قليل ، كنت أخترق حينا الموحل ، وفى حقيبتى آخر نموذج تنقطع بتسليمه السبل بينى وبين العمل .. **ومع ذلك ، كانت اعماقى جذلة طروبا ، تحن الى الربيع حنينا لا يقاوم**

ولم أجد « جاويدة » فى المنزل ، وقيل لى أنها تعود بعد نصف ساعة على الاكثر ، فانتظرتها فى غرفة الاستقبال .. وسرى الى سمعى غناء احدى الفتيات ، وهى تترنم بصوت منخفض أثناء عملها ، فأنصت لاغنيتها .. كانت هى الاخرى محملة بشذى الربيع ، واصفة زهره البرى بين الربى ! .. وما لبثت « جاويدة » أن وصلت بعد مدة ليست بالقصيرة ، فاعتذرت لى ، ورحبت بى ، ثم قالت : « العروس الشابة لن تأتى اليوم ، لان الدكتور لم يسمح لها بالخروج من المنزل . وقد اتصلت بى تليفونيا ، قبل خروجى ـ هذا الصباح ـ وطلبت منى أن اوافيها فى المنزل ، لتبدى رأيها فى نموذج ثوب

الزفاف ، قبل البدء فى عمله .. ولم أستطع رفض رجائها ، لانها من أعز عميلاتى . ولكننى مشغولة بالاستعداد للسفر ، فهل تنوبين عنى يا آنسة نوران ؟ »

واذ قبلت الرجاء قالت : « من الصعب جداً الاهتداء الى المنزل، لذلك سأتصل بهم ليرسلوا سيارتهم ، كما أرسلوها لى منذ يومين .. وستنتظرينها حوالى ساعة لبعد المسافة ، ولكن انتظار ساعة خير من تعب الطريق ! » .. وبعد ساعة تقريبا ، كنت داخل سيارة فخمة مريحة ، اجتازت الطريق مسرعة ، الى أن اخترقت حى ( بشيكطاش ) . وبعد أن اجتازت ضاحية ( الارانطة ) ، تابعت سيرها على طريق الساحل ، ففتحت زجاج السيارة ، ورحت أستنشق هواء البحربظما ، حتى رويت أعماقى المتعطشة .. ما لبثت السيارة أن انحرفت عن طريق الساحل ، ومضت مسرعة فى طريق الكلية . وتراءت ــ عن بعد ــ رؤوس أشجار الحور الضخمة ، وبينها أشجار الكستناء البرية وقد فتحت زهورها الوردية . وعادت بى الذكرى الى يوم شتاء عاصف .. وتمثلت فتاة حزينة تسير تحت هذه الاشجار بخطوات أثقلها الاسى، وصوت دعاء يملأ جوانحها وتردد الاجواء العاصفة صداه : « ليساعدك الله يا نوران ! »

وخيل الى أننى أحلم ، فجلست ساكنة لا اتحرك ، حتى لا يختفى هذا الحلم السحرى من أمام ناظرى .. وتتابعت المناظر التى طالما عشقتها ، الى أن رأت عيناى عشى الجميل فى حلة جديدة من الطلاء الابيض الناصع ، وقد اصلحت شرفاته ، وتسلقت عواميدها الازهار ذات الشذا العطرى الجميل .. ومع ذلك لم تتحرك سواكنى ، ولم تتخلص من خمولها السحرى الذى لا يوصف ! .. حتى بعد ان وقفت السيارة أمام بابه ! .. ونزلت دون أن التفت نحو السائق الذى فتح بابها لى .. اننى لاوقن من انه لو ان قذيفة

**كانت قد انفجرت بجوارى ـ فى تلك اللحظة ـ لما سمعت دويها ، لاننى كنت فاقدة الشعور تماما ، وقد تحول كل ما بى الى عينين تحدقان فى باب عشى الجميل ، واغصان (( الليلا )) البنفسجية تزينه !**

ومن المدهش اننى لم اتعجب لوجودى فى هذا المكان ، ولم اتساءل ، ولم أكلف نفسى عناء التفكير ، لان احساسى كان متجمعا فى نظرات عينى ، وكان فى هذا كفايتى .. الم اكن ارى أعز شىء عندى فى الحياة ؟ .. كنت كآلة صماء تسير بلا شعور ، الى ان اجتزت عتبة الباب الزجاجى .. واذ ذاك شعرت برجفة سرت سريعة فى كيانى ، فتعثرت منها خطواتى

**كان السكون المطلق مستتبا فى أركان المنزل .. لا صوت ولا حركة ولا حياة ، وجميع الابواب مفتوحة على مصاريعها كأنها تستقبل انسانا ما ! .. وسرت بحذر وخوف ، ولعلى كنت أخاف اليقظة من حلمى الجميل! .. من أنا ؟ .. وأين كنت ؟ وماذا حدث لى طوال هذه الغيبة ؟** .. الم أكن انا التى حكم عليها القدر بالحرمان من عشها الوفى الدافىء ، ورماها وسط تيارات الحياة القاسية بلا نصير قوى يذود عنها ويطيب خاطرها ؟ ! .. الم يجتمع حشد من الغرباء هنا فى هذا المكان، كل منهم يحاول أن يقتطع لنفسه قطعة من نفسى بثمن بخس، ثم يحملها الى منزله ، ويحمل معها اثرا من آثار طفولتى السعيدة ؟ .. الم يتفرق أثاث منزلنا كل قطعة فى واد كأصحابه ؟

**اذن ، فاية قدرة خارقة جمعته ثانية ، ووضعته فى اماكنه القديمة .. لابد اننى احلم ! .. وتقدمت فى خوف وحذر ، واقتربت من الاريكة الحمراء ، فمسحت بيدى على آثارالمداد الازرق الذى سقط منى عليها فى يوم ما .. كان الاثر كما هو لم يتغير ، فهل كنت أحلم حقا ؟**

واحسبنى اتجهت ـ بعد ذلك ـ نحو غرفتى الخاصة التى

شاركتنى أيام النعيم وأيام الجحيم .. ووجدتها كما تركتها تماما ، غير أن أخشابها الكالحة اللون ـ من القدم ـ أصبحت فى لون بديع ! .. وخيـل الى ـ حين نظـرت الى وجهى فى المرآة ـ أن تورد وجنتى كان راجعا الى الظلال الحالمة اللون التى عكستها الستائر الوردية فى فضـاء الغرفة ، وليس من فرط سعادتى .. وفى هذه اللحظة تيقنت من أن اليدالسحرية ـ التى حلا لها أن تداعب عواطفى وهى مختفية وراء ستار ـ لا بد أن تكون قريبة من هنا ! ..

وقبل أن أقترب من نافذتى لاطل على طريق منزلنا الخلفى ، الذى تحف به أشجار « الليـلا » الحبيبة وتظلله بأغصـانها المزدهرة ، خيل الى أننى اسمع وقع خطوات .. وقبل أن أجد الوقت الكافى لالتفت ، شعرت بوثبة قوية على كتفى ، من قائمتين كثيفتى الشعر .. قائمتى هذا الحيوان الكبير ، الاحمر الشعر ، الذى راح يحدثنى عن شوقه بهمهمةغريبة ، ولسانه الطويل يلعق يدى ! .. أداعبته ؟ .. أدللتـه ؟ .. لا أتذكر ، لاننى شعرت بظلام حالك يحيط بى ، ويخفى ـ فى غمضة عين ـ الضوء الباهر والمناظر المحيطة بى ، وسمعت طنينا مستمرا فى أذنى ، ورأيت نجوما تومض وتختفى وسط هذه الظلمة .. فقد رأيت صاحب اليد السـحرية بالقرب منى ! .. حتى اذا انقشع هذا الظلام الذى اكتنفنى لحظة ، رايت هذا الخيال ما زال واقفا امامى ، ينظـر الى بعينين مفتوحتين تعبران اجمل تعبير عن حـديث قلب صامت .. حديث كنت دائما أتمنى سماعه .. وأسرتا لعينى بالسر الدفين الذى كنت أتحرق شوقا لمعرفته !

لقد أغمضت عينى الآن لا ستعيد ما حدث ، ولكنى لم أر الا خمائل « الليلا » تحيط بنا فى كل مكان .. كنا نسير فى طريق منزلنا الخلفى ـ أجمـل طريق فى العـالم ! ـ تظللنـا « الليلا » بأغصانها المتعانقة ، وزهورها تتأرج مع النسيم ،

ولعطر الجو بشذاها المسكر .. متى جئنا الى هنا ؟.. وكيف احاطني ساعده القوى وضمني اليه بحنان ؟ .. لا أتذكر أيضا ! .. كل ما أدريه هو انني كنت أسير الى جواره نشوى بالسعادة والهناء ، أستمع لهمساته الرقيقة فى وجد ولذة ، وعبرات الفرح تغمر وجهى ، وتسيل على خدى .. ورأسى مستكن هادىء على كتفه ، لا يحاول فهم ما كان يقول ، بل كان يجد كل النعيم فى هذا الهمس الذى داعب بنبراته الرخيمة اعماقى وادمل بحنانه وحبه جروح قلبى !

وبعد وقت ، ألقيت بالى لحديثه ، فاذا به يقول : « **كنت ارى الضوء ، والشمس ، والقمر ، وجمال الطبيعة ، والاشجار ، والازهار .. وكل شىء صبت اليه نفسى وحرم عليها زمنا طويلا ، فما معنى هذه الحسرات التى يضيق بها صدرى ؟ .. وما سبب هذا الاضطراب الذى يعصف أعماقى؟ .. ولماذا أشعر بوحدة مضنية تفوق تلك التى كنت أشعر بها فى أيامى الحزينة الماضية ؟ .. ولماذا أحن لسماع حديث « نور » العذب ؟ .. ورأيت أن أبحث عنك ، ولكن ..**

« بعد أن عاد الى البصر ـ عقب الصدمة الثانية ، فى تلك الليلة المروعة ـ عادنى الطبيب ، ولم يخف عنى خطورة حالتى ، وأن هذه الخطورة تظل خمسة أشهر أكون معرضا فيها لفقد البصر مرة أخرى بلا رجعة .. فكان على أن أنتظر مرور هذه المدة الطويلة ، تحت العلاج ، حتى يبتعد عنى شبح الظلام القاسى ! .. وقد مرت محملة بشتى الانفعالات النفسية ، خوفا من فقدان نور الدنيا الى الابد ، ومن الحرمان من قربك والنظر إلى جمالك الفتان ..

« **ولكل هذه الاسباب تواريت عنك ـ وأنا فى أشد الحاجة اليك ـ حتى لا تضحى بحريتك وتغلى حياتك بصحبة رجل ضرير .. وكنت ارعاك بحنانى أينما ذهبت ، دون أن أظهر لك ! .. وكنت أراك عن بعد ولا أستطيع الاقتراب منك ! ..**

**وهان على العذاب فى سبيل سعادتك ! »**

وتحدث هكذا طويلا ، فاسمعنى كل ما كنت أتمنى سماعه وانا باكية العين كسيرة القلب ، فى ليالى الارق التى كان يجفونى فيها المنام .. وبعد أن أتم حديثه ، فتح ربطة صغيرة فى يده ، ثم ناولنى دفترى الازرق القديم قائلا . « يقولون أن احاديث السعادة لا تكتب ، فاختمى دفترك بذكر يوم لقائنا هذا .. هيا يا نور ننتخب اسما لقصتنا ! »

**وفكر قليلا ثم قال : « لنسمها : أشواك « الليلا » .. مثلا ! »**

فرفعت رأسى ، ونظرت الى العينين العسليتين ، والى الاهداب الطويلة السوداء .. ورأيت أن ماء الحياة قد سرى فى دمائه واحاله مخلوقا آخر .. مرحا ، طروبا ، حلو القسمات

**فأسندت وجهى الى صدره ، ومال وجهه نحوى فى شوق وحنان ، الى أن التقى الثغران فى .. !!**

وفى هذه اللحظة هب نسيم البحر، فداعب أغصان الخمائل، فتساقطت زهرات « الليلا » حولنا .. وجمعت بأناملى ما وجدته منشورا فوق دفترى ، وقدمته اليه بيد مرتجفة ، ورأسى ما زال على صدره ، قائلة :

**ـ ان خدوش الاشواك قد التأمت اليوم .. ولذلك سأسمى قصتنا : « تحت ظلال الليلا » ، لتعبر عن سعادتنا !**

**« تمت »**



# تحفة من الأدب التركي الحديث..

تحرص "مطبوعات كتابي" على أن تعرج بك - بين حين وآخر - على مناهل ثقافات الشرق الخالدة، بعد أن ظللنا طويلا مشدودين إلى ثقافات الغرب.. وكما قدمت لك شوامخ من الهند والصين وروسيا، تقدم لك اليوم هذه التحفة من الأدب التركي الحديث:

قصة نفسين معذبتين محرومتين، التقيا وقد أضنتهما خطوب الحياة.. إذ فقد الشاب بصره بعد فاجعة جعلته يكره مجرد ذكر المرأة، فتقدمت إليه الفتاة على أنها فتى.. وفي غمار موقف رهيب اكتشف الشاب حقيقتها، فكانت ثورة، وكانت مأساة فرقت بينهما، لتجمعهما - بعد ذلك - مآسي ولوعات تنهمر لها العبرات، وتذوب الأفئدة، وتظل ذكراها على مر السنين في نفس كل قارئ.. هذه هي:

## تحت ظلال "الليلا"!

ألفتها كاتبة تركية، وترجمتها كاتبة مصرية، لتكون مثالا لما بلغته المرأة الشرقية.. في دنيا الأدب!



يصدرها حلمي مراد

## مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية


شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩